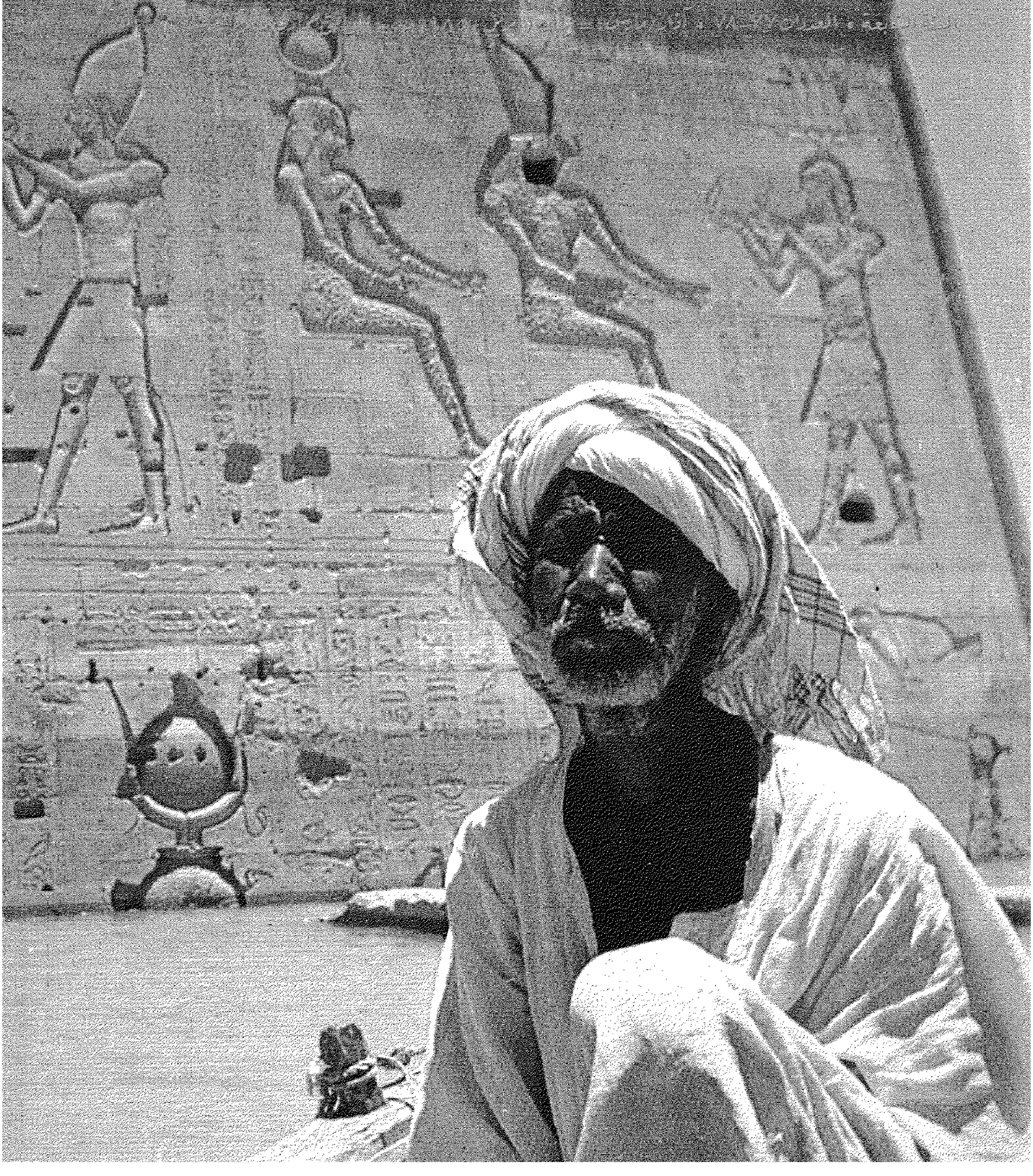
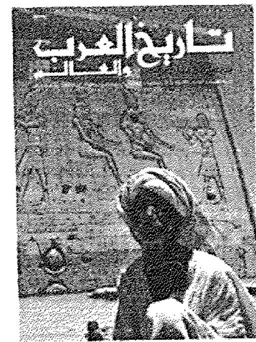
تاريخ العرب والعالم

مجلة شهرية مصورة تبحث في التاريخ العربي



■**سوق على الشاطيء، للفنان فرانك برنجوين**. متحف اورازي، باريس.



■**معبد إيزيس عند نقله من مكانه قبل أن تغمره المياه (مصر).**

تاريخ العرب والعالم

العددان ٧٨/٧٧ ــ آذار ــ نيسان ١٩٨٥

تصدر عن دار النشر العربية للدراسات والتوثيق في منتصف كل شهر

صاحبها ورئيس تحريرها : فاروق البربير

المستشار : د. أنيس صايغ المدير المسؤول : محمد مشموشي

قسم التوثيق والأبحاث : شذا عدرة

قسم التوزيع والاشتراكات : علي عبدالساتر

المخرج الفني : سالم زين العابدين

الانتاج: مطبعة المتوسط ش.م.م.

التوزيع: الشركة اللبنانية لتوزيع الصحف والمطبوعات.

ثمن النسخة

لبنان	٨ ل.ل.	سوريا	٩ ل.س.
العراق	١ دينار	تونس	١,٥ دينار
السعودية	١٠ ريال	الكويت	١ دينار
الأردن	٨٠٠ فلس	الامارات	١٠ درهم
البحرين	١ دينار	قطر	١٠ ريال
مسقط	١٠٠٠ بيزة	بريطانيا	١,٥ جنيه
صنعاء	١٠ ريال	ليبيا	١ دينار
		مصر	١ جنيه

الاشتراكات
(بما فيها أجور البريد الجوي)

- في لبنان: للأفراد ١٠٠ ل.ل.
- للمؤسسات والدوائر الحكومية ٢٥٠ ل.ل.
- في الوطن العربي: للأفراد ٣٥ دولاراً
- للمؤسسات والدوائر الحكومية ٧٥ دولاراً.
- خارج الوطن العربي: للأفراد ٥٠ دولاراً.
- للمؤسسات والدوائر الحكومية ١٠٠ دولاراً.
- اشتراك تشجيعي ٥٠٠ ل.ل.
- تدفع قيمة الإشتراك مقدماً نقداً أو حوالة مصرفية

ص.ب. ٥٩٠٥ ــ بيروت. لبنان ● بناية أبو هليل
شقة ١١ ● شارع السادات ــ تلفون ٨٠٠٧٨٣

HISTORY OF THE ARABS AND THE WORLD

EDITED BY FARUK BARBIR
PERIODICAL ILLUSTRATED
MAGAZINE PUBLISHED FROM SADATE ST.
ABOU HILEIL BLG. P.O.B. 5905 TEL. 800783
BEIRUT . LEBANON

Vol. 7 — No. 77/78 — Mar-April. 1985

ANNUAL SUBSCRIPTION : $100 (INCLUDING $25 FOR ADDITIONAL AIR MAIL CHARGES)
MAIL ALL COMMUNICATIONS,
INCLUDING SUBSCRIPTIONS TO:
«HISTORY OF THE ARABS AND THE WORLD»

في هذا العدد

■ المقالات الواردة توزّع حسب التبويب الفني للمجلة ولا علاقة لذلك بمكانة الكاتب مع حفظ المكانة الإجتماعية للكتاب. تراعى في الألقاب الصفات العلمية فقط ■



● المقالات والدراسات ترسل باسم رئيس التحرير على عنوان المجلة ص.ب ٥٩٠٥ في بيروت.

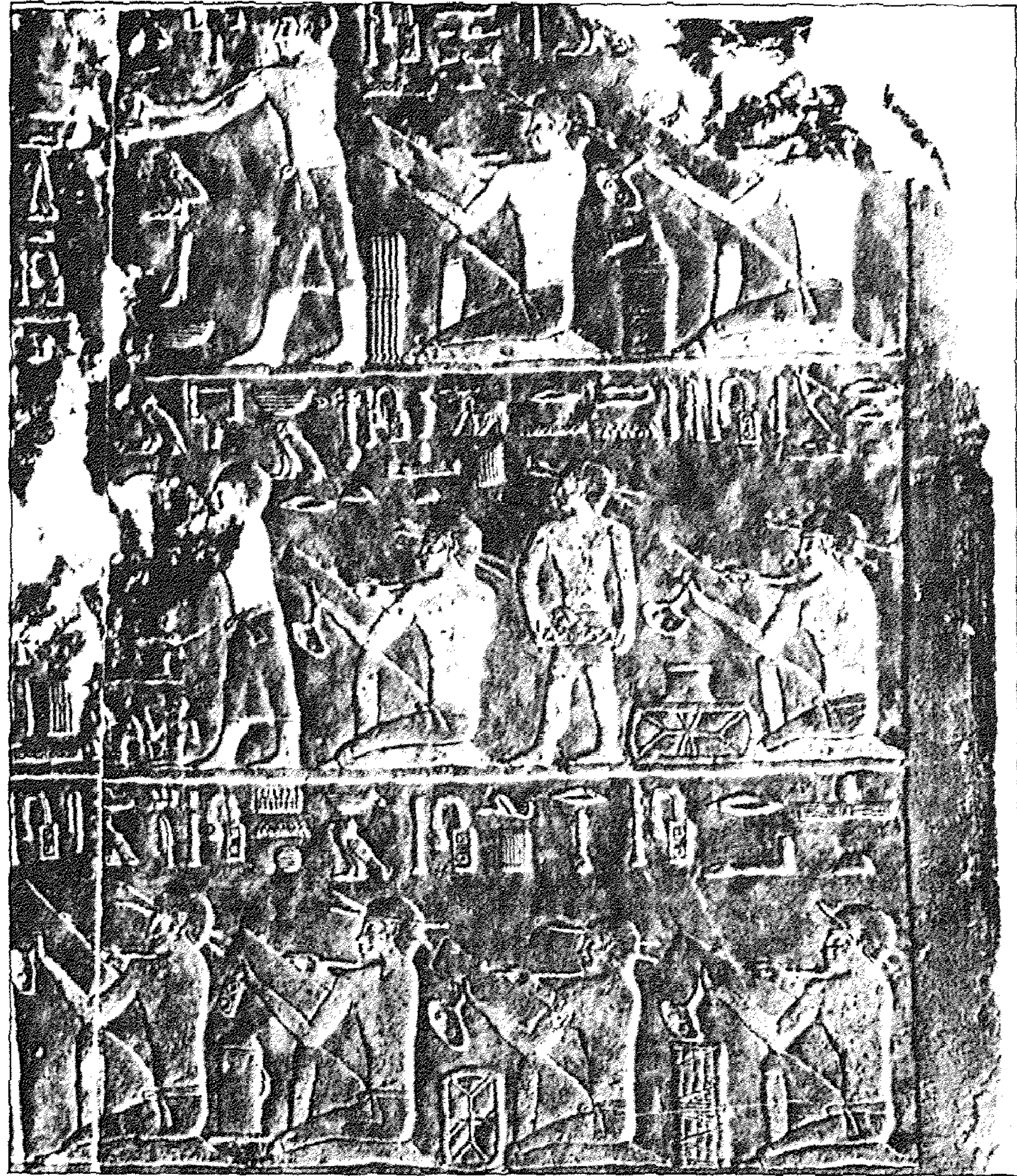
● المقالات والدراسات التي تنشر لا تعبّر بالضرورة عن آراء المجلة.

● المواد الواردة إلى المجلة لا تردّ إذا لم تنشر.

المدرسة

عبر التاريخ

د. نقولا زيادة



□ نساخ مصريون يحملون الألواح ورقائق البردى وتبدو الفراشين خلف آذانهم.

كانت المدرسة ملازمة لقيام المجتمعات المتحضرة. وتاريخ المدرسة هو تاريخ نشر العلم. إلا أن المدرسة لم تكن دوماً حقاً عاماً لأفراد الشعب. ففي العصور المتوغّلة في القدم أعتبر التعليم شيئاً يقتصر على الكهنة ومن إليهم، خاصة فيما يتعلق بأمور العلوم الدينية والفلكية والرياضية والطبية. يتضح هذا في مصر الفرعونية والدول التي قامت في أرض الرافدين. ولكن الأمر تبدل مع ظهور اليونان والرومان على مسرح التاريخ الحضاري. فأصبح لكل من يستطيع أن يحصل على نفقات التعليم أن يدخل المدرسة. ومثل ذلك يقال عن المدرسة البيزنطية.

اما في عصور الحضارة العربية الإسلامية فقد كان الأمر على خلاف ذلك تماماً. كان لكل من رغب مجال للتعلم في المسجد أو في الكتّاب أو في المدرسة النظامية. وينطبق هذا الأمر على الجامعة الاسلامية مثل الأزهر والزيتونة والقرويين وغيرها من معاهد الدراسات التخصصية.

وفي أوروبة في العصور الوسطى كان ثمة مجال للقادرين على التعلم. إلا اننا إذا قارنا بين المجال المفتوح أمام المتعلمين في المجتمع العربي الاسلامي، بما كانت عليه الحال في أوروبا المعاصرة لذلك، وجدنا فرقين مهمين: الأول أن عدد المدارس كان أقل (حتى القرن الخامس عشر على الأقل)؛ والثاني هو أن المتعلم كان عليه أن يتقن اللغة اللاتينية أولاً، لأنها كانت لغة التعليم عموما. ومن ثم فإن المجال أمام الطالب المسلم كان أوسع.

وقد أسهمت منطقة الشرق العربي في العصور الحديثة في فتح المدارس على اختلاف أنواعها. فكانت هناك المدرسة التقليدية والمدرسة الحديثة (هذا بقطع النظر عن الجامعات).

وفي هذه السلسلة من المقالات يعرض نقولا زياده لتطور المدرسة تاريخياً منذ عهد المدرسة الهيكل في عالم الشرق القديم إلى المدرسة في عصر النهضة العربية الحديثة، مروراً بالمدرسة اليونانية والرومانية والعربية الاسلامية والأوروبية في العصور الوسطى وعصر النهضة.

والمقال الأول يتناول المدرسة الهيكل والمدرسة اليونانية وجامعة الاسكندرية. وسنتابع نشر مقالاته الباقية في الأعداد اللاحقة.

---

١ المدرسة الهيكل

المدرسة، من حيث أنها مؤسسةُ تعليمية، مرتبطةٌ تاريخياً بقيامِ المجتمعاتِ المتحضرة. ذلك أن المجتمعاتِ البدائيةَ كانت تكلُ أمرَ تربيةِ أبنائها للأسرة. فقد كان ينشأُ الشابُ والفتاةُ على قواعدِ السلوك، ويُدَرَّبُ على أساليبِ التعاملِ مع الناسِ، ويُرَبَّى على احترامِ قيمٍ معينةٍ والتقيدِ بها في أحضانِ الأسرةِ أو العشيرةِ. وقد يكون

□ د. نقولا زيادة: يحمل شهادة دكتوراه في التاريخ الاسلامي من جامعة لندن. درس في الكلية العربية في القدس، وعمل استاذ للتاريخ العربي في الجامعة الاميركية ربع قرن. له من المؤلفات بالعربية: رواد الشرق العربي في العصور الوسطى (القاهرة ١٩٤٣)؛ والرحالة العرب (القاهرة ١٩٥٧)؛ ولمحات في تاريخ العرب (بيروت ١٩٦٢). وقد ترجم عدة كتب عن الانكليزية منها: تاريخ البشرية لارنولد توينبي (بيروت ١٩٨١ ــ ١٩٨٢).

في العشيرةِ من يُنْظَرُ إليه نظرةً خاصة، لذلك يتولى هو الإشرافَ العامَ على هؤلاءِ الشباب. ويغلبُ على القبيلةِ أو العشيرةِ أن يكون بينَ رجالها جماعةٌ من أهلِ الطب والسحرِ، فيقومُ هؤلاءِ على تدريبِ الصغار في هَذه المجالاتِ، كما أن الصُنَّاعَ كانوا يُدَرِّبون فئةً من الصغار للسيرِ في ركابِهم واقتفاءِ آثارِهم فيما بعد. ولكن يجب أن نتذكر دوماً أن كلَّ هذا كانَ يتمُ في إطارِ الأسرةِ أو العشيرة.

إلا أن انتقالَ المجتمعاتِ البشريةِ إلى الطور الحضاري المستقر تبعَه نوعٌ من توزيعِ الأعمال وتنظيمها. وهنا نجد النواةَ الأولى للمدرسة. وعندها أصبحَ العملُ تعليماً وتعلّماً وصار يتمُ في مكانٍ معينٍ هو المدرسة.

والقضيةُ في واقع الأمر قضيةُ حاجة. ذلك أن المجتمعَ المتحضرَ احتاج إلى أصحابِ مهاراتٍ خاصةٍ يعتمدُ الكثيرُ منها على الكتابة. ومن هنا فقد كانت الوظيفةُ الأولى للمدرسة أن تعلمَ الطلابَ الكتابةَ، وذلك كي يحصلَ الملِكُ على حاجتِهِ من الكتابِ، وليكونَ لحكامِ الأقاليمِ والوزراءِ من يعينُهم على تدوينِ الأمور. كما أن الكهنةَ كانوا يعنون بتعليم الكتابة ليضمنوا الحصولَ على كهنةِ المستقبل.

وإذا كانت هذه من أهم الغاياتِ الأولى لتعليمِ الكتابة، فمعنى هذا أن تعلمَها كان مقصوراً على الفئاتِ أو الطبقاتِ التي يمكنُ لأفرادِها الوصولُ إلى المناصبِ ذات النفوذِ، أي الطبقاتِ العليا. وإذن فعددُ الذين كانت تتاحُ لهم هذه الفرصُ كان صغيراً. يضاف إلى هذا أنه ما دام التعليمُ مصدرَ قوة، فإن الذين كان باستطاعتهم أن يعلموا الكتابةَ كانوا يحافظون على احتكارِ هذه القوة، فلا يسمحون لها بأن تخرجَ من أيديهم.

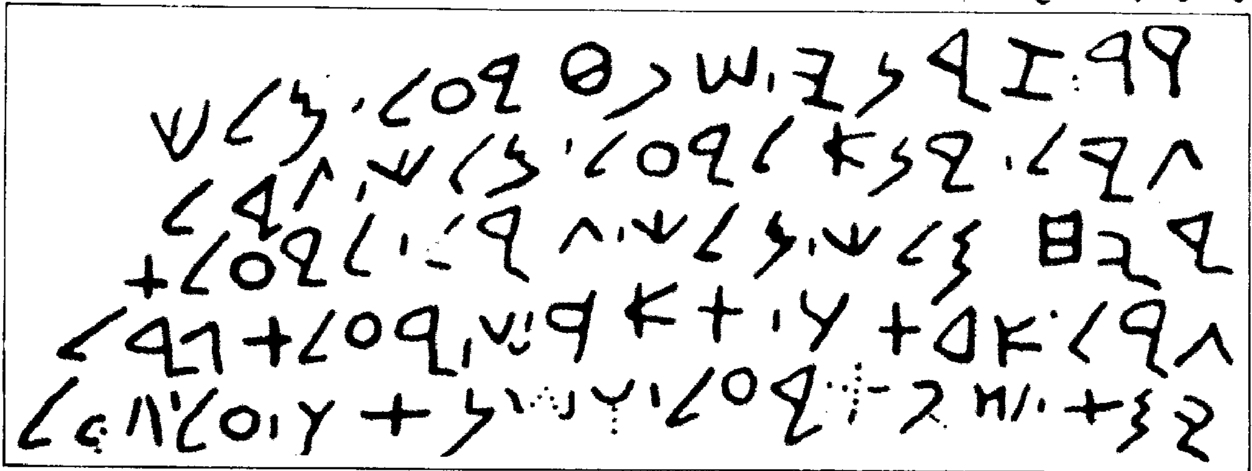
هذا الوضع نجدُه في مصرَ القديمة وفي بلادِ الرافدين. فقد كان الكاهنُ في الأغلبِ من الحالات، هو رجلُ الدينِ والطبيبُ والمهندسُ والفلكيُ. وإذن فهو الرجلُ الذي يستطيع أن يُعَلِّم.

وفي مصر القديمة بالذات كانت الكتابةُ تلزمُ للأحياءِ كما تلزم للموتى، فجدرانُ الغرفِ الداخليةِ للأهرامِ والمقابرِ الأخرى منقوشٌ عليها كلُّ ما يتوجبُ على المرءِ أن يراعيَه في حياتِهِ، ويهتمَ به في الحياةِ الأخرى سواء في بلاطِ الملك أم في قصورِ الحكام أو هياكلِ الآلهة.

ولعل مما يوضحُ أهميةَ الكتابةِ في مصرَ القديمة، ومن ثَمَّ أهميةَ تعليمها، ما قاله إرمان:

«**إن الموظفينَ الكبارَ في المملكةِ القديمةِ كانوا مغرمين بالظهورِ وهم يكتبون، لأن الكتابةَ كانت المهنةَ التي تقوم عليها منزلتُهم وسلطتُهم. فكلُّ مَن تعلَّم الكتابةَ كان الطريقُ**

□ **الكتابة ركيزة الحضارة الأولى، كانت وظيفة المدرسة الأولى. وهذه هي الأحرف الأبجدية التي اخترعها الفينيقيون وحملوها إلى أصقاع العالم.**





□ كاتبان آشوريان، يسجلان تقاريرهما في لغتين مختلفتين. أحدهما يستعمل أداة مستدقة الرأس للكتابة على الشمع باللغة الأكادية، والآخر يكتب بالقلم في الآرامية.

مفتوحاً أمامَهُ لجميعِ الوظائف، وخاصةً إذا كان يحسنُ التعبيرَ عن أفكاره. كان الأولادُ يتعلَّمونَ فيما بين الرابعةِ والعاشرةِ تقريباً تعليماً أولياً يَقْتصرون فيه على نقلِ بعضِ رموزِ الكتابةِ الهيروغليفيةِ القديمة. وعندما يصلُ الولد إلى هذه السنِ كان ينتقلُ إلى مرحلةٍ أرقى يمكن أن يُطْلَقَ عليها جوازاً مرحلةَ التعليم الثانوي. وفيها يقومُ بنقلِ بعضِ الكتبِ المعتمدة التي يختارها من يقوم على تعليمه».

وقد قال بيكي:

«إنه قد وصلت إلينا من مصرَ القديمة بعضُ الكتبِ المنقولةِ عن كتبٍ قديمة.. وإن هذه الكتبَ قد حملت تصويبَ المدرسين على هوامشها، كما كانت هناك بعضُ الرسوم وقد أثبتتْ هذه الكتُبُ المنقولةُ أنها ذات قيمةٍ كبرى في إخبارنا عما كان المصريون يتعلمونه».

ولم يكن كل ما يتعلمُهُ التلاميذُ قائماً على النقل، إذ كانوا يُدَرَّبون أيضاً على كتابةِ

موضوعاتٍ من ابتكارهم تلائمُ المواقفَ المختلفة. فكانوا يكتبون عن رحلاتِ فرعون وموظفيه الكبار، وعن الشؤونِ المتعلقةِ ببناءِ المعابدِ والمدن، وإصلاحِ السفن، ويتخيلون في كتاباتِهم ما يكتبُه الموظفون الصغار لرؤسائهم، وإجابات الرؤساء، وتقديمَ الشكاوى، وغيرَ ذلك من الموضوعات. وكان التلاميذ في كل هذه الحالاتِ يُوَجِّهون ما يكتبونَهُ لمعلميهم أو للفرعون أو لأحدِ الموظفين. وقد وجدتْ كتابات للتلاميذ وجَّهوا فيها لأنفسهم خطاباً بالإهمال والكسل، وإنهم يستحقون الضرب مائة جلدة.

وقد عثر المنقبون في آثار مدن سومر وبابل وآشور على لوحاتٍ من الآجرِّ اتضح لدارسيها أنها كانت كتباً مدرسية. وبيد أن المواد التي كانت تعلم هناك لم تختلف في جوهرها عن هذا الذي ذكرناه عن مصر القديمة.

وقد عرفت مصرُ وأرضُ الرافدين المدرسةَ العالية. وهذه كانت المعابدُ فقط مراكز لها. يقول وهيب سمعان في ذلك:

«وإذا ما تركنا مرحلة التعليم الثانوي إلى التعليمِ العالي، وجدنا أن المعابدَ كانت مراكز لذلك التعليم الأخير. أو بعبارة أخرى كانتْ جامعات ذلك الوقت. وكانت مدينة أونَ (هليوبوليس) أكثر المدن شهرة في العلم. ومما يدل على تقدمها تدريس علوم الرياضة التطبيقية، والفلك، والطبيعة فيها. كما كانت تقدم برامج إعدادية في الهندسة، والقياس والمسح. وقد ذكر هيرودوت أن كهنة هليوبوليس كانوا أكثر الكهنة تقدماً في التاريخ».

والذي نريد أن نقوله هو أن المدرسة ظهرتْ بظهور المجتمعات المتحضرة، ورافقت تطور هذه المجتمعات. وقد اختلفت المدرسة على توالي العصور في برامجها وأساليب التعليم فيها ونظرتها إلى دورها. ففي الفترة الأولى التي أثرنا الحديث عنها الساعة كانت المدرسة محدودة الغاية ضيقة نطاق العطاء محتكرة في معلميها وتعليمها محافظة على مراكز القوة والسيطرة على هذه السبل.

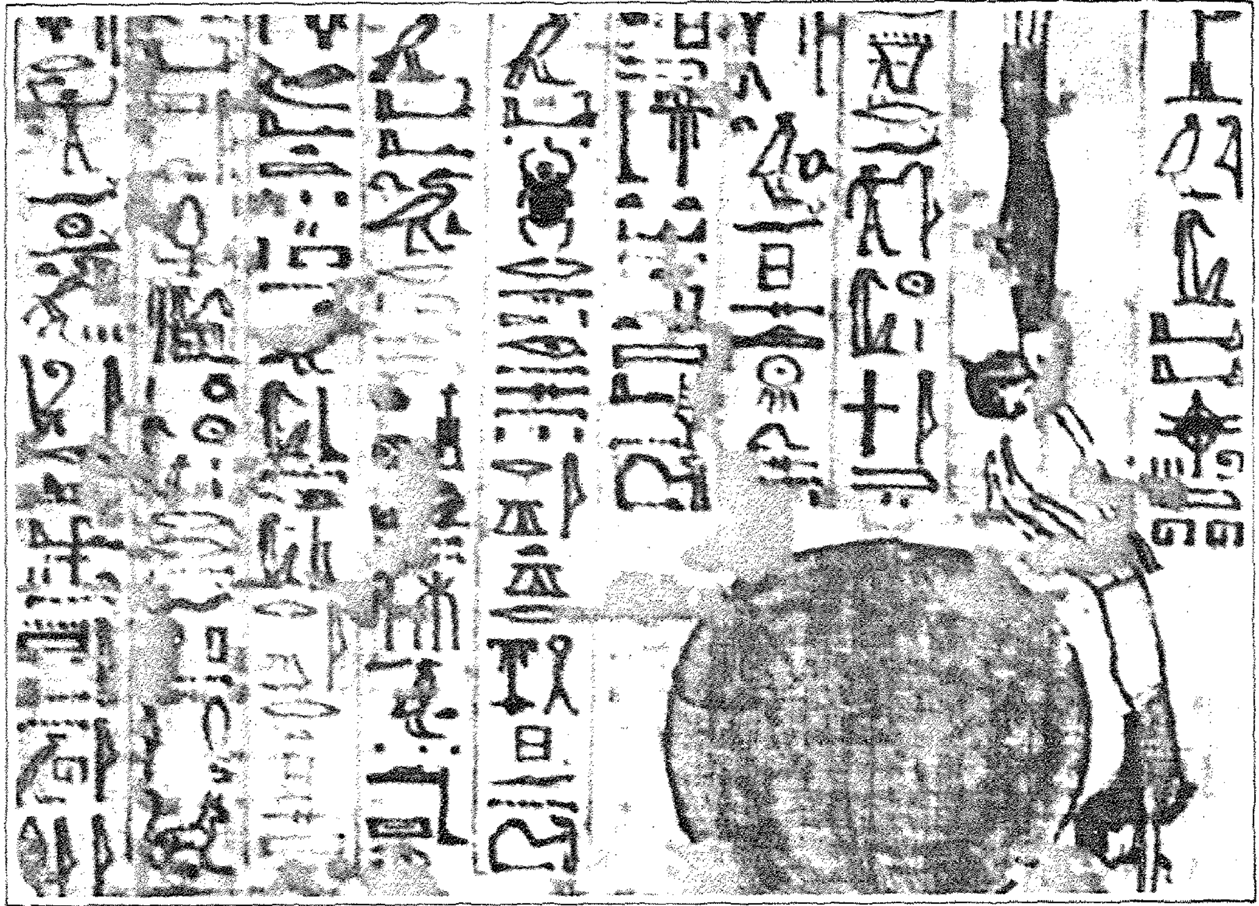
٢ المدرسة اليونانية

إن بلاد اليونانِ القديمةَ كانت مكونةً من عددٍ كبيرٍ من الدولِ المدينية، أي التي تتكونُ كلٌ منها من مدينةٍ وأرباضِها. كما أنهم يعرفون أنَّ هذه المدنَ كانت تختلفُ فيما بينَها في أمورٍ كثيرة. ونحن إذا أخذنا على سبيلِ المثالِ إسبارطةَ وأثينا وجدنا أن الأولى كانت ذاتِ نظامٍ عسكريٍ في كل شأن من شؤونها، بينما كانت أثينا النموذجَ الأفضلَ للديمقراطية. وكان من الطبيعي أن تختلف المدرسةُ في المدينتين.

على أنه حريٌّ بالذكرِ أنَّ الذي عاش في عقولِ الناسِ وقلوبهم عبرَ التاريخ وكان له أثر «في الحضاراتِ التاليةِ هو أثينا بديمقراطيتَها. ولذلك فإننا نود أن نتحدث هنا عن المدرسةِ اليونانيةِ كما عرفتْها أثينا في القرنِ الخامسِ قبلَ الميلاد، والقرنين اللذين عقباه.

كان الطفلُ اليونانيُ يذهبُ إلى المدرسة في سنِّ السادسةِ إذا كان أبواه ميسوري الحال، وقد يتأخَّرُ عن ذلك قليلاً إذا كان من أبناءِ الصُنّاع ومن إليهم. وفي هذا الدورِ من التعليم، وهو دورُ المدرسةِ الابتدائية، إذا جازتْ التسمية، كانت الموضوعاتُ التي تُعَلَّمُ هي الآدابُ والموسيقى والرياضةُ البدنية. وكانت مادةُ الآدابِ يدخلُ فيها القراءةُ والكتابةُ وشيءٌ من النحو. والموسيقى كانت تشملُ اللعبَ على القيثارة. وقد أُضيفَ في القرنِ الرابعِ قبلَ الميلادِ الرسمُ والتصويرُ إلى موادِ التعليم.

وحريٌّ بالذكر أن الموادَ المذكورةَ المختلفةَ كان يقومُ بتدريسِها معلمون أصحابُ اختصاص. بل أن المدارسَ نفسَها كانت، في كثير من



مقابر المصريين القدامى، لا تخلو من الرسوم كما لا تخلو من الكتابة، التي كانت أساسية بالنسبة لهم وهي تلزم للموتى كما تلزم للأحياء.

الأحيان، تختصُ بتدريس مادةٍ واحدة دون الأخرى. وكانت هذه المدارسُ خاصةً أي ملكاً لأفرادٍ أو هيئات.

كانَ الأولادُ منذُ الصغر قد سمعوا أشعارَ هوميروس وهزيود وحفظوا بعضَها. فإذا تعلموا القراءةَ وتعرفوا إلى الحروفِ كانوا يبدأون الكتابةَ. وكانوا يستعملون ألواحاً شَمْعِيَّةً بحيث يمكنُ إزالةُ الكتابةِ عنها بمجردِ تسويتِها.

كانت مرتبات المعلمين في المدارسِ الابتدائيةِ ضئيلة، ولم يتمتع هؤلاء المعلمون بمكانٍ مرموقٍ في المجتمع.

وكانت المدارسُ تفتحُ أبوابَها يومياً باستثناءِ أيامِ الأعيادِ العامة.

وقد اقتصرَ التعليمُ في كثيرٍ من المدنِ اليونانيةِ على الدورِ الابتدائي، لكنَّ أثينا تخطَّتْ ذلك منذ القرنِ الخامسِ قبلَ الميلاد، فكان فيها دراسةٌ ثانويةٌ وعليا إذا جاز التعبير. ولعلَّ من خصائصِ الدورِ الأولِ من قيامِ المدارسِ الثانوية هو أنَّ أكثرَها لم يُعمَّر طويلاً. ويعود ذلك إلى أن المدرسين كانوا يتنقلون كثيراً من مدينةٍ إلى أخرى. وكان الطلابُ يَؤُمُّونَ هذه المدارسَ حتى سن الثامنة عشرة أو ما إليها.

أما موادُ الدراسة في هذه المدارس، الدائمةِ والمؤقتةِ منها، فقد كانت تتوقفُ على ذوقِ المدرس وهوايتِهِ ورغباتِهِ. فأيٌّ من الموادِ المدرسيةِ المعروفةِ كان يصح أن يُدَرَّسَ في أي من هذه المدارس. ونحن إذا أخذنا الرياضيات على سبيلِ المثال وجدنا أن ما يَدْخُلُ تحت هذا العنوانِ فيه: الهندسةُ المسطحة والمجسمةُ ونظريةُ العددِ والحساب. وقد كان مدرسون آخرون يحاضرون في الفلك والفيزياء. لكنَّ كلَّ الدروسِ كانت نظريةً، إذ لم يكن هناك مختبراتٌ للفيزياء أو غيرِها. وقد كان هناك اهتمامٌ خاص بالأدب والموسيقى على مستوياتٍ أعلى من التي

أشرناَ إليها قبلاً. كما كان ثمةَ من يُوْلِي التاريخ والقانونَ بعضَ العناية في التدريس.

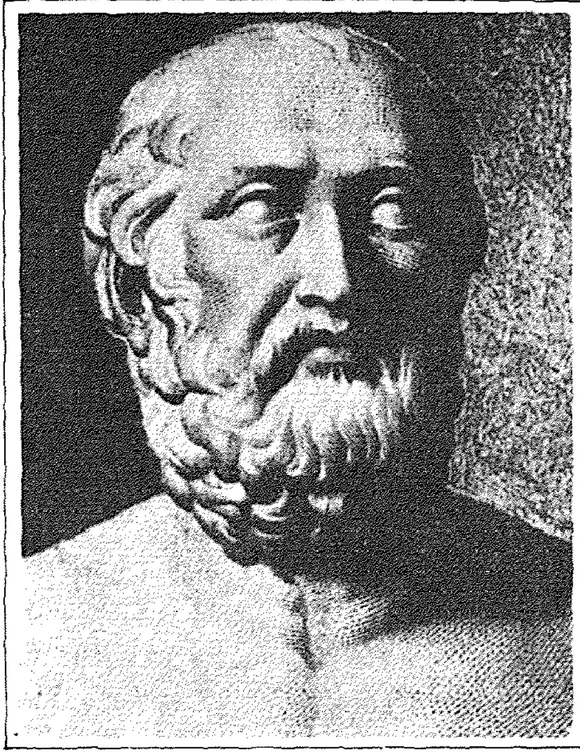
هـذه المـدارس، بسبب اعتمـادهـا على المدرسين المتنقلين، كانت دوماً في حالةِ مرونةٍ من حيث كيانُها وموضوعاتُها، ولذلك فقد كان لها أثرٌ في التطورِ الفكري ما كانت لتبلغَهُ المدرسة المستقرةُ نظاماً ومكاناً. يضاف إلى ذلك أن هذا التنقلَ المستمرَ الذي كان المدرسون يقومون به أدَّى إلى انتشارِ الثقافةِ في جهاتٍ نائيةٍ أحياناً.

والسـؤالُ الذي يواجِهُنـا هو ـ أين كـان موضعُ مدارسِ الفلسفةِ في النظامِ المدرسي اليوناني؟ والجوابُ هو أن المدارسَ التي كانت تعنى بالفلسفةِ كانت القضايا التي تطرح فيها تحتاجُ إلى جَنانٍ واعٍ وعقلٍ ثاقبٍ واهتمـامٍ مستمرٍ ووعيٍ تامٍ. لذلك فهي في واقعِ الأمرِ مـدارسُ لا تحدِّدُ السنُّ وضـعَ طلابِها بقـدرِ ما تحدِّدُ صفاتُ النضجِ والرغبةُ في التطلع وضعَ هؤلاء الطلاب. لذلك فبعضُ هذه المدارس كانت ثـانـويـة وبعضُهـا كـان يُحْسَبُ في عـداد المدارس العالية.

ولعلنا نحسن صنعاً إذا نحن لخصنا رأي وهيب سمعان في أهدافِ التعليمِ ومناهِجِهِ في المدارسِ العليا في أثينا:

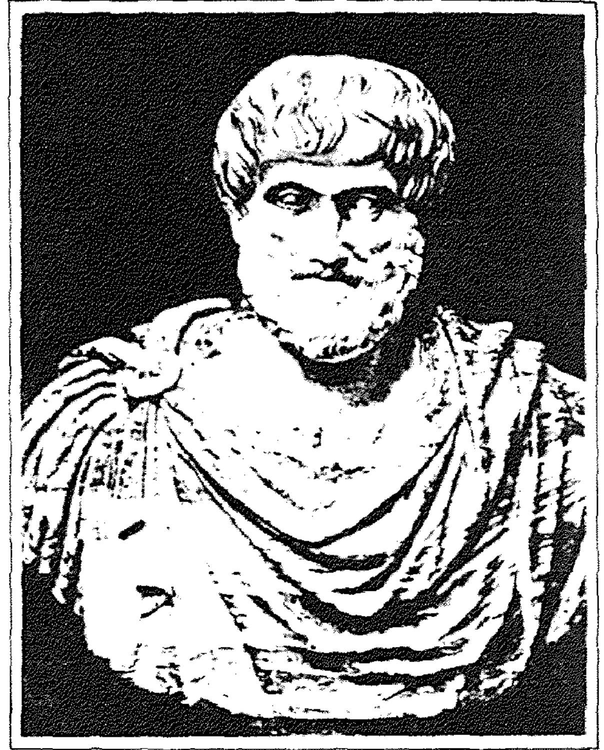
«وبإنشاءِ المدارسِ العليا في القرنِ الرابعِ قبلَ الميلاد بدأ تقليدٌ عظيمٌ أثَّرَ في المـدنيةِ الغربيةِ منذ ذلك الوقت. فقد اشتهرتْ مدرستا أفلاطون وأرسطو، الأكاديميةُ والليسيوم، شهرةً كبيرةً استمرت بعدَهما عدةَ قرون. وعن طريق هاتين المدرستين نُقِلَتْ أعمالُ هذين الفيلسوفين من جيلٍ إلى جيل، ونُقِشَتْ تعاليمُهُما على عقولِ العالمِ الغربـي. وكأنَّ التعاليمَ غيرَ المنظمـة للسفسـطائيين أفسحتْ الطريقَ للأكـاديميـة والليسيوم، فإن الاتجاه العمليَّ الذي كان يميز السفسطائيين أفسحَ الطريقَ للاتجاه الفلسفي لأفلاطون وأرسطو.

وقد كرست أكاديميةُ أفلاطون نفسَها لدراسةِ



▫ افـلاطون، كرست أكـاديميتـه لدراسـة الفلسفـة والمنطق وفيما وراء الطبيعة.. وغيرها من العلوم.

الفلسفـة والمنـطق، وفيمـا وراء الطبيـعـة، والأخـلاق، والسيـاسـة، والقـانـون، والأدب، والرياضة (الحسـاب، والهندسـة، والموسيقى، والفلك، والطبيعة). أما الليسيوم فكانت تعكسُ اهتمامَ أرسطو بالعلومِ، ولذلك تضمَّنَتْ مناهجُها العنايةَ بدراسةِ ما وراءِ الطبيعة والمنطق، وعلمِ الجمال، والأخلاقِ، والسياسةِ والبلاغةِ بجانبِ الاهتمـامِ الزائدِ بـالعلومِ الطبيعية: الطبيعـةِ والميكانيكا، والميترولوجيا، والنباتِ والحيوانِ، والتشريحِ والجغـرافيا، والجيـولوجيا، والطب. وكـانت كتابـات أرسطو الواسعـةُ على شكلِ مذكراتٍ يستخدمُها في محاضراتِهِ في الليسيوم. ومن الملاحظ أنـه حتى القرن الخـامس قبل الميـلاد لم تكن المجالاتُ العـديدةُ للمعـرفـة كما نعيها اليوم قد نُظِّمت وصُنِّفت. وإلى أرسطو يعود الفضلُ الأكبرُ في تنظيمِ وتصنيفِ هذه المجالات. وقد ساهمَ الإسكندر الأكبرُ في تمويلِ بحوثِ أرسطو بأموالٍ طائلة، كما كَلَّفَ رجالَهُ بجمعِ المادةِ العلميةِ لأرسطو من كـلِّ أجزاءِ امبراطوريتِهِ الواسعة.


□ الفيلسوف ارسطو.

وهناكَ نوعُ من المدارس اتسمَ بالطابعَ العمليِ أكثر من غيره من المدارس التي كانت شائعةً في القرنِ الرابعِ قبل الميلاد. وكان يطلقُ على هذه المدارسِ اسمَ مدارسِ البلاغة. ومن أكثر هذه المدارسِ شهرة المدرسةُ البلاغيةُ لايسوقراط. وقد استغلَّ ايسوقراط احترامَ الديموقراطية فقط. كما نادى بأنه إذا استخدمنا البلاغة كوسيلةٍ لتنميةِ الديمقراطية، فإن الخطيبَ لا بد وأن يكون شخصاً فاضلاً حقاً يهدف إلى الصالحِ العام وليس للمصلحة الشخصية كما كان السفسطائيون ينادون. وبهذه الطريقةِ وحدَها يمكنُ اعتبارُ التدريب على الخطابةِ تدريباً على المواطنةِ الصحيحة. وكان ايسوقراط يحاولُ في مدى سنتينِ أو ثلاث أو أربع سنوات إمداد تلاميذهِ بأسسِ الأسلوبِ الخطابي الجيد، كما كان يُقَدِّمُ لهم برنامجاً واسعاً من المعرفةِ يعتبرهُ أساساً لدراسة البلاغة.

٣ جامعة الاسكندرية اليونانية

يروي بلوتارك:

«بعد فتحهِ لمصر، عَمِلَ الاسكندرُ مشروعاً لبناء مدينة عظيمة يملؤها باليونان، ويعطيها اسمَه. قدَّرَ مساحتَها وعَمِلَ رسمَها حسبَ رأيِ مهندسيه. إذ جاءه في النوم حلمُ غريب، رأى فيه شيخاً أبيضَ الشعر، جليلَ الخلقة، يقتربُ منه ويُنْشدُه قائلاً:

في وسطِ البحارِ التي تسبحُ مصرُ فيها، قامت جزيرةُ فاروس الذائعةُ الصيت».

ويغلب على الظنِ أن مدينةَ الاسكندرية لم يبدأ بناؤها أثناءَ حياةِ الاسكندر لانشغالهِ بأمورٍ أخرى، وأن بطليموس الأولَ هو الذي شرعَ فعلاً في بناء المدينة. وقد اضطرَ بطليموس مدةً ما إلى اتخاذ منفيس مقراً لحكومته حتى إتمامِ بناءِ المدينةِ أو الجناحِ الملكي فيها على الأقل. وقد أوصى بإنشاء المَتحف (الموسايون)، أي مَعْبدِ رباتِ الفنونِ والعلومِ في هذا الجناح. والمقصود هنا بكلمة «متحف» هو معهد للعلمِ والدراسة، الحِقَ بِهِ معبدٌ لتلك الربّات، وذلك على مثال ما كان متبعاً في المدارس الفلسفية اليونانية.

وأنشأ بطليموس بجوارِ هذا «المتحف» بناءً آخرَ للمكتبة اتسع شيئاً فشيئاً حتى أصبح محتوياً لما لا يقل عن مائتي ألفِ مخطوط، ثم اضطر بطليموس بعدئذ إلى إنشاءِ مكتبةٍ أخرى بالمدينة هي مكتبة «السرابيون» التي جمعت من أنفسِ المخطوطات وأندرِها ما لا يقل عن خمسين ألفاً. وأقام بطليموس على «المتحف» رئيساً مسؤولاً أمامَه، هو كاهنٌ وظيفتُهُ الرسمية رعايةُ معبدِ الربات، ثم عيَّنَ على الدراساتِ العلميةِ بالمتحف مُشْرِفاً اختارَهُ من كبارِ رجالِ العلمِ في هذا الوقت؛ كما أقامَ على المكتبةِ مُشْرفين من أعظمِ رجالِ الأدبِ أو التاريخ.

يقول استرابون:

«المتحفُ جزءٌ من القصورِ الملكية وله ممرّ عمومي، ورواقٌ فيه مقاعد، ودارٌ متسعةٌ بها

مطعمٌ لعلماء المعهد. يعيش هؤلاء حياةً مشتركة، ويشرف على أمورِهم وأمورِ المتحف ذاتِه كاهنٌ يعيِّنُهُ الملك».

كان علماءُ «المتحف» يعيشون فيه إذن كرهبان دير من الأديرة، وكانت الحكومةُ تتكفلُ بنفقاتِ معيشتِهم ونفقاتِ المتحفِ كلِها. وكان الملك مهيمناً على شؤونه عن طريقِ راعيه، كما كان يتصل به اتصالاً مباشراً، يزوره من حين لآخر، ويشارك العلماء في مناقشاتهم.

وقد اشتهر «المتحفُ» منذ نشأته تقريباً بحلباته في المناقشةِ والجَدلِ إلى حد أن الكتابَ المعاصرين كانوا يتهكّمون على علمائه، وعلى تفاهةِ عملهم.

كان المتحفُ أولَ منشأةٍ علميةٍ حكوميةٍ في اليونان وخارجَها. ولذلك صحَ مقارنتُهُ بجامعاتِنا، لولا أنه لم يكنْ يَضُمُّ فصولاً دراسية ولا يمنح شهادات، بل ربما لم يُلقِ الأساتذةُ فيه محاضراتٍ بالمعنى المفهوم. كان قبل كل شيء مقرَّ علماءِ الاسكندرية وباحثِيهم وملتقى العلماءِ والباحثين من مختلفِ الأقطار. يتصل بهؤلاء وأولئك الطلبةُ من مصرَ ومن بلادٍ أخرى، يستمعون إليهم في حلقاتٍ خاصةٍ، ويتابعونهم في عملهم بالمَعْمَلِ أو بالمَشْرَحَةِ أو بالمكتبة.

يشبه المتحفُ إذن جامِعاتنا في أنه كان تابعاً للحكومة في ميزانيته، وفي الإشراف عليه، وفي أنه كان يُعِدُّ الطلبةَ لمستقبلهم العلمي والعملي. ولكنه يشابِهُ أيضاً مدارسَ أثينا الفلسفيةِ وحلباتِها في الدرسِ والمناقشة، وفي أنه كان مفتوحاً لمختلف العلماءِ والزوار. ولذلك وجبَ عدمُ فصلِه عن المكتبةِ الملحقةِ به وعن «السرابيون» وغيرهما من المكتبات.

بطليموس الأول كلَّفَ بالإشرافِ العلمي على «المتحف» ديمتريوس الفاليروني الذي كان مقيماً بأثينا وكان تلميذاً لثيوفراسطوس، خليفةِ أرسطو في رياسة مدرسته وكان ديمتريوس قبلَ مجيئِه إلى الاسكندرية من كبار الساسة بأثينا، اضطرَ إلى تركِها بسبب تهجمِ خصومه السياسيين عليه، والتجأ إلى الاسكندرية عند صديقه القديم بطليموس. فَعَهِدَ هذا إليه بالاشراف على المتحف. ثم عهدَ بطليموس بهذا العملِ ذاتِه إلى ستراتون اللمساقي، وهو تلميذٌ لأرسطو أيضاً. أشرف مدة على «المتحف»، ثم أصبح ــ بعد وفاة ثيوفراسطوس ــ رئيساً للمدرسة المشائية بأثينا.

ودلالة هذا التعيين المزدوج واضحة بشأن المتحف وروحه العلمية واتجاه الدراسات فيه عند نشأتِه وتأسيسه. فقد أخذت المدرسةُ «المشائية» بعد وفاةِ أرسطو اتجاهاً علمياً. فاهتمَّ ثيوفراسطوس ببحوثِ علمِ الحيوانِ والنباتِ، وخصَّصَ ستراتون بحوثَه في علمِ الطبيعةِ، عاملاً على توجيهِ هذا العلم توجيهاً «ميكانيكياً» مادياً، بخلافِ أرسطو نفسِه الذي غلبت على كتبه في «علم الطبيعة» الروحُ الميتافيزيقية.

وقد ارتبطَ العلمُ الرياضي بالمتحفِ منذ نشأته ارتباطاً وثيقاً. كان ذلك في البداية على يدِ أوقليدس صاحب كتابِ «الأصول»، الذي عاشَ وألَّفَ بمدينةِ الاسكندرية في عهد بطليموس الأول. وكان أوقليدس أرسطياً في منهجِهِ، أي في إعطاءِ الصورةِ القاسيةِ لبراهينه الهندسية. ولكنه أخذ الرياضةَ وتعلَّمَها من الأفلاطونيين، واستمدَ منهم بعضَ قضاياهم، كما استمْدَ البعضَ الآخرَ من الفيثاغوريين ويعتبرُ مؤرخو أوقليدس في العصرِ الحاضرِ أجزاءَ كتابِهِ كلَّها مقدمة لجزئه الثالث عشر، وهو الخاصُ بالأجسامِ الهندسيةِ التي عني أفلاطون بدراستها، وجاء ذكرها في «طيماوس».

ومما لا شك فيه أن كبارَ علماءِ الرياضةِ أثناء العصْرِ البطلمي والعصرِ الروماني، زاروا الاسكندريةِ واتصلوا بالمتحف، وتعلَّمَ بعضُهم هناك، وعَلَّمَ بعضُهم الآخر فيه، أو في معاهدَ دراسيةٍ متصلةٍ به. فأرخميدس صاحبُ القاعدة الطبيعية المعروفة باسمه واحدُ كبار علماء الميكانيكا، وممن اهتم بدراسةِ المنحنياتِ الهندسيةِ في تغيُّرِها المتصل، زار مدينةَ الاسكندرية، وأقام بها مدةً طويلة في النصف الثاني من القرن الثالثِ قبل الميلاد، وأخذ العلمَ

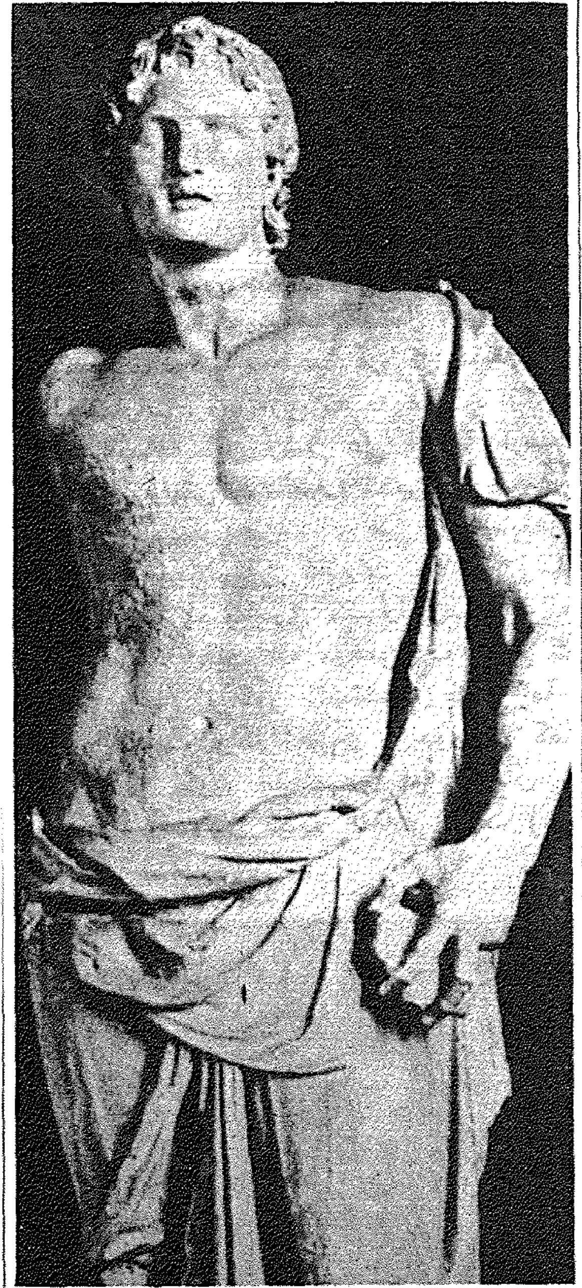
بطليموس سوتير، فقد كان من أعظمِ فلكيي وجغرافيي العصر.

أما التخصصُ الأصيلُ للمتحف ــ إن اعتبرنا هذا بصرفِ النظرِ عن المكتبة ــ فقد كان في بحوثِ علمِ الحيوانِ بوجهٍ عام، وهي البحوث التي اهتم بها أرسطو وتلميذه ثيوفراسطوس، وفي البحوثِ الطبيةِ بوجه خاص.

وأهم ما يجب ذكره عن الدراسات الإنسانية، التي انحصرت عند البداية في علم اللغة والأدب والتاريخ، أن القائمين بها في المكتبة، عملوا على صبغها بالصبغة العلمية الموضوعية، كما عمل نظراؤهم في «المتحف»، على اتباع المنهج العلمي الدقيق في دراساتهم. ولم يكن عملهم بالمتحف دون عمل نظرائهم هؤلاء، بل ربما فاقه أهمية وخطراً، هذا لو اعتبرنا أن دراسات «المتحف»، والدراسات العلمية بوجه عام، كانت قائمة في بلاد اليونان، منذ قرنين من الزمن أو ثلاثة على الأقل. أما التوجيه الموضوعي لعلوم اللغة، ولدراسات الأدب والتاريخ، أما تنظيم الكتب والمراجع الخاصة بهذه الدراسات في المكتبة، فإنه أمر جديد أو يكاد يكون جديداً، وذلك إذا راعينا نوع العمل الذي قام به رجال مكتبة الاسكندرية.

وكان أول منظم للمكتبة زينودوتس الأفسي، وكان ميدان تخصصه ملحمتي «الألياذة» و «الأوديسية» لهوميروس.

ويلي زينودوتس في المكتبة، كاليماخوس القوريناني المولود في ٣١٠ ق.م. والذي عمل ثبتاً لمحتويات المكتبة، يتكون من ١٢٠ لفافة. ولو لم تحترق هذه مع ما احترق من المكتبة، لعرفنا محتوياتها من المخطوطات معرفة واضحة. وقد كان هذا الثبت مرجعاً مرتباً حسب الموضوعات، ثم حسب أسماء المؤلفين ترتيباً أبجدياً، وكانت الإشارة فيه إلى كل مخطوط، تصحبها الملاحظات التاريخية والنقدية اللازمة. ويمكن ــ بسبب هذه الملاحظات القيمة، وبسبب ترتيبها حسب المخطوطات والمؤلفين ــ اعتبار الثبت المذكور نواة لتاريخ نقدي للأدب اليوناني.



□ الاسكندر.

عن علمائها، ومن أخصِّهم كونون الساموسي، ودويزيتيه البيلوسي. ولا شك أنه اتصل أيضاً باراطُسَتِنِيس العالمِ الفلكي والجغرافي، ومن مؤسسي علم التقويم. كذلك كانَ أمرُ أريستارخوس الساموسي، العالمِ الفلكي الكبيرِ وتلميذُ ستراتون، والذي درس كسوف الشمس، وتوفي في عام ٢٠٠ ق.م. والذي كان مهتماً بدراسة الأشكال المخروطية. أما أراطسثنيس الذي كان مشرفاً على مكتبة المتحف، أثناء حكم

التنظيمات العثمانية

محاولات فاشلة
للإفلات من براثن التغلغل الأوروبي

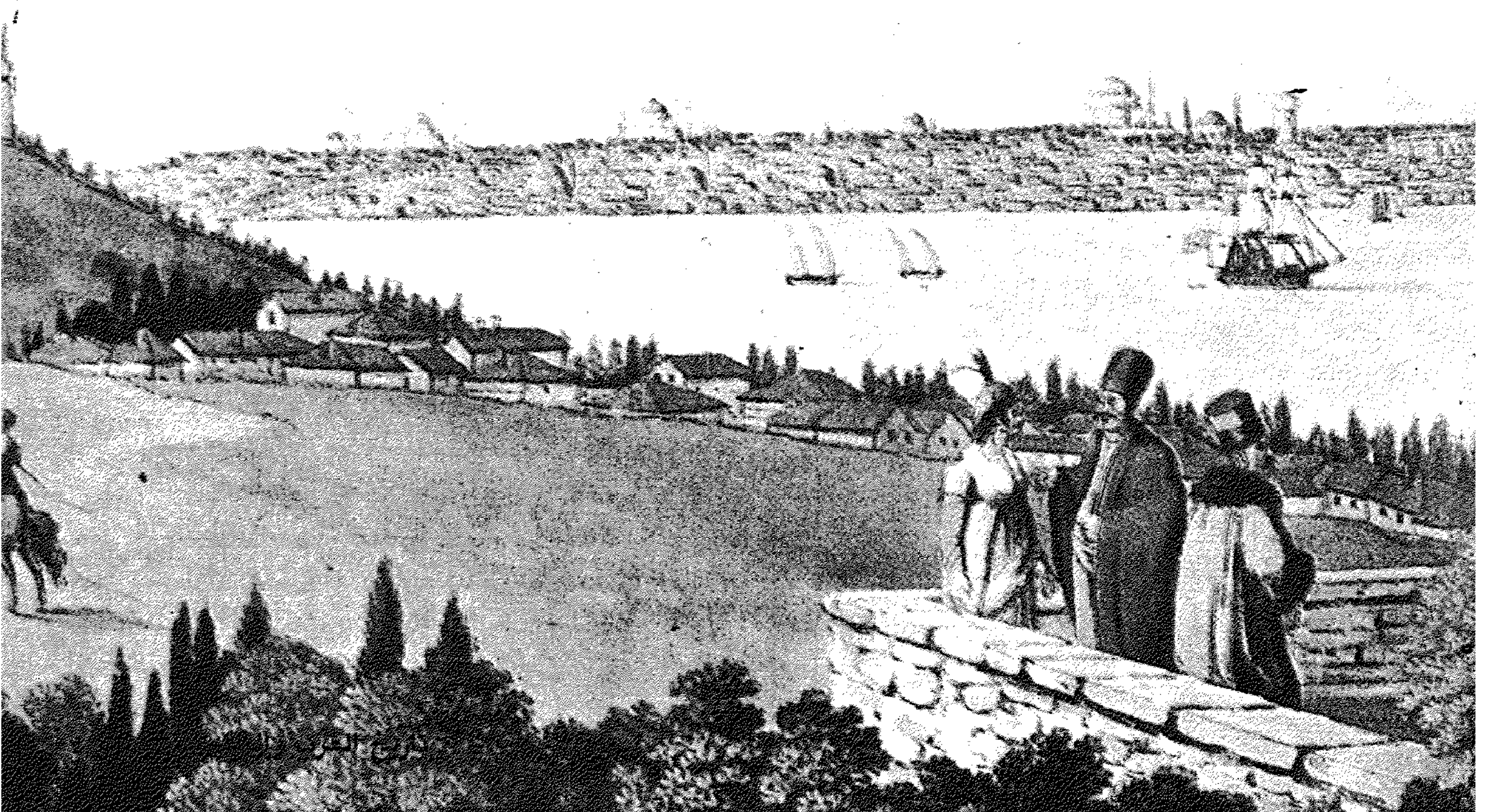
د. محمّد مخزوم



لقد صمدت النظم العثمانية بوجه التأثيرات الغربية حتى أواخر القرن الثامن عشر على أثر الهزائم العسكرية المتتالية التي منيت بها الدولة العثمانية في حروبها ضد أوروبا. ولم يكن الأوروبيون قبل هذا التاريخ بنظر المسلمين سوى جنس من البرابرة قام العثمانيون بردهم عن مراكز الحضارة الاسلامية بواسطة قواتهم العسكرية المرهوبة. ولم يبدأ الشعور بالنقص تجاه التفوق الأوروبي إلا بعد أن أصيبت الدولة العثمانية بسلسلة من الهزائم بدأت منذ حصار فيينا (١٦٨٣) حيث استطاع الروس بعدها أن يفرضوا معاهدة كارلوڤيتز (Carlowitz) سنة ١٦٩٩ وانتهت باحتلال شبه جزيرة القرم سنة ١٧٨٣. إلاّ أن أشد الهزائم التي مني بها العثمانيون هي التي استطاعت فيها الروسيا التقدم باتجاه القوقاز وضم مقاطعة جورجيا إليها (١٨٠٠)، ثم باحتلال الحملة الفرنسية بقيادة نابوليون بونابرت (١٧٩٨) لمصر حتى اعتبرها برنارد لويس أنها «أول قوة مسلحة عبّدت الطريق للغرب الحديث في الشرق الأوسط. وكانت أول صدمة للسماحة الاسلامية وأول شرارة كهربائية في طريق «التغريب» والاصلاح!! في الشرق الأوسط»[1].

□ د. محمد مخزوم: استاذ التاريخ الأوروبي في كلية الآداب والعلوم الانسانية ــ الجامعة اللبنانية.

□ القسطنطينية أيام الحملة الفرنسية.



هكذا جاءت محاولات كل من السلطان سليم الثاني وخليفته محمود الثاني حثيثة لأصلاح فرق الجيش. فأطاحت ثورة الانكشارية بالأول عام ١٨٠٧ بينما استطاع الثاني إخضاعهم والقضاء عليهم[٢]. ولكن أهم العوامل التي أقنعت الحكام العثمانيين بوجوب اتباع النظم الأوروبية، خاصة فيما يتعلق بالنظم العسكرية التي اثبتت فشلها المطلق أمام تقدم الجيوش الذي أصبحت تدين به لدول أوروبا التي نصّبت نفسها حامية لممتلكات السلطان العثماني. فقد أصبح على السلطان إذن الخضوع الكامل لمطالب الدول الأوروبية التي ساهمت في تثبيت سلطته من جديد. لهذا توجهت مطالب الدول الأوروبية المغلفة بالطابع «الاصلاحي» نحو اكتساب مزيد من الامتيازات التجارية والدينية توضحت في الخطوط «الهمايونية» ومشاريع الدساتير التي عززت مواقف الرعايا والمواطنين الليبراليين على السواء وساعدت على اتباع الحركة الاصلاحية التركية وأكدت على وجوب اتباع نظم الغرب في الاصلاح مدفوعة بمصالح دول أوروبا وخاصة انكلترا التي كان هدفها دعم الدولة العثمانية للوقوف امام أطماع الروس وتخليصها من وصاية هذه الدولة التي فرضت عليها معاهدة هنكيار اسكله سي[٣].

لم تقتصر هذه الاصلاحات على ضرورة اكتساب الرأي العام الأوروبي في تلك الفترة فحسب. بل أن هذه الفكرة كانت ترمي أيضاً إلى تجريد محمد علي باشا من ادعائه بأنه المصلح الوحيد للامبراطورية العثمانية[٤]. فعندما صدر خط كلخانه (١٨٣٩) كان ما يزال خطر الاحتلال المصري لبلاد الشام والتطلع نحو استانبول جاثماً أمام أعين السلطان العثماني. وقد ذيل الخط الهمايوني الذي قرىء في كلخانة بوجوب إبلاغ هذه الارادة إلى جميع سفراء الدول الأوروبية ليكونوا شهوداً على استمرار هذه التنظيمات «ينبغي أن تعلن إرادتنا هذه السلطانية مشاعة إلى أهالي دار السعادة وجميع ممالكنا المحروسة وأن يعلم بها رسمياً جميع السفراء المقيمين في دار سعادتنا لتكون الدول المتحابة أيضاً شهوداً على بقاء هذه الأصول إلى الأبد إن شاء الله تعالى»[٥].

أما الفرمان الصادر سنة ١٨٥٦ الذي يؤكد على بيان الاصلاحات المقتضى إدخالها فقد تضمن بصراحة اعترافاً بجميل دول أوروبا وأنها «تأيدت بعناية الله تعالى وبمساعي عموم تبعتنا الملوكية الجميلة وبهمة ومعاونة الدول

□ السلطان عبدالحميد في طريقه إلى المسجد.



المتحابة حقوق دولتنا العليا الخارجية»[٦].

ومع أن الفكرة الدستورية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر تقدمت شوطاً بعيداً في العالمين الاسلامي والعربي على حد سواء، إلا أن نشاط الحركة التنويرية واتساع مفهوم الدعوة «التغريبية» التي نمت مترابطة



مع نمو مفهوم الحقوق الانسانية كان لها تأثير بالغ على اصدار هذه الفرمانات الاصلاحية التي أدت إلى المزيد من إضعاف السلطة العثمانية وتيسير التغلغل الرأسمالي الأجنبي. إذ حصلت الشركات الأجنبية بعدها على امتيازات مصرفية واسعة جداً وعلى تأكيد حقها في استثمار المشاريع التي نفذتها كمد خطوط السكك الحديدية وغيرها مما أدى إلى تحويل الامبراطورية العثمانية إلى مستعمرة اوروبية[٧]. مما حدا بالمؤرخ بازيلي إلى القول: «لقد صدرت فرمانات أوضح السلطان عن طريقها لباشواته في عبارات بليغة، ونزولاً على رغبة السفارات، أن القانون يكفل أرواح الرعية وأعراضهم وممتلكاتهم، دون تفرقة في الدين، وقد ترك كل هذا أثراً عميقاً في نفوس الجماهير فمن ناحيته، أخذ ينمو (جنين) مفهوم الحقوق الانسانية، ومن ناحية أخرى، أخذ الضعف يصيب فكرة جبروت الباب العالي وعملائه والحاشية التركية عموماً»[٨].

لقد مرت الحركة الاصلاحية الدستورية في الدولة العثمانية من سنة ١٨٣٩ حتى سنة ١٩١٤ في ثلاثة أدوار اشتمل الدور الأول منها (١٨٣٩ ــ ١٨٧٦) على ثلاثة خطوط رئيسية بينما اشتمل الدور الثاني على خط واحد عرف بدستور ١٨٧٦ أو القانون الأساسي الذي وضع في بداية عهد السلطان عبدالحميد الثاني الذي ما لبث أن أوقف العمل به حتى سنة ١٩٠٨ عندما أقر من جديد تحت ضغط أعضاء جمعية «الاتحاد والترقي» حيث مر الدستور في عهدها في المرحلة الثالثة من تطوره.

الدور الأول: التنظيمات الاصلاحية

(أ) خط كلخانة[٩] سنة ١٨٣٩:

صدر هذا الخط في عهد السلطان عبدالمجيد (١٨٣٩ ــ ١٨٦١) بحضور الوزراء والعلماء والسفراء الأجانب. وقد تضمن عدة إصلاحات إدارية وقضائية ومالية وعسكرية كما تضمن التأكيد على المساواة الاجتماعية بين جميع الرعايا العثمانيين دون تمييز بينهم.

وأهم ما جاء فيه:

١ ــ أن سبب ضعف الدولة منذ مائة وخمسين عاماً يعود إلى عدم الامتثال للشرع الشريف والقوانين المنيفة التي كانت سبب تلك القوة التي عرفتها الدولة قبل ذلك. «لقد علم الجميع أنه لما كانت حصلت الرعاية التامة للأحكام الجليلة القرآنية والقوانين الشرعية منذ بداية ظهور دولتنا العلية وصلت قوة واستحكامات سلطتنا السنية وجميع تبعتها إلى أعلى مرتبة من الرفاه والمعمورية لكن بحسب ما وقع منذ مئة وخمسين سنة من عدم الانقياد إلى الشرع الشريف والامتثال إلى القانون المنيف بداعي الغوائل المتعاقبة والأسباب المتنوعة قد تبدلت تلك القوة الأولى والعمار بما هو عكس ذلك من الضعف والافتقار».

٢ ــ إلغاء الالتزام وتنظيم توزيعها على المكلفين لوضع حد لتعسف الملتزمين لأنه يعتبرها «من آلات الخراب ولم يجن منها ثمر نافع في وقت من الأوقات جارية حتى اليوم وكأنما هي عبارة عن تسليم مصالح إحدى البلاد السياسية وأمورها المالية لادارة أحد الناس». كما أكد الفرمان أيضاً على ضرورة وضع ضريبة مناسبة على الأرض «كيلا يؤخذ من أحد شيء زائد عن مقدرته».

٣ ــ تضمن الفرمان أيضاً وعداً بإصلاح الادارة والقضاء وإجراء القرعة العسكرية والشرعية. «وإذا لم تتحصل هذه القوانين النظامية لا يمكن تحصيل القوة والعمار والراحة».

٤ ــ الوعد بالمحافظة على النفوس والأعراض والناموس وتوفير الأمن لكافة الرعايا.

٥ ــ وجوب التقيد بالقوانين الصادرة عن السلطان وتأديب الذين يخالفون من العلماء والوزراء لأن هذه القوانين وضعت لاحياء الدين والدولة والملك والملة».

٦ ــ اعتبار الرشوة أعظم سبب لخراب الملك لأنه منفور فيها شرعاً وهي «السبب الأعظم في خراب الملك».

٧ ــ وجوب إبلاغ هذه الارادة ليس إلى أهالي البلاد والممالك فحسب، بل أن يعلم بها رسمياً «جميع السفراء المقيمين في دار سعادتنا لتكون الدول المتحابة أيضاً شهوداً على إبقاء هذه الأصول إلى الأبد».

إن السلطان العثماني ينبه ويعترف في هذا الفرمان إلى أن سبب ضعف الدولة يكمن في عدم الامتثال للشرع والقوانين المعمول بها في الدولة العثمانية. ومع ذلك فهو يؤكد على ضرورة وضع قوانين جديدة لتحسين إدارة الممالك وحفظ الأمن والروح والعرض والمال... «كذلك نرى من اللازم المهم لأجل حسن إدارة ممالكنا المحروسة وضع بعض قوانين جديدة تتعلق موادها الأساسية بأمنية النفوس والمحافظة على الأموال والعرض والناموس. لكن عندما تفقد الأمنية على المال لا يعود يلتفت لا إلى الدولة ولا إلى الملة ولا ينظر إلى إعمار الملك، بل يكون دائماً غير خال من بلبلة الفكر والاضطراب»[١٠].

إن إعلان ١٨٣٩ يعتبر بحق منشوراً تمهيدياً يتضمن وعداً بتنظيم شؤون الدولة وفقاً للنظم المرعية في الدول الأوروبية[١١] أكثر مما يعتبر دستوراً بالمعنى الحديث أو حتى مقدمة له لأن السلطان لم يقيد نفسه في تطبيق هذه المبادىء العامة الاصلاحية التي أطلقها بدوافع عديدة كما لم يحدد لها مؤسسات معينة لتنفيذها والعمل على وضعها موضع التنفيذ، لذلك بعد أن تخطى السلطان عبدالمجيد خطر التهديد المصري أغفل تنفيذ هذه المطالب طيلة ستة عشر عاماً[١٢]. حتى وقع من جديد في خطر غيابها عندما اشترطت عليه دول أوروبا المنتصرة في حرب القرم والمتحالفة معه الاعلان عنها مجدداً سنة ١٨٥٦ في الفرمان المعروف بالخط الهمايوني لسنة ١٨٥٦[١٣].

(ب) التنظيمات الخيرية سنة ١٨٥٦:

لقد أكد خط التنظيمات الخيرية الذي صدر سنة ١٨٥٦ على التعهدات التي منحها السلطان عبدالمجيد نفسه في خط كلخانة. وقد جاء صدور هذا الخط كهدية قدمها السلطان إلى حلفائه (الانكليز والفرنسيين) بالدرجة الأساسية كونهم وقفوا إلى جانبه في حرب القرم[١٤] ضد أطماع الروسيا في الدولة العثمانية وأظهروا غيرتهم الشديدة في المحافظة على أراضي الدولة العثمانية المعرضة للاقتطاع دون المساس بالمصالح

الامبـريـاليــة التي كـانت تنخـر مجتمعـات الامبراطورية العثمانية برمتها. حتى أن معاهدة باريس (١٨٥٦) وضعت الامبراطورية العثمانية تحت الضمانة الجماعية للدول الموقعة عليها[١٥].
وأهم ما اشتملت عليه هذه التنظيمات:

١ ــ حفظ المال والناموس لأي تابع من أي دين ومذهب كان تـأكيداً وتـأييداً للتنـظيمات الخيرية التي صـدرت في كلخانـة مع وجـوب إخراجها إلى الفعل.

٢ ــ إبقاء كافة الامتيازات التي منحت من قبل أجدادنا للطوائف المسيحية وكافة الملل الغير مسلمة. على أن تقترح كل طائفة الاصلاحات أو التغيرات التي تتفق مع «الوقت وآثار التمدن والمعارف المكتسبة في مجالس مخصوصة تتشكل في البطركخانات بإرادتي واستحساني الملوكي وتحت نظارة بابنا العالي.

٣ ــ تزال إلى الأبد من المحررات الرسمية الديوانية كافة التعبيرات والألفاظ التي تحط من قيمة غير المسلمـين بسبب المذهب أو اللسـان أو الجنسية.

٤ ــ عدم إجبار أحد على ترك ديانته ومذهبه وقبـول جميـع رعـايـا السلطان في الوظائف والمدارس الملكية والعسكرية دون فرق ولا تمييز «وبما أن جميع تبعة دولتي العلية من أية ملة كانوا سوف يقبلون في خدمة الدولة ومأمورياتها فيستخدمون في المأموريات امتثالاً إلى النظامات المرعية الاجراء في حق العموم بحسب أهليتهم وقابليتهم والذين هم من تبعة سلطنتي السنية يقبلون جميعاً عندما يفون الشرائط المقررة سواء كان من جهة السن أو الامتحانات في النظامات الموضوعة للمكاتب بدون فرق ولا تمييز في مكاتب دولتي العلية العسكرية والملكية».

٥ ــ إنشـاء محـاكم مختلطة للفصـل في القضـايا بـين المسلمين وغـير المسلمـين عـدا الدعاوي الخاصة بالأحـوال الشخصية فـإنها تحال إلى المحاكم الشرعية الاسلامية أو المحاكم الطائفية لغير المسلمين: «أما جميع الدعاوي التي تحدث فيما بين أهل الاسلام والمسيحيين وباقي التبعة الغير المسلمة أو بين التبعة المسيحية وبين بـاقي تابعي المـذاهب المختلفة الغـير المسلمة تجـارية كـانت أو جنائيـة فتحـال إلى دواوين مختلطة والمجالس التي تعقد من طرف هـذه الدواوين لأجل استماع الدعوى تكون علنية... أما الدعاوي الخاصة مثل الحقوق الارثية فيما بين شخصين من المسيحيين وباقي التبعة الغير المسلمة فتحال على أن ترى إذا أرادت أصحاب الدعوى بمعرفة البطرك أو الرؤوساء والمجالس».

٦ ــ المساواة في الحقوق والوظائف. وإجراء احكام المعافاة من الخدمـة العسكريـة بتقديم البـدل الشخصي أو النقـدي لجميـع الرعـايـا «وكما أن مساواة الويركو توجب مساواة باقي التكـاليف كذلك المسـاواة الحقـوقيـة تستلزم المساواة في الوظائف أيضاً. فينبغي أن يكون المسيحيون وباقي التبعة الغير مسلمة مجبورين أن ينقادوا إلى القرار المعطى أخيراً بحق إعطاء الحصة العسكرية مثل أهل الإسلام وتجري في هذا الخصوص أصـول المعافيـة من الخدمـة الفعلية إما بإعطاء البدل وإما بـإعطاء دراهم نقدية وتعمـل النظامـات اللازمة بحق صـورة استخدام التبعة عـدا عن الاسلام فيمـا بين صفوف العسكرية وتنشر وتعلن في أقرب وقت ممكن».

٧ ــ الوعـد بإعطـاء الأجانب حق التملك والتصرف في الأملاك داخل الدولة العثمانية.

٨ ــ التأكيد على منع التزام الضرائب.

٩ ــ وعد رؤوساء الطوائف بالاشتراك في مناقشات المجلس العـالي بما يتعلق بشـؤونهم «وتحصل المباشـرة بحسن تسويـة المعاشـات المخصـوصـة لكن من المـأمـوريـات وتجلب مخصوصات من طرف جلالة مقام وكالتي المطلقة رؤوساء كل جماعة والمأمور المعين لها من طرفي الأشراف الشاهافي بكي يوجدوا في المجلس العالي عند التذكر في المواد العائدة والراجعة لعموم تبعة سلطنتي السنية»[١٦].

تعود أهمية هذه التنظيمـات إلى أنها أول اعتراف رسمي بالمساواة المدنية والاجتماعيـة بشكل واسع بين جميع رعايا الدولة العثمانية. إلا أنها ساهمت في نفس الوقت في ازدياد التكتل الطائفي عندما منحت رجال الدين صلاحيات كثيرة مكنتهم من صيانة مفاهيمهم الطائفية[١٧]. فسهلت بذلك مهمة الاختراق الغربـي للمجتمع العثماني. وخاصة أن السلطان العثماني وجميع

ممثليه قد أهملوا تنفيذ الوعود التي جاءت في هذه التنظيمات الأمر الذي زاد من تطلعات مختلف الملل نحو دول أوروبا كل بحسب ميولها ومبشريها لتحقيق مزيد من المكاسب الاجتماعية والاقتصادية بواسطتها، ويعلق أحمد سرحال على نتائج هذه التنظيمات بقوله «وعلى الرغم من احتوائه لمبادىء المساواة بين جميع الرعايا العثمانيين على اختلاف أديانهم ومذاهبهم إلا أن خط ١٨٥٦ يمكن أن يعتبر نتيجة تقنية للحياة الطائفية وشكلاً من أشكال التجميد وإعاقة مسيرة الدمج بين المسلمين وغير المسلمين، على الأقل في إطار البلاد العربية، حيث ينتمي السكان سواء كانوا مسلمين أو مسيحيين إلى أصل واحد ولغة واحدة»[١٨].

(ج) التنظيمات التي صدرت بين ١٨٥٦ و ١٨٧٦

تابع السلطان عبدالمجيد إصدار الفرمانات الاصلاحية تحت وطأة الضغط الأوروبي تنفيذاً للوعود التي قطعها قبيل معاهدة الصلح في فرساي (١٨٥٦) فأصدر في سنة ١٨٥٨ قانون الأراضي الذي نظم بموجبه الأراضي الأميرية والمتروكة والموات وألغى تبعية الفلاحين للتمارجية.

وعندما تولى السلطنة عبدالعزيز (١٨٦١ ــ ١٨٧٦) أكد في خطابه الصادر إلى الصدر الأعظم على كل ما تضمنه كلخانة والتنظيمات من مراعاة لمبدأ المساواة والعدل في معاملة الرعية «ولما كانت رغبتي الشاهانية بحق استراحة ورفاه تبعتي غير قابلة الاستثناء يعاين جميع الموجودين من أديان وأقوام مختلفة من طرفي الهمايوني أيضاً الدقة المتساوية في أمر العدالة والهمة وتأمين حسن أحوالهم»[١٩].

أما الاصلاحات التي جرت في عهد السلطان عبدالعزيز فهي كثيرة منها القانون الصادر سنة ١٨٦٨ والقاضي بجواز انتقال الأراضي الميرية والموقوفة بورثة صاحب المنفعة ومنها أيضاً وضع مجلة الأحكام الشرعية ليعمل بها في المحاكم النظامية وذلك بإشراف لجنة من أشهر متشرعي ذلك العصر. إلا أن أهم منجزات السلطان عبدالعزيز كانت في خط الاصلاحات والتنظيمات الذي ظهر سنة ١٨٧٤ وأهم ما تضمنه[٢٠]:

١ ــ الفصل بين السلطتين التنفيذية والقضائية.

٢ ــ حق جميع الرعايا في انتخاب مميزين وأعضاء المحاكم النظامية ومميزين وأعضاء مجلس الادارة.

٣ ــ التأكيد على وجوب المحافظة على أموال جميع الرعايا وعلى ناموسهم وأعراضهم وسن القوانين المتعلقة بالضابطة.

٤ ــ التأكيد على المساواة بين جميع أصناف رعايا الدولة مع الابقاء على امتيازات الملل غير المسلمة.

الدور الثاني:

العهد الدستوري الأول (١٨٧٦ ــ ١٩٠٨)

شهد عهد السلطان عبدالحميد الذي وسم «بالعهد الاستبدادي» تطوراً مهماً على صعيد المفاهيم الدستورية. فقد أدى اتساع العلاقات مع الغرب من جهة والجدل الذي قام بين المنورين العرب حول مفهوم السلطة السياسية في هذه الحقبة من جهة ثانية إلى انتشار واسع للآراء الحرة ووجوب تنظيم الدولة على قاعدة القوانين الدستورية الموضوعة المتمثلة في الحكم الديموقراطي وإنشاء المجالس النيابية التمثيلية على غرار النظم الأوروبية.

لقد جاء تعيين السلطان عبدالحميد، آخر المؤمنين بالحكم الدستوري، لمدحت باشا صدراً أعظم تأكيد على ضغط النخبة وإصرارها على تقييد سلطة السلطان والحد من استبداده. فجاء القانون السياسي الذي وضعه مدحت باشا مقتبساً عن الدساتير الأوروبية بشكل يتلائم مع أحكام الشريعة الاسلامية وكأنه إيعاز من السلطان نفسه الذي رأى فيه استمرار لخط التنظيمات الذي بدأه والده عبدالمجيد. وقد تضمن هذا القانون الذي اشتمل على مائة وتسعة عشر مادة نصوصاً تناولت أسس الحكم في الدولة العثمانية: وأهم ما جاء فيه[٢١]:

١ ــ اعتبار مركز السلطنة بمنزلة الخلافة الاسلامية وأن السلطان حامي الدين، حقوقه



□ السلطان عبد المجيد في شبابه.

مقدسة، يتمتع بحق عزل الوكلاء وتنصيبهم وعقد المعاهدات وإعلان الحرب وإجراء الحركات العسكرية والأحكام الشرعية والقانونية وحق عقد المجلس العمومي وفضه وفسخ هيئة المبعوثين (المواد ٣ و ٥ و ٦ و ٧).

٢ ــ يتمتع جميع الرعايا بالحرية الشخصية التي يصونها القانون ولا يجوز إجراء مجازاة أحد بأي وسيلة كانت إلّا بالأسباب والأوجه التي يعينها القانون (المادتان ٩ و ١٠).

٣ ــ حرية الرأي المتمثلة بحرية المطبوعات ضمن دائرة القانون. واعتبار جميع العثمانيين متساوون أمام القانون وحقوق وظائف الدولة (المادة ١٧).

٤ ــ صون المال والمسكن (المادة ٢١).

٥ ــ تشكيل مجلس عمومي من هيئتين إحداهما هيئة الأعيان والأخرى هيئة المبعوثين وتجتمع الهيئات في أول تشرين الثاني من كل سنة ويتم افتتاح المجلس العمومي بموجب إرادة سنية بحضرة السلطان نفسه أو الصدر الأعظم كنائب عنه. كما نص القانون أيضاً على تمتع أعضاء المجلس العمومي بحرية إبداء الرأي ضمن النظام الداخلي للمجلس على أن لا يقيد أحد بوعد أو تهديد بسبب آرائه أو بيان أفكاره.

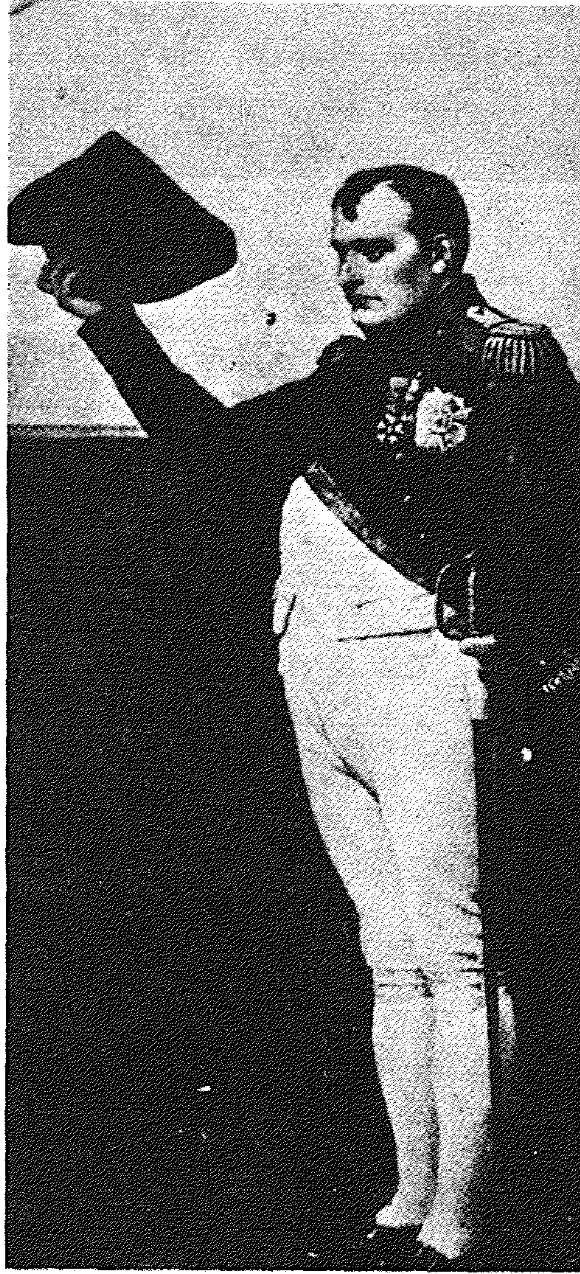
٦ ــ أعطى القانون أيضاً الحق لكل من هيئتي الأعيان والمبعوثين أن تطلب تجديد قانون أو تغيير بعض القوانين مع أن سن القوانين وتغييرها متعلق بمجلس الوكلاء (الوزراء) ولهذا اشترط استئذان السلطان على أن يجري ترتيبها

في مجلس شورى الدولة ثم تعرض على هيئة المبعوثين أولاً، ثم هيئة الأعيان ثانياً حتى إذا وافقت الهيئتان عليها في اجتماع مشترك صدرت الارادة السنية بإجرائها (المادتان ٥٣ و ٥٤).

٧ ــ يتم تشكيل هيئة الأعيان وتعيين رئيسها من قبل السلطان نفسه على أن يكون العضو أهلاً للثقة وله خدمات حسنة مشهودة في الدولة من الوكلاء والولاة والمشيرين وقضاة العسكرية والسفراء والبطاركة ورؤوساء الحاخامية. وتكون عضوية الواحد منهم مدى الحياة سوى الذين يعينون لاحدى مأموريات الدولة بطلبه. أما عدد أعضاء هيئة الأعيان فلا يتجاوز ثلث هيئة المبعوثين. وقد حدد القانون مهمة هيئة الأعيان بالتدقيق في القوانين ولوائح الموازنة الصادرة من هيئة المبعوثين ولها حق رفضها أو ردها إلى هيئة المبعوثين لاصلاحها وتعديلها.

٨ ــ إن عدد أعضاء هيئة المبعوثين يكون باعتبار شخص واحد من كل خمسين ألف نفس من ذكور التبعة العثمانية. ولا يمكن الجمع بين عضوية هيئة المبعوثين ووظيفة أخرى في الحكومة عدا الوزراء المنتخبين. وقد استبعد القانون انتخاب من كان حائزاً على امتياز خدمة أجنبية أو من لم يكن عارفاً باللغة التركية أو من كان سنه دون الثلاثين أو من حكم عليه بالافلاس ولم يعد اعتباره أو من حكم عليه الحجر ولم يفك عنه أو من ادعى أنه من التبعية الأجنبية. أما مدة انتخاب المبعوثين فتجري مرة كل أربع سنوات على أن يعتبر الفائز نائباً عن جميع العثمانيين وليس من الدائرة التي انتخبته فقط. كما يجوز تجديد انتخابه مرة ثانية (من المادة ٦٥ إلى المادة ٧١).

جرت انتخابات مجلس المبعوثين على أساس التعليمات الانتخابية الموضوعة من قبل أعضاء مجالس الادارة في الولايات والألوية والأقضية[٢٢]. وفعلاً جرى افتتاح المجلس العمومي بحضور السلطان نفسه، حيث تليت خطبة على لسانه شرح فيها الأسباب التي أدت إلى انحطاط الدولة وتأخرها معترفاً في نفس الوقت بأن تأخر الدولة يعود إلى عدم المثابرة على وضع القوانين والأنظمة التي ترتكز على قاعدة



□ نابوليون بونابرت: اعتبر البعض حملته إلى مصر عام ١٧٩٨، أول شرارة كهربائية في طريق التعريب والإصلاح.

المشورة كما فعلت الدول المتمدنة «ان تأخرنا عن الترقيات الحاضرة في عالم المدنية كان لاهمالنا المداومة على الاصطلاحات المحتاج ملكنا إليها ولعدم المثابرة على القوانين والنظامات المتعلقة بها ومنشأ ذلك ليس هو إلا صدور هذه الأشياء من يد الحكومة بدون استناد على قاعدة المشورة والحال أن ترقي الدول المتمدنة ونجاحها وأمنية الممالك وعمرانها إنما هو ثمرة تأسيس مصالحها وقوانينها العمومية بالاتفاق وإجماع الآراء كما

هو مسلم فبناء عليه رأيت أن تحري أسباب الترقي في هذه الطريق واستناد قوانين المملكة على الآراء العمومية هو ألزم ما لدينا فلذا قد أعلنت القانون الأساسي أمامقصدنا من تأسيسه فليس هو عبارة عن دعوة الأهالي للحضور في رؤية المصالح العمومية وإنما بالأحرى لاعتقادنا القطعي بأن هذه الأصول هي وسيلة مستقلة لاصلاح إدارة ممالكنا ومحو سوء الاستعمالات واستئصال قاعدة الاستبداد»[٢٣].

الدور الثالث:

العهد الدستوري الثاني (١٩٠٨ ـــ ١٩١٤)

انقلاب في السلطة:

منذ أن أوقف السلطان عبدالحميد العمل بالدستور، أخذت تنمو داخل المجتمع العثماني نزعات التحرر في صفوف الأتراك والعرب على حد سواء. فأحاط السلطان عندها نفسه بجيش من الجواسيس والموظفين وأخذ ينكل بالأحرار أينما كانوا حتى استطاع أن يمسك بدفة الحكم طيلة المدة التي تراوحت بين ١٨٧٨ و ١٩٠٨. وفي هذا الجو نمت الجمعيات السرية لمكافحة الاستبداد الحميدي داخل الامبراطورية وخارجها. ومن أهمها «جمعية الاتحاد والترقي» التي تمكنت أن تضع السلطان نفسه تحت رقابة شديدة، وإن تعلن المشروطية الثانية في سنة ١٩٠٨ على أساس القانون الأساسي الذي وضع سنة ١٨٧٦.

وهكذا جرت الانتخابات الثانية لمجلس المبعوثان في الامبراطورية العثمانية فتمكن أعضاء جمعية الاتحاد والترقي باسم الدستور والحرية أن يفوزوا بأكثرية ساحقة في هذا المجلس[٢٤]. كما تمكنوا من تعديل بعض مواد القانون الأساسي[٢٥]. بحيث نزعوا من السلطان حق تعيين وإقالة جميع الوزراء. إذ نص التعديل على حق تعيين الصدر الأعظم وشيخ الاسلام. أما الوزراء فيختارهم الصدر الأعظم ويصدق السلطان على تسميتهم كما أصبح للمجلسين (الأعيان والمبعوثان) حق الاجتماع بدون دعوة من السلطان. وحق مجلس المبعوثان في انتخاب الرئيس ونائبه مكتفياً فقط بإعلام السلطان عن أسماء المنتخبين. كما اقتضى التعديل أيضاً حرمان السلطان من حق حل مجلس المبعوثان في حالة خلافه مع مجلس النظار بعد أن كان هذا الحق مطلقاً دون قيد أو شرط. أما الآن فلم يعد باستطاعة السلطان أن يحل المجلس إلا في حالة واحدة محدودة بدقة، أي حينما يختلف مجلس المبعوثان ويرفض الخضوع لقرار هذا الأخير، ويستقيل ثم يتبنى مجلس النظار الجديد وجهة نظر سلفة عندئذٍ فقط يستطيع السلطان حل المجلس. ولكن بعد موافقة مجلس الأعيان مع تحديد مدة ثلاثة أشهر لاجراء انتخابات جديدة. وقد اعتبر رجال تركيا الفتاة هذه المادة حجر الزاوية في البناء البرلماني العثماني[٢٦].

حاول السلطان عبدالحميد الافلات مرة ثانية من الدستور الذي فرضته جمعية الاتحاد والترقي، فأوعز إلى حامية الأستانة بالثورة فهجم هؤلاء على البرلمان وقتلوا وزير العدل وأحد النواب العرب (محمد إرسلان نائب اللاذقية) رافعين شعار إحياء الشريعة حتى ينضم إليهم أهالي المدينة. فقام عندها محمود شوكت (أحد أعضاء جمعية الاتحاد والترقي) على رأس فرقة من الجيش ودخل الأستانة وقضى على حامية السلطان وقبض على أنصاره فاجتمع عندها أعضاء المجلس العمومي وخلعوا عبدالحميد بموجب فتوى من شيخ الاسلام محمد ضياء الدين. «إذا اعتاد زيد الذي هو امام المسلمين أن يرفع من الكتب الشرعية بعض المسائل المهمة الشرعية وأن يمنع بعض هذه الكتب ويمزق بعضها ويحرق بعضها وأن يبذر ويسرف في بيت المال ويتصرف فيه بغير مسوغ شرعي وأن يقتل الرعية ويحبسهم وينفيهم ويغربهم بغير سبب شرعي وسائر أنواع المظالم ثم ادعى أنه تاب وعاهد الله وحلف أنه يصلح حاله، ثم حنث وأحدث فتنة عظيمة جعلت أمور المسلمين كلها مختلة وأصر على المقاتلة وتمكن منعة المسلمين من إزالة تغلب زيد المذكور ووردت أخبار متوالية من جوانب بلاد المسلمين أنهم يعتبرونه مخلوعاً وأصبح بقاؤه محقق الضرر وزواله محتمل الصلاح. فهل يجب أخذ الأمرين خلعه أو تكليفه بالتنازل عن الامامة والسلطنة على حسب ما يختاره أهل الحل والعقد وأولي الأمر

من هذين الوجهين»؟ «الجواب: يجب»(٢٧).

إن الشعار الذي رفعه أنصار عبدالحميد من رجال الدين والدراويش وبعض الجنود القاضي بوجوب إلغاء المشروطية المخالفة للشريعة إنما يدل على أن هذه الفئات المستفيدة من نظام عبدالحميد قد رفعت هذا الشعار ليس لكون الأنظمة القائمة على «الدساتير الحديثة» مخالفة بحد ذاتها للشريعةفحسب، بل لأن هذا الشعار يمتلك من المواجهة ما لا يمكن أن يمتلكه عبدالحميد نفسه من القوة. وإلا لماذا لم تتحرك هذه الفئات عندما كان عبدالحميد يخالف نصوص الشريعة في أحكامه وجوره واستبداده؟ بل لماذا لم تتداع قبل إعلان الدستور لتقويم اعوجاج سلطته. ومهما قيل في ذلك فإن نص الفتوى ذاتها القائم على قاعدة الشريعة ليس مخالفاً لروح الدستور الذي فرضه الاتحاديون على عبدالحميد.

إلا أنه كان من الطبيعي أن يتمسك الأتراك بتطبيق شريعة الاسلام بالشكل الذي يلائمهم كونها الشرعية الوحيدة للقضاء على الانفصاليين. وهذا ما يفسر برأينا أيضاً رفض السلطة الحاكمة الأخذ بالمفهوم الغربي للديموقراطية أو اللامركزية التي كانت تدعم الحركات الانفصالية التي تكاتف على الدعوة لها جميع شعوب الامبراطورية التي كانت تشعر بالغبن، مع الأخذ بعين الاعتبار مساندة دول أوروبا لهذه الدعوات التي اعتبرها السلطان عبدالحميد نفسه بأنها «تشكل خطراً كبيراً علينا وكارثة اليمة»(٢٨) ويقول مبرراً استبداديته «لم تتطور بلادنا التطور الكافي لتقبل الحكم الدستوري، فإن هذا الطراز من الحكم خطر كبير علينا. إذ بمقتضاه يكون جميع الرعايا متساوين في الحقوق والواجبات. وهذا أمر يستحيل تطبيقه في بلادنا. فالامبراطورية العثمانية تشكلت من الأتراك والعرب والروم والأرمن والبلغار والأولاخ (الافلاق) والأرناؤوط (الألبان) واليهود. لا دين ولا لسان يجمعنا»(٢٩). وهكذا فإن كلّ تبرير لعدم تشكيل حكومة دستورية سواء كانت على النمط الأوروبي أو شوروية على النمط الاسلامي مسؤولة أمام جمهور المسلمين، أو جميع الرعايا فهو ساقط أساساً. لأن السلطة المشيئية نفسها



□ الصدر الاعظم مدحت باشا.

تتطلب مثل هذه الحكومة. فالوقت الذي كان السلطان يعتبر نفسه فيه مطلق الصلاحيات غير مسؤول مباشرة أمام أحد قد جنت فيه حكومته ما وصلت إليه «الدولة» من ضعف وانحطاط أمام القوة الأوروبية التي سمحت لها ظروف تكوّن «الدولة» نفسها بهذا الاختراق.

إن كل إشارة نحو اعتبار الغرب مسؤولا غن تفسخ الدولة العثمانية يعتبر تبريراً لتصرفات السلطة العثمانية محلية كانت أم مركزية. وإلا فما هو مبرر وجود السلطة التي يجب أن تكون متقدمة على المجتمع نفسه الذي انبعثت منه. هذا هو السلطان عبدالحميد يعتبر أن تشكيل حكومة نيابية يعني حدوث الفوضى وانقسام الناس شيعاً وأحزاباً ليس لأن تشكيلها قد اقترحه المتعاطفون مع الانكليز كما يدعي بل كونها تتعارض مع «حرفته» المقدسة «إن الأتراك الشباب قوم خياليون، فاعلان الدستور وتشكيل حكومة نيابية في بلادنا يعني حدوث الفوضى وانقسام الناس شيعاً وأحزاباً يقاتل بعضها بعضاً، ويؤدي بالدولة العثمانية إلى الخراب. وتعاطف الانكليز مع الأتراك الشباب أمر يلفت انتباهنا. فهم يشجعون هؤلاء المفترين على المطالبة بإعلان الدستور ويرفضونه لأنفسهم في الهند المستعمرة. مع أن أوضاع الهند تشبه أوضاع بلادنا، حيث يعيش فيها عناصر غير

متجانسة من المسلمين والنصارى واليوذيين والبراهمة. ومن الصعب جمعهم في مجلس واحد[٣٠]. لهذا اعتبر بعضهم أن دستور ١٨٧٦ لم يكن أقل من ثورة ضخمة عظيمة الخطر كونه جاء بعد حكم أكثر من خمسمائة سنة كان حكم الشريعة خلالها مطلقاً، وإرادة السلطان فوق كل إرادة وفتوى شيخ الاسلام لا محيص عنها[٣١].

إن الفترة التي تولى الحكم فيها انصار جمعية الاتحاد والترقي بعد خلع السلطان عبدالحميد لم تكن تختلف عن سابقتها رغم أن «الجمعية وصلت إلى الحكم برفعها لشعار وجوب إرساء قواعد الحياة النيابية والدستورية. إذ ما لبث الاتحاديون أن شددوا قبضتهم على البلاد بحجة أن الثورات الداخلية تدفع دول أوروبا نحو مزيد من المطالب والمواجهة. فالهزائم التي منيت بها الامبراطورية العثمانية حيث قضي تماماً على نفوذها في البلقان دفعت الاتحاديين إلى التمسك بما تبقى من الولايات العربية التي ما لبثت أن اشتعلت بها الثورات الداخلية كثورات اليمن والجزيرة العربية في نجد وعسير وبعض المناطق في سورية والعراق.

في هذا الجو المصيري الذي كانت تعانيه الامبراطورية العثمانية تمثلت فيها المعارضة الداخلية العلنية منها والسرية باسم «اللامركزية» والأخذ بنظام الحكم الدستوري، إذ جاء في بيان حزب اللامركزية الادارية العثماني الذي تأسس في كانون الأول عام ١٩١٢ «إن أفضل أشكال الحكومات هو الدستورية وأفضل أشكال الحكم الدستوري هو اللامركزي، خصوصاً في الممالك التي تعددت فيها الفروق والمذاهب واللغات»[٣٢] ففي مادتيه الأولى والثانية نص على «أن الدولة العثمانية دولة دستورية نيابية وكل ولاية من ولاياتها تعد جزءاً من السلطة لا ينفك عنها بحال من الأحوال، وإنما تبنى إدارة هذه الولايات على أساس اللامركزية الادارية»[٣٣]. كما أعطت بقية المواد حقاً واسعاً للمجلس العمومي المشكل على قاعدة الانتخاب في كل ولاية: كحق المراقبة على الحكومة والميزانية والنظر في جميع شؤون الادارة المحلية. أما اللائحة الاصلاحية التي وضعتها الجمعية العمومية الاصلاحية (١٩١٣) فقد أعطت المجالس العمومية التي يجري انتخاب أعضائها على قاعدة التمثيل النسبي العددي في دوائر الانتخابات أكثر مما أعطاها حزب اللامركزية الادارية العثماني. وهكذا توسعت قبيل الحرب العالمية الأولى الدعوة إلى وجوب قيام نظام الحكم في الامبراطورية العثمانية على أساس دستوري حتى شكلت هذه الدعوة عند مختلف شعوب الامبراطورية ومن بينها العرب بالتأكيد، وإن كانت العوامل الأخرى قد طغت عليها، عاملاً مهماً من عوامل المواجهة ضد السلطة القائمة الذي لم يكن ادعاؤها بعدم جدوى القفز عن تطبيق أصول الشريعة والحكم سوى وسيلة لابقاء سيطرتها التي كانت تمدها ببعض التأييد الأدبي لمواجهة التدخل الغربي[٣٤]. ●

هوامش البحث

(١) برنارد لويس: الغرب والشرق الأوسط. تعريب نبيل صبحي (لاغوس ١٩٦٥) ص ٤٤.

(٢) قضى السلطان محمود الثاني على أنظمة الانكشارية وفرقها. واستبدلها بأنظمة وقوانين أوروبية على أساس تشكيلات عسكرية جديدة سماها «العساكر المحمدية».

(٣) توفيق برو: العرب والترك (معهد الدراسات العربية العالية ١٩٦٠) ص ٦. أما معاهدة هنكيار اسكله سي فقد وقعت بين تركيا والروسيا بعد صلح كوتاهية سنة ١٨٣٣. وقد التزمت الروسيا بموجبها تقديم العون للدولة العثمانية ضد اعتداء خارجي على أساس إغلاق المضائق في وجه الأساطيل المعادية للروسيا. راجع جوزيف حجار: أوروبا ومصير الشرق العربي (ترجمة بطرس الحلاق وماجد نعمه، بيروت المؤسسة العربية للدراسات والنشر حزيران ١٩٧٦) ص ٨٧.

(٤) جوزيف حجار: أوروبا ومصير الشرق العربي ص ١٨٠.

(٥) الدستور: (ترجمة نوفل. المطبعة الأدبية في بيروت ١٣٠١هـ) المجلد الأول ص ٤.

(٦) محمد فريد: تاريخ الدولة العلية العثمانية (دار الجبل بيروت ١٩٧٧) ص ٢٥٦. أما الخالدي فيذكر في أسباب الانقلاب العثماني ص ٣٧ «إن الدولة إنما أصدرت هذه التنظيمات إرضاء لأوروبا ولا سيما إنكلترا. والأمة الاسلامية لم تفهم معنى هذه التنظيمات ولا معنى تأمين الناس على الأرواح والأحوال والأعراض كأنه الشريعة التي كانت دستور العمل

تبيح التجاوز والتعدي على الأرواح والأحوال والأعراض وحاشاها من ذلك. فالبلاء لم يكن سببه فقدان القانون والشريعة حتى يزول بإصدار التنظيمات وإنما سببه الاستبداد المتسلط على كل قانون وشريعة».

(٧) لوتسكي: تاريخ الأقطار العربية ص ١٦١.

(٨) انظر ليفين: الفكر الاجتماعي والسياسي الحديث (ترجمة بشير السباعي دار ابن خلدون بيروت ١٩٧٨) ص ٥١.

(٩) كلخانة: محل الورود. اسم الحديقة التي تلي فيها هذا الفرمان في ٣ تشرين الثاني سنة ١٨٣٩.

(١٠) الدستور المجلد الأول الصفحات ٢ و ٣ و ٤.

(١١) انظر ساطع الحصري: البلاد العربية والدولة العثمانية (دار العلم للملايين بيروت ١٩٧٠) ص ٨٨.

(١٢) لم يتحقق من هذه الوعود سوى قانون التجارة الذي صدر سنة ١٨٥٠ وقد جاء هذا القانون ممسوخاً عن القانون الفرنسي القديم. وقد صدر له ذيل سنة ١٨٦٠ يبحث في المحاكم التجارية واختصاصها. كما صدر قانون الجزاء سنة ١٨٥١ مقتبساً عن أحكام الشريعة والعرف المحلي.

راجع صبحي المحمصاني: الأوضاع التشريعية في الدول العربية ماضيها وحاضرها. (دار العلم للملايين بيروت ١٩٦٢) ص ١٧٥.

(١٣) تذكر لنا المخطوطات التي جمعها أسد رستم «الأصول العربية لتاريخ سورية في عهد محمد علي باشا أن السلطان بعث إلى محمد علي باشا بمضمون التنظيمات لاشاعتها والعمل بها في الجهات التابعة له. وطلب منه أن يقرأ الفرمان في ميدان عام في مصر.

المجلدان ٣ و ٤ وما بعدها.

(١٤) وقعت الحرب بين روسيا من جهة والدولة العثمانية وانكلترا وفرنسا وسردينيا من جهة ثانية. ومن أسبابها محاولة الروسيا السيطرة على المضائق للوصول إلى المتوسط ومطالبتها بامتيازات للأرثوذكس في أراضي الدولة العثمانية على حساب الكاثوليك. راجع تفاصيل هذه الحرب عند جرانت وتمبرلي: أوروبا في القرنين التاسع عشر والعشرين (ترجمة بهاء فهمي مؤسسة سجل العرب ١٩٦٧) الجزء الأول ص ٤١٧ وما بعدها.

(١٥) بيير رنوفان: تاريخ العلاقات الدولية (تعريب جلال يحيـى. الطبعة الثانية ١٩٧١. دار المعارف بمصر) ص ٣٤١.

انظر أيضاً: ENGELHARDT: La Turquie et le tanzimat t, I. P, 115

(١٦) الدستور المجلد الأول الصفحات ٦ و ٧ و ٨.

(١٧) أميل توما تاريخ مسيرة الشعوب العربية الحديث (دار الفارابـي ١٩٧٩) الجزء الأول ص ٨١.

انظر أيضاً عبدالعزيز عوض: الادارة العثمانية في ولاية سورية (دار المعارف بمصر ١٩٦٩) ص ٣٠.

(١٨) احمد سرحال: النظم السياسية والدستورية في لبنان والدول العربية (دار الباحث) بيروت ١٩٨٠) ص ٤٠.

(١٩) الدستور المجلد الأول ص ١١.

(٢٠) انظر نص الخط في كنز الرغائب في منتخبات الجوائب جمع سليم فارس الشدياق الجزء الخامس ص ٢٦٠.

(٢١) نص القانون منشور في كتاب ساطع الحصري: البلاد العربية والدولة العثمانية ص ٢٥٧.

(٢٢) عبدالعزيز عوض: الادارة العثمانية في ولاية سورية (١٨٦٤ ــ ١٩١٤) ص ٤٣.

(٢٣) محمد فريد: مرجع مذكور ص ٣٣٣.

(٢٤) تمثل العرب في مجلس المبعوثان بـ ٥٠ مبعوثاً والأتراك بـ ١٥٢ مبعوثاً على الرغم من تفوق العرب العددي في الامبراطورية العثمانية على الأتراك بنسبة ١٣ إلى ٢ أما بقية العناصر فتمثلت بـ ٢٥ البان، ٢٣ يونان، ١٢ ارمن، ٤ بلغار، ٥ اسرائيليين، ٣ للعرب واحد للفلاخ: توفيق برو العرب والترك ص ١٠٨.

(٢٥) توفيق برو: ص ١٣٣.

(٢٦) المرجع السابق ص ١٣٥.

(٢٧) محمد فريد: مرجع مذكور ص ٤١٢ ايضاً يوسف الحكيم: سورية والعهد العثماني (دار النهار للنشر ١٩٨٠) الجزء الأول ص ١٦٨.

(٢٨) السلطان عبدالحميد: المذكرات ص ١٩٦.

(٢٩) المرجع السابق ص ١٠٤.

(٣٠) المرجع السابق ص ١٠٥.

(٣١) عبدالعزيز عوض: مرجع مذكور ص ٤٥.

(٣٢) توفيق برو: مرجع مذكور ص ٤٢٥.

(٣٣) المرجع السابق ص ٤٣٦.

(٣٤) يذكر محمد أنيس انه رغم سقوط السلطان عبدالحميد. فالنظام الدستوري نفسه الذي أقيم من بعده ظل يتمسك بالفكرة الاسلامية محاولاً استغلالها في لم المسلمين حول الدولة العثمانية، وقد استغلت فكرة الوحدة الاسلامية بالفعل في الحرب الطرابلسية ضد إيطاليا وفي حروب البلقان. الدولة العثمانية والشرق العربـي (مكتبة الأنجلو المصرية القاهرة) ص ٢٤٤.

العلاقات الروسية - العثمانية
(١٦٨٧ - ١٨٧٨)
الحلقة الثالثة

حرب القرم (١٨٥٣ - ١٨٥٦)

د. عبد الرؤوف سنّو



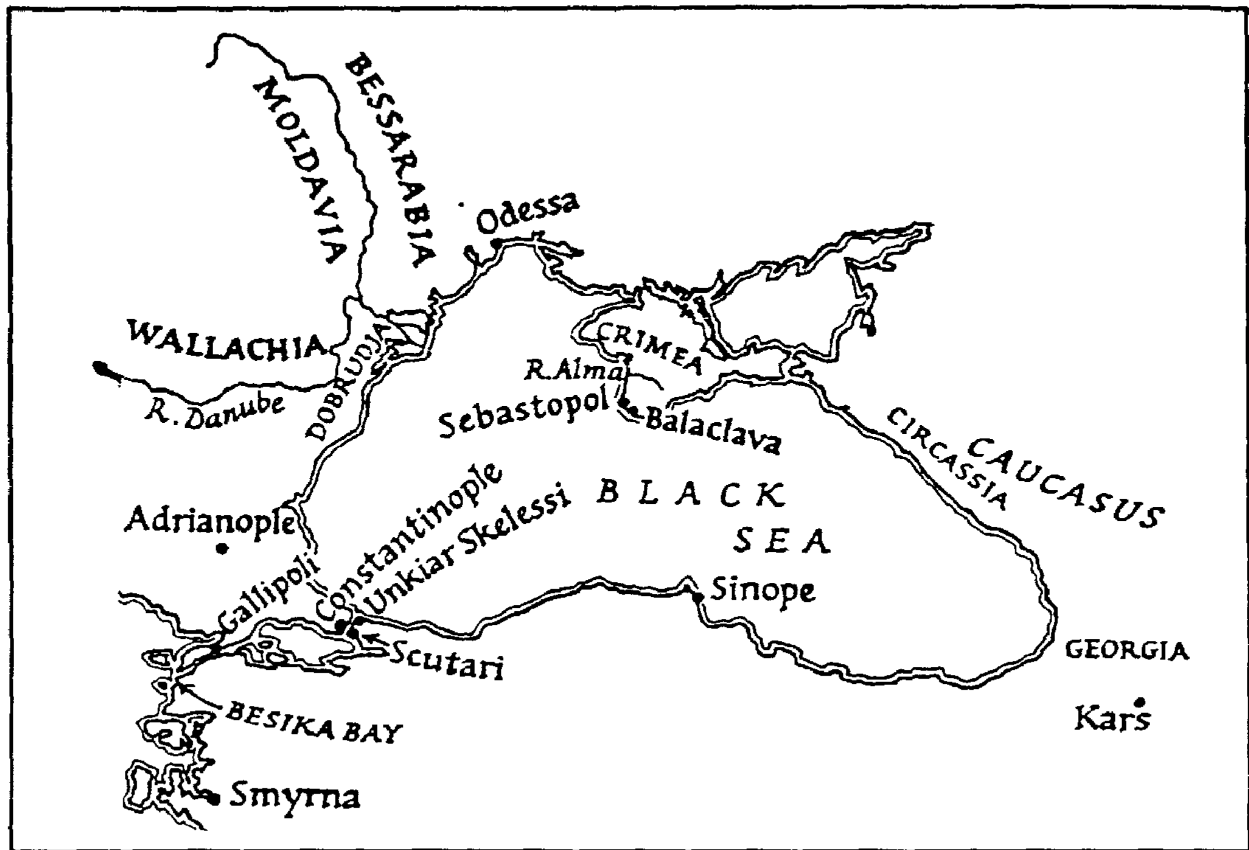
منذ سقوط القسطنطينية بأيدي العثمانيين ظلت العوامل الدينية والاقتصادية والاستراتيجية تدفع روسيا للسيطرة على الممرات العثمانية وبالتالي على العاصمة العثمانية في سبيل تأمين تجارتها وتنفيذ إدعاءاتها في وراثة الامبراطورية البيزنطية. فتارة بالتوسع العسكري وتارة أخرى بأسلوب التفاهم الدولي أعلنت روسيا مراراً عن سياستها التقسيمية للدولة العثمانية. إلا أن خططها اصطدمت في كل مرة بمصالح دول أوروبية أخرى. فالنمسا كانت تنازعها الزعامة على البلقان، في حين عارضتها بريطانيا وفرنسا القضاء على الدولة العثمانية لأسباب استراتيجية واقتصادية. ونتج عن تضارب مصالح الدول الأوروبية في الامبراطورية العثمانية خلال القرن التاسع عشر تأزم متواصل في العلاقات الروسية ــ العثمانية. وفي النصف الثاني من ذلك القرن اشتعلت الحرب مرتين بين الدولتين، وتعرف الحرب الأولى من التاريخ تبعاً للمكان الذي دارت فيه «حرب القرم» (١٨٥٣ ــ ١٨٥٦) وانتهت بمؤتمر باريس. وتسمى الحرب الثانية بـ «الحرب البلقانية» (١٨٧٧ ــ ١٨٧٨) وانتهت بمؤتمر برلين. وكلا الحربين والمؤتمرين كانا بعيدي الأثر بنتائجهما في التاريخ الأوروبي والعثماني الحديث.

إن غرضنا من هذه الدراسة هو تتبع علاقات الدولتين في أربع حلقات: الأولى تشمل سياسة الاندفاع نحو القسطنطينية حتى معاهدة الممرات ١٨٤١ ــ الحلقة الثانية تلقي الأضواء على دور الدبلوماسية الروسية في مشاريع تقسيم الدولة العثمانية ــ أما الحلقة الثالثة فمخصصة لحرب القرم ومؤتمر باريس. وتنتهي الدراسة بالحلقة الرابعة التي تتعرض للحرب البلقانية ومؤتمر برلين.



ما بين انتهاء الأزمة المصرية واندلاع حرب القرم (١٨٤٠ ــ ١٨٥٣)، شهد الشرق الأدنى حوادث لم تكن ذات اهمية كبيرة بحيث تعكر صفو السلام النسبي الذي ساد المنطقة. لكن حرب القرم التي تعتبر في التاريخ الحديث من أهم مراحل المسألة الشرقية اوصلت العلاقات الدولية إلى مأزق خطر. فبعد إجهاض الثورات في أوروبا من قبل الأنظمة المحافظة (١٨٤٨/١٨٤٩)، غيرت تلك الحرب في العلاقات الدولية وضربت ما كان يسمى بـ «**التجانس الأوروبي**»، الذي كان قد تكرس في ١٨١٥. كذلك أعطى تدخل بريطانيا وفرنسا في الحرب للدفاع عن سلامة السلطنة العثمانية وبالتالي «**تحجيم**» الخطر الروسي عنها، أعطى الدولة العثمانية دفعة جديدة من الحياة استمرت حتى الحرب الروسية ــ العثمانية (١٨٧٧/١٨٧٨).

وينقسم المؤرخون فيما بينهم حول أسباب حرب القرم. فمنهم من يضع الخلافات الدينية بين فرنسا وروسيا حول الأماكن المقدسة بفلسطين في مقدمة مسبباتها[1]، في حين أن بعضهم الآخر لا يرى في النزاع الديني المذكور سوى سبب مباشر للحرب، وأنّ المصالح السياسية والاقتصادية والاستراتيجية المتضاربة بين الدول الأوروبية، وخصوصاً بين روسيا من جهة وبريطانيا وفرنسا والنمسا من جهة أخرى: هي أسبابٌ غير مباشرة للحرب، لا تقل في اهميتها عن الاعتبارات الدينية[2]. فاعتقاد روسيا أن الوقت قد حان بعدما أُخمدت الثورات في أوروبا للعودة لسياسة تقسيم الامبراطورية العثمانية وتأمين مصالحها في تلك الدولة كان يتناقض أساساً مع مصالح الدول الأوروبية الأخرى في الدولة العثمانية وفي منطقة الشرق الأدنى: رغم التعاون المشترك الذي كان قد تحقق بين روسيا وبقية الدول الأوروبية لإنهاء الأزمة المصرية. فالفترة الفاصلة بين معاهدة الممرات وحرب القرم تسجل تنافساً سياسياً واقتصادياً واستراتيجياً بين روسيا الداعية لتقسيم السلطنة العثمانية وبقية الدول الأوروبية المدافعة عن مصالحها المرتبطة بسلامة تلك



□ حرب القرم.

الدولة. هذا التنافس امتزج بالنزاعات الدينية بين روسيا وفرنسا حول الأماكن المقدسة. كما تتميز تلك الفترة باستمرار الدولة العثمانية بسياسة الإصلاحات الداخلية المدعومة من بريطانيا،التي كانت قد بدأت في ١٨٣٩ واتخذت في ١٨٥٦ منحىً خاصًا[٣]، وكذلك سياسة بريطانيا للاختراق التجاري (معاهدة بلطاليمان ١٨٣٨) والاختراق المالي (أول قرض بريطاني للدولة العثمانية، ١٨٥٤)[٤]. وبالنسبة للنمسا فكان عليها أن تدافع عن مصالحها في البلقان والبحر الأسود والمرات ضد «**الهيمنة الروسية**».

وفيما يتعلق بفرنسا التي كانت قد خسرت الكثير من سمعتها في المشرق بعد الأزمة المصرية، فقد حاولت استرجاع نفوذها مستخدمة المسائل الدينية وسيلةً لذلك. أمّا بروسيا ــ أكبر الدويلات الالمانية ــ فكانت لا تزال تعير المسألة الشرقية أهمية ضئيلة، إذ انصبّ همها على تبوىء مركز مرموق في المجموعة الأوروبية، خاصةً بعد أذلال أولمتز على يد النمسا (١٨٥٠).

ــ ١ ــ

أسباب حرب القرم

● تضارب المصالح الاقتصادية البريطانية ــ الروسية، والنمساوية الروسية:

كانت مسألة السماح للتجارة الروسية بعد معاهدة قينارجة بحرية استخدام المرات العثمانية إحدى المكاسب الهامة التي حققتها روسيا بعد قرن من الصراع مع الدولة العثمانية. ونتيجة لذلك تحول الثقل الاقتصادي الروسي إلى المنطقة المشرفة على البحر الأسود في جنوبي البلاد[٥]. فقامت مرافىء روسية في النصف الأول من القرن التاسع عشر وفي مقدمتها ميناء أوديسا بتطوير صادراتها من الحبوب عبر المرات فالمتوسط ومنه إلى بلدان غرب أوروبا وخاصة إلى بريطانيا[٦].

ورغم هذا النمو، فقد كانت هناك عوامل تسير في غير مصلحة التجارة الروسية وهي دخول الدولة العثمانية بولايتيها الدانوبيتين السوق

الدولية لتجارة الحبوب كمنافسة لروسيا[٧] والتحول التدريجي لبريطانيا عن الأسواق الروسية إلى الأسواق العثمانية، بعدما أصبح المتوسط بالنسبة لبريطانيا طريقاً تجارياً واستراتيجياً مع الهند والشرق الأقصى، وبعدما فتحت معاهدة بلطاليمان واتفاقية التعرفة البريطانية العثمانية (١٨٥٠) السوق العثمانية أمام المنتجات الانكليزية وأصبحت الدولة العثمانية في المرتبة الثالثة بين الدول المستوردة من بريطانيا[٨]. هذا في الوقت الذي كانت فيه الدولة العثمانية قد تحولت إلى مصدر هام لبريطانيا فيما يتعلق باستيراد المواد الخام لصناعتها. وبعد ١٨٤٦، عندما رفعت بريطانيا ضرائب الحماية الجمركية عن استيراد الحبوب، حلّت الدولة العثمانية في المرتبة الرابعة أو الثالثة بين الدول المصدرة إليها. وكانت الحنطة المصدرة من ولايتي الدانوب أهم الصادرات العثمانية[٩].

وهكذا أخذت بريطانيا تستبدل بالحنطة الروسية الحنطة العثمانية وتؤمن لمصنوعاتها — في وقت كثرت فيه شكاوى التجار البريطانيين من المضايقات التي تتعرض لها منتجاتهم الصناعية في الأسواق الروسية — أسواقاً أكثر انفتاحاً وأوسع استيعاباً في الدولة العثمانية[١٠] هذا إلى جانب استيراد ما تحتاجه هذه الصناعة من المواد الخام. وبذلك أخذ التبادل التجاري بين بريطانيا وروسيا يتراجع بشكل ملحوظ، مقترناً في الوقت ذاته بتضارب مصالح الدولتين التجارية والسياسية والاستراتيجية في وسط آسيا والهند[١١].

إن هذه العوامل الاقتصادية والسياسية مجتمعة توضح لماذا أخذت بريطانيا تتحول من جانب روسيا إلى جانب الدولة العثمانية، ولماذا أصبحت المرات العثمانية ومنطقة وسط آسيا منطقتين استراتيجيتين لبريطانيا، ولماذا أصبحت بريطانيا تخشى سيطرة روسيا عليهما، التي يمكن أن تُعَرِّضَ تجارتها الشرقية ومركزها في المتوسط للخطر[١٢]. ولهذا اتسمت سياسة كل من روسيا وبريطانيا بالتضارب: روسيا الداعية لأسباب اقتصادية واستراتيجية لتدمير الدولة العثمانية، وبريطانيا التي سعت للأسباب ذاتها طوال القرن التاسع عشر للحفاظ على السيادة العثمانية وإقصاء روسيا عن أسواق المنطقة.

وقبل حرب القرم بقليل (١٨٤٩) عبر بالمرستون في مجلس العموم عن الدوافع الاقتصادية التي كانت تدفع بلاده لمناهضة النفوذ الروسي والوقوف إلى جانب الدولة العثمانية بقوله: «**فإذا كان استقلال تركيا من الناحية السياسية ذا أهمية كبيرة لنا، فانه، (أي استقلال تركيا) لا يقل أهمية لبريطانيا من الناحية التجارية**»[١٣] كذلك وصف أحد السفراء الانكليز في العاصمة العثمانية أهمية الدولة العثمانية بالنسبة لمنتجات بلاده بقوله: «**إن انهيار تركيا قد يكون مؤشراً للقضاء على التجارة الانكليزية**»[١٤].

* * *

أما النمسا فكانت إحدى الدول الكبرى ذات الاهتمام المباشر بالتجارة مع الدولة العثمانية فيما يتعلق باستيراد الحنطة من ولايتي الدانوب أو بالتبادل التجاري مع مناطق عثمانية أخرى عبر مصب الدانوب فالبحر الأسود والمضائق. لذلك قامت النمسا في الثلاثينات من القرن الماضي بتطوير خطوطها الملاحية مع مرافىء الدولة العثمانية[١٥] ولكن التجارة النمساوية كانت تعتمد بالدرجة الأولى على حرية الملاحة في الدانوب ومصبه. بيد أن تزايد طلب النمسا على الحنطة العثمانية شكل تحدياً لصادرات ميناء أوديسا في تلك المادة، فأخذت روسيا، التي لم تكن عملياً دولة دانوبية، تعرقل التجارة النمساوية، والبريطانية أيضاً في نهر الدانوب مستندة إلى معاهدة ١٨٢٩، التي أعطتها الحق بالإشراف على مصب ذلك النهر وتجارته[١٦]. وقبل حرب القوم كانت النمسا تسعى لازاحة روسيا عن مصب الدانوب. ولما قامت الأخيرة باحتلال ولايتي الدانوب (تموز ١٨٥٣) أدركت النمسا أن عليها أن تدافع عن مصالحها التجارية والاستراتيجية أمام روسيا.

وهكذا كان وجود الدولة العثمانية مستقلة غير مهددة هو ضمان لتجارة بريطانيا والنمسا مع تلك الدولة. ولهذا كان القضاء على الدولة العثمانية بالمفهوم الروسي يعني القضاء على شريك تجاري مربح لهما.

إن العوامل التجارية والاقتصادية التي أوجزناها قد لا تفسر وحدها أسباب نشوء حرب القرم. فالتحليل الاقتصادي لا يكفي وحده لفهم دبلوماسية فترة ما قبل تلك الحرب، التي أعقبت الاتفاق السري الروسي البريطاني في ١٨٤٤ واستمرت حتى ١٨٥٣ ـ هذه الفترة التي يطلق عليها بوريير وتمبرلي بحق «**جرثومة حرب القرم**»[١٧].

● النزاع الروسي ـ الفرنسي حول الأماكن المقدسة في فلسطين:

وفيما شكلت الاعتبارات الاقتصادية والاستراتيجية، الأرضية الخصبة لنزاعات الدول الكبرى في الدولة العثمانية، بدأت في فلسطين عام ١٨٤٧ بوادر أزمة سياسية بين روسيا وفرنسا ذات طابع ديني وتتعلق بحقوق كل من الطائفتين الكاثوليكية والأرثوذكسية في الأماكن المقدسة. وقد أدت إلى صدام بين الرهبان الأرثوذكس واللاتين استخدمت فيه شمعدانات كنيسة بيت لحم وصلبانها[١٨]. وكانت هذه المسألة قديمة العهد وتعود إلى عام ٦٣٦م عندما اعترف الخليفة الراشد عمر بن الخطاب للطائفة الأرثوذكسية بحق الاشراف على الأماكن المقدسة[١٩]. وخلال الحروب الصليبية أصبحت هذه الأماكن ملكاً مشتركاً للكنائس الشرقية الست في فلسطين. إلا أن الكنيسة الأرثوذكسية كانت أرفع تلك الكنائس شأناً بفضل عدد اتباعها البالغ ١٢ مليوناً[٢٠] وحماية روسيا لها. والمقابل تمتع رجال الدين الكاثوليك بالحماية الفرنسية. فبفضل الامتيازات التي حصل عليها ملوك فرنسا في ١٥٣٥ و ١٧٤٠ بوجه خاص، حصلت فرنسا على نفوذ ديني وسياسي واسع في المشرق[٢١]. ولحقت روسيا فرنسا بعد معاهدة قينارجة وحصلت بدورها على امتيازات تتعلق بحماية رعايا السلطان من الأرثوذكس[٢٢] واستخدمتها لتقوية نفوذها السياسي[٢٣]. ومنذ بداية القرن التاسع عشر استطاعت روسيا الأرثوذكسية أن تضع الأماكن المقدسة تدريجياً تحت إشرافها مستغلة ضعف فرنسا في المشرق واشتداد تيار العلمنة داخلها، وتم ذلك لها نهائياً عند منتصف ذلك القرن[٢٤]. ولكن الأزمة المصرية عادت ووجهت أنظار فرنسا مجدداً نحو الشرق، في محاولة لاسترجاع ما فقدته من نفوذ. ففي ١٨٤٣ وصل القدس أول قنصل فرنسي[٢٥]. وقبل عامين على ذلك التاريخ وصلت تلك المدينة أول بعثة روسية لدراسة أحوال الأرثوذكس السوريين وإمكانية تأسيس مؤسسات تعليمية لهم[٢٦]. وبعد سنوات قليلة (١٨٤٨) عين جوزيف فاليرغا كأول بطريرك لاتيني على القدس بعد انقطاع طويل. وكانت التعليمات التي زود بها فاليرغا ـ مقاومة النفوذ الأرثوذكسي. وقد فسرت كل هذه التحركات على أنها سياسة كاثوليكية جديدة في المشرق وتحدٍ لنفوذ روسيا الأرثوذكسية، خاصة أن البابا كان قد أعلن أنه لن يعترف بالكنيسة الشرقية[٢٨].

وفي فترة ضعف النفوذ الكاثوليكي في الشرق انتخب لويس نابوليون (١٨٤٨) رئيساً للجمهورية الفرنسية. لكن نابوليون، الذي كان يخطط لضرب الجمهورية وإعادة إحياء الامبراطورية، أخذ يتقرب من الجماعات الكاثوليكية داخل البلاد، بعدما اتخذ الراديكاليون منه موقفاً معادياً. وليحظى بتأييد الكاثوليك أعاد لويس نابوليون للبابوية نفوذها السياسي في روما (١٨٤٩)[٢٩] وكلف ـ بعدما حصل على دعم الدول الكاثوليكية وفي مقدمتها النمسا ـ مندوبه لدى الباب العالي (أيار ١٨٥٠) ليطالب بـ«**حقوق «الكاثوليك المغتصبة»** في الأماكن المقدسة من قبل الأرثوذكس استناداً لمعاهدة ١٧٤٠[٣٠].

وطبيعي أن يؤدي التحرك الفرنسي باتجاه الباب العالي إلى إحراج الحكومة العثمانية، التي كانت تدرك حساسية المسألة وأنها قضية سياسية تتعدى مجرد حقوق أي من الطائفتين في الأماكن المقدسة. ولهذا حاولت أن تماطل وألا تحسم لمصلحة فريق ضد الآخر (٢٤ ت ٢، ١٨٥١). لكن مقدرة كل من روسيا وفرنسا في ممارسة ضغط عسكري وسياسي عليها، جعل الحكومة العثمانية تصدر قرارات تارة لمصلحة الأولى (٨ شباط، ١٨٥٢) وتارة أخرى لمصلحة الثانية (٢٢ ك ١، ١٨٥٢)[٣١]. وهكذا انتهى عام ١٨٥٢ دون أن تستطيع الدولة العثمانية أن ترضي أياً من الفريقين في مسألة الأماكن المقدسة.

● عودة القيصر نيقولا لمشروع تقسيم الدولة العثمانية:

رغم مناهضة فرنسا لنفوذ روسيا السياسي فيما يتعلق بمسألة الأماكن المقدسة، ظل مركز روسيا في المشرق حتى نهاية ١٨٥٢ قوياً. فالخلافات البريطانية الفرنسية حول بلجيكا، والقلق الذي أصاب الدوائر السياسية البريطانية نتيجة انقلاب ٢ ك ١، ١٨٥١ وإعلان الامبراطورية في فرنسا، وأخيراً سقوط حكومة دربي (Derby) وعودة ابردين (Aberdeen) للحكم (ت ٢، ١٨٥٢)، بالاضافة إلى التقارب بين بطرسبرج وفيينا بعد وفاة شفارتسنبرغ (Schwarzenberg)، رئيس وزراء النمسا (نيسان ١٨٥٢)، الذي تودد إلى فرنسا وتحفظ تجاه روسيا[٣٢] — كل هذه الأمور مجتمعة اقنعت القيصر نيقولا بأن الظروف الدولية أصبحت مواتية للعودة إلى مشروعه لتقسيم الدولة العثمانية وأن يعرض على ابردين، شريكه في اتفاقية ١٨٤٤ اتمام ما بداه[٣٣].

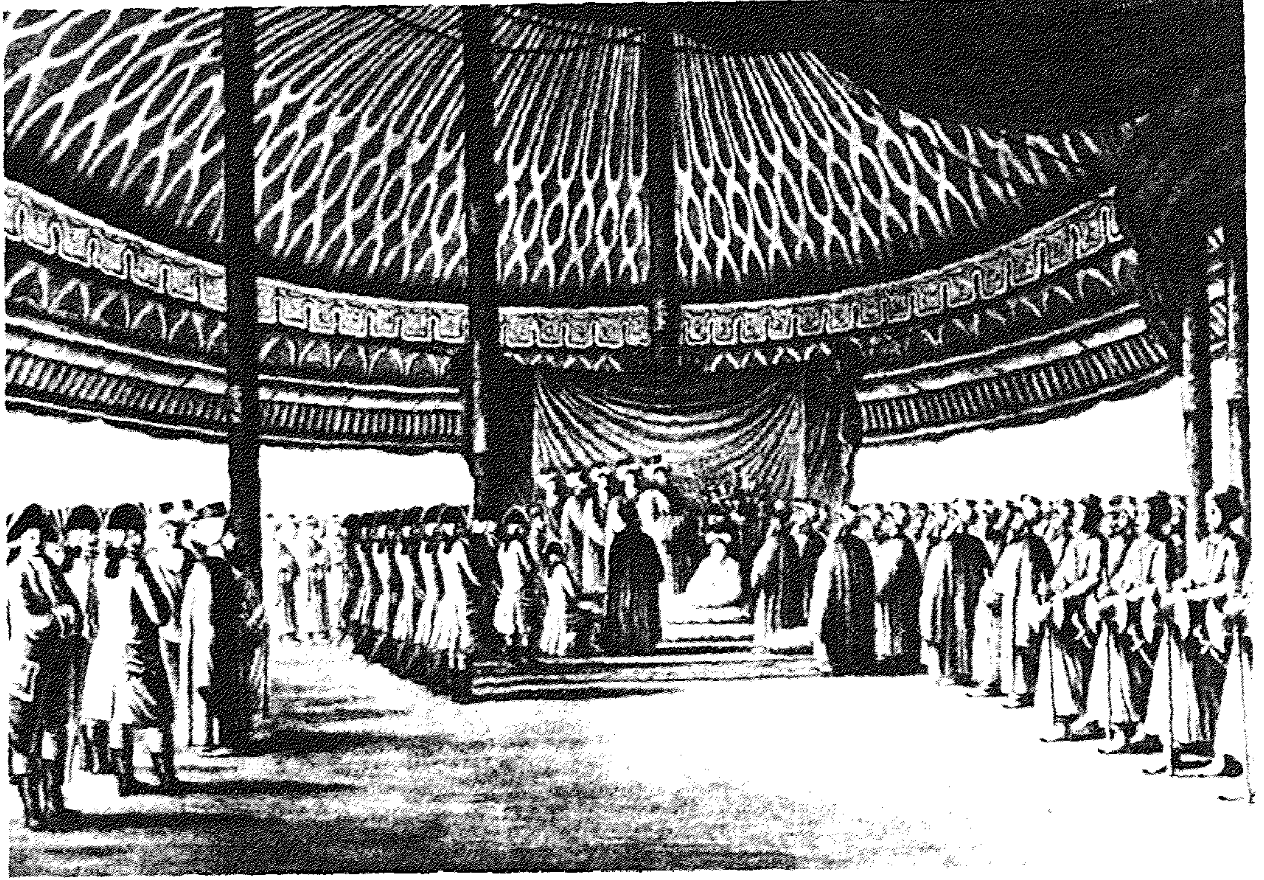
ففي ٩ و ١٤ ك ٢ و٢١ شباط، ١٨٥٣ اجتمع القيصر نيقولا بهاملتون سيمور (Hamilton Seymour) السفير البريطاني في بطرسبرج، وطرح معه المسألة الشرقية من كافة جوانبها وضرورة اتخاذ الترتيبات للحيلولة دون تورط الدول الأوروبية في نزاع فيما بينها نتيجة انهيار الدولة العثمانية لارتباط ذلك بالتوازن الأوروبي[٣٤]. لكن سيمور، الذي لم يظهر تحمساً لمشروع القيصر، أجاب بأن «**بلاده لا ترحب بفكرة تقسيم ممتلكات صديق وحليف قديم قبل أن يكون قد قضى نحبه**»[٣٥]. بيد أن القيصر كرر وجهة نظره معتبراً الدولة العثمانية بمثابة «**دبٍّ يحتضر**» وأن «**إعطاءه المسك لن يبقيه على قيد الحياة**»[٣٦]. ومن المؤكد أن «**المسك**» الذي عناه القيصر لم يك سوى محاولات الاصلاح الداخلي بالدولة العثمانية المدعومة من قبل بريطانيا، والتي رآها عديمة الجدوى لأن الدولة العثمانية في طريقها إلى الزوال.

وفي معرض حديثه حول تقسيم الدولة العثمانية، ولتبديد شكوك بريطانيا بنواياه تجاه المرات، وأن يقتصر تقسيم الدولة العثمانية على روسيا وبريطانيا وحدهما، فقد أوضح نيقولا لسيمور أنه لا يريد إعادة إحياء مخططات الامبراطورة كاترين الثانية بتأسيس مملكة يونانية أو جمهوريات صغيرة على انقاض الدولة العثمانية. لكنه صرح بأن تكون ولايتا الدانوب وصربيا وبلغاريا في حال انهيار السلطنة العثمانية مستقلتين تحت الحماية الروسية. أما بالنسبة للاستانة فقد رأى القيصر ضرورة تحييدها لأهميتها الاستراتيجية بالنسبة للدول الكبرى. مقابل ذلك أعلن القيصر أنه لا يعارض أن تضم بريطانيا مصر وكريت إليها لأهميتهما الاستراتيجية لها[٣٧].

ورغم ما انطوى عليه حديث القيصر من مكاسب لبريطانيا، إلا أن سيمور أبلغه أن اقتصار تقسيم الدولة العثمانية على الدولتين وحدهما سوف لن يمنع حرباً في المنطقة، بل سيشعلها حرباً عامة[٣٨]. أما راسل (Russell)، وزير الخارجية البريطانية، فكتب إلى السفير البريطاني في بطرسبرج ليخبر القيصر بأن الدولة العثمانية ليست في الطريق إلى الزوال، بل لا تزال لديها مقومات البقاء، وإن مجرد الدخول في مفاوضات مع روسيا حول تقسيم الدولة العثمانية «**قد يعجل بأحداث خطيرة لا تريدها بريطانيا**»[٣٩].

ورغم ما انطوت عليه محادثات نيقولا وسيمور من مخاطر قد تتعرض لها الدولة العثمانية من جانب روسيا، ظلت الدوائر السياسية البريطانية تعتقد أن القيصر نيقولا لن ينجرف وراء سياسة تقسيمية للدولة العثمانية دون موافقتها[٤٠].

وفي بداية ١٨٥٣ كان القيصر يرى أن انهيار الدولة العثمانية قادم لا محالة، مستشفاً ذلك من النزاع النمساوي العثماني حول الجبل الأسود، وتحقيق النمسا لانتصار دبلوماسي على الباب العالي بعد انذارها الشهير (شباط ١٨٥٣)[٤١]. وهذا ما شجعه على التمثل بالدبلوماسية النمساوية في تعامله مع العثمانيين لتحقيق مصالح بلاده الدينية والسياسية وذلك عن طريق إيفاد مبعوث إلى الاستانة، وهو الأمير منشيكوف (Menshikov). وباختصار فقد كان القيصر يريد إعادة إحياء معاهدة خنكار اسكلسي.



□ الصدر الأعظم يستقبل سفيراً بريطانياً.

— ٢ —

مرحلة المفاوضات المباشرة بين روسيا والدولة العثمانية

● **مهمة منشيكوف**:

تشير المصادر إلى أن القيصر نيقولا لم يشأ أن يبدأ الحرب ضد الدولة العثمانية أو أن يتورط بمجابهة مع أية دولة أوروبية أخرى[٤٢]، وأن تحرك روسيا في اتجاهين: دبلوماسي باتجاه الاستانة (بعثة منشيكوف) وعسكري باتجاه ولايتي الدانوب واحتلالهما (تموز ١٨٥٣) كان بقصد تحقيق مصالحها في الدولة العثمانية وإلحاق الهزيمة السياسية بفرنسا. وبالاضافة إلى اعتبارات تتعلق بالتوازن الدولي وسنعالجها في حينه، فقد كانت روسيا غير مهيأة للحرب. فعشية حرب القرم كان الجيش الروسي غير مستعد نتيجة تخلف روسيا الاقتصادي الذي انعكس على تسليحه بشكل واضح وكان يمنعه من تحمل أعباء حرب طويلة. وبالاضافة إلى مصاعب روسيا المالية، فقد كانت البلاد تفتقر إلى شبكة مواصلات حديدية لنقل قواتها واحتياطها من الجنود[٤٣].

وفي شباط ١٨٥٣ عين القيصر نيقولا الأمير منشيكوف، قائد الأسطول في بحر البلطيق، رئيساً للبعثة الروسية في استانبول ومفاوضاً مطلق الصلاحيات مع الباب العالي. وحددت مهمته بتحقيق أربعة أهداف[٤٤]:

— تأمين اعتراف الباب العالي بحماية القيصر الروسي لرعايا السلطان من الأرثوذكس.

— استحصال مرسوم بإعادة الأوضاع في الأماكن المقدسة إلى ما كانت عليه قبل ١٨٥٢.

— عقد اتفاقية مع الحكومة العثمانية تضمن بموجبها حقوق الطائفة الأرثوذكسية.

— عقد تحالف سري بين الدولتين تقوم بموجبه روسيا بدعم الباب العالي عسكرياً ضد أي اعتداء فرنسي نتيجة للاتفاقات الثلاث الأول.

وبالإضافة إلى ذلك حصل منشيكوف على معلومات مفصلة عن مواقف الدول الأوروبية من

الأزمة، هذا إلى جانب معلومات وافرة عن مجلس الوزراء العثماني ومقرراته(٤٥). ويبدو أن تزويد منشيكوف بتلك المعلومات يعود إلى انه كان قد وضع نصب عينه ضرب الحكومة العثمانية من الداخل عن طريق(٤٦) دفع بعض الوزراء للاستقالة، وفي مقدمتهم فؤاد باشا، وزير الخارجية العثمانية المعادي لروسيا.

في ٢٨ شباط وصل منشيكوف إلى العاصمة العثمانية واجتمع بعد أيام إلى الصدر الأعظم محمد علي باشا، بعدما تمكن من تحريض السلطان على عزل فؤاد باشا وتعيين رفعت باشا مكانه(٤٧).

وخلال النصف الأول من شهر آذار قدم المفاوض الروسي مذكرتين إلى الحكومة العثمانية (٨ و ١٠ آذار) تتعلقان بالمطالب الروسية بشأن حماية الكنيسة الأرثوذكسية واتباعها في الدولة العثمانية، وباستعداد روسيا لعقد معاهدة دفاعية مع الباب العالي موجهة ضد فرنسا(٤٨). وفي مذكرتين أخريين (١٦ و ٢٢ آذار) قدم منشيكوف قسماً من المعاهدة التي يتبع بموجبها بطريرك وأساقفة الأرثوذكس القيصر الروسي مباشر، الذي يملك صلاحيات تعيين هؤلاء، تجديد مددهم وعزلهم. كذلك بأن ترفع شكاوى هؤلاء إليه مباشرة بصفته المرجع الأول للكنيسة الأرثوذكسية(٤٩).

● منشيكوف ومناورات كاننغ:

وفيما يقوم منشيكوف بمناوراته الدبلوماسية في الآستانة، كانت الحكومة الروسية تتحرك بدورها دبلوماسياً باتجاه لندن لتؤكد للحكومة البريطانية بواسطة سفيرها هناك على الطابع السلمي لمهمة منشيكوف، ولتمنع في الوقت ذاته أي تقارب بريطاني فرنسي. وخلال الربع الأول من عام ١٨٥٣ كانت الحكومة البريطانية لا تزال تثق بالقيصر نيقولا وبنواياه السلمية تجاه الدولة العثمانية ولا ترى في مطالبه إلى الاستانة أية أهداف عدائية. يضاف إلى ذلك.

شعور ابردين بأن نيقولا لن يتصرف بالمسألة الشرقية بمعزل عنه(٥٠). ولهذا رأى ابردين، الذي كان يقر لروسيا بحقوق فيما يتعلق برعايا السلطان الأرثوذكس، أن تستجيب الحكومة العثمانية للمطالب الروسية سواء أكانت محقة أم لا(٥١). ولذلك رفض في ٢١ آذار اقتراح روزن (Rosen)، القائم بالأعمال البريطاني في استانبول، بأن يشارك الأسطول البريطاني الأسطول الفرنسي في مظاهرة بحرية في الممرات خشية أن يستفز ذلك الساسة الروس(٥٢).

ولكن التقارير التي كان يبعث بها سيمور من بطرسبرج وتحذيراته المتلاحقة لنوايا روسيا العدائية في الدولة العثمانية ومحاولتها عزل بريطانيا عن فرنسا، بالإضافة إلى المذكرات العنيفة التي قدمها منشيكوف إلى الباب العالي — كل هذه الأمور أبانت للحكومة البريطانية أن أهداف روسيا تتعدى مسألة الأماكن المقدسة. فعند نهاية آذار كان راسل قد أصبح أكثر اقتناعاً مما مضى «**بأن قيصر روسيا يعمل بجلاء لانجاز تدمير الدولة العثمانية، وانه يجب أن يقاوم**»(٥٣) ورغم ذلك لم تسر الحكومة البريطانية في نهج معاد للروس، بل اكتفت بأن تبقى على مقربة من الأحداث بسفير ضالع بالمسألة الشرقية، وهو ستراتفورد كاننغ (Stratford Canning)، وكانت اعادة تعيين كاننغ في الاستانة دليلاً على المرحلة الدقيقة التي كانت تمر فيها الدولة العثمانية، وعلى رغبة الحكومة البريطانية في الدفاع عن سلامة واستقلال تلك الدولة الحيويان لمصالحها في المنطقة.

ونحن لا نريد هنا أن نخوض في الجدال حول مسؤولية كاننغ عن اندلاع حرب القرم وتأثر الحكومة البريطانية بتقاريره. إلا انه مما لا شك فيه أنه كان يكره روسيا ويدرك الأخطار المحدقة بالدولة العثمانية نتيجة ضعفها، ولهذا كان مصمماً على دعم سيادتها، استقلالها، وكان هذا كافياً لأن يسعى نحو الحرب(٥٤).

وكما ذكرنا سابقاً، فقبل وصول كاننغ إلى استانبول كان منشيكوف قد طالب الباب العالي بمعاهدة تحفظ الامتيازات القديمة «**للديانة الأرثوذكسية الشرقية وللاكليروس وللممتلكات التابعة لها**» وكان كاننغ يرى في اصطلاح «**الديانة**» مطاطية بحيث يشمل جمع رعايا السلطان الأرثوذكس، وان معاهدة من هذا



□ منشيكوف في زيه العسكري.

القبيل تتعارض «**مع الرغبة للحفاظ على سيادة واستقلال الامبراطورية العثمانية**»[٥٥] وتعطي النفوذ الروسي في الدولة العثمانية الغطاء الشرعي. وبناء على ذلك اتسمت سياسته بجعل منشيكوف يفصل ما بين مسألة الأماكن المقدسة وقضية الحماية الروسية على الأرثوذكس، وبأن يجعل الباب العالي يوافق على ما يتعلق بالأولى ويتصلب في المسألة الثانية، وكان كاننغ يدرك[٥٦]، ويشاركه لوكور (Lo Cour) السفير الفرنسي في الاستانة، إن أهداف روسيا تتعدى مسألة الأماكن المقدسة. وقد صحت توقعاتهما بعدما قبل الباب العالي في ١٤ أيار معظم المطالب الروسية فيما يتعلق بالأماكن المقدسة ــ عندها عاد منشيكوف وتقدم في ٦ أيار بمطالب جديدة تتعلق هذه المرة باستقلال الجبل الأسود والهرسك وعزل وزراء الصرب المعادين لروسيا. وبإيعاز من كاننغ رفض الباب العالي المطالب الروسية الجديدة رابطاً المسألة بالتوازن الأوروبي وبموافقة الدول الكبرى[٥٧]. وهذا ما دفع منشيكوف في ٥ و ١٣ أيار إلى توجيه انذارين إلى الحكومة العثمانية لتنفيذ مطالبه. كما طالب بعزل كل من محمد علي باشا، الصدر الأعظم ورفعت باشا، وزير الخارجية[٥٨].

وفي محاولة أخيرة لمنع انهيار المفاوضات، وافق الباب العالي على اقتراح كاننغ بالاستجابة للمطالب الروسية فيما يتعلق باحترام حقوق رعايا السلطان الأرثوذكس وحصانة الكنيسة الأرثوذكسية لكنه رفض أن يوقع على ذلك بمعاهدة كما طالب منشيكوف. كما رفض أيضاً بأن توضع الكنيسة الأرثوذكسية ورجال الدين الأرثوذكس تحت إشراف المبعوث الروسي في استانبول[٥٩]. وهذا ما جعل منشيكوف يعتقد أن السلطان سوف يتنصل في أول فرصة من تعهده الشفوي، مما جعله يربط بقاءه في العاصمة العثمانية بتنفيذ مطالبه خلال ثلاثة أيام تنتهي في ١٧ أيار، وأخبر منشيكوف الباب العالي أن القيصر يعتبر رفض مطالبه «**عملاً عدائياً لروسيا ودينها**»[٦٠].

أدى الانذار الروسي إلى موجة استياء في الأوساط العثمانية ــ الأوروبية مما دفع السلطان إلى إقالة الوزارة العثمانية وإسناد الصدارة العظمى إلى رشيد باشا. وفي ١٧ أيار وبعد ست ساعات من الاجتماع أبلغ الديوان العثماني منشيكوف رفضه لمطالبه. لكن الديوان وعد بإصدار مرسوم لصالح الكنيسة الأرثوذكسية في استانبول والسماح لروسيا ببناء كنيسة ومستشفى في القدس[٦١]. وبهذا الرفض انتهت مهمة منشيكوف وغادر العاصمة العثمانية في ٢١ أيار، وبعد أسبوع على ذلك قطعت روسيا علاقاتها الدبلوماسية مع الباب العالي. ويعود فشل مهمة منشيكوف إلى طبيعة المطالب الروسية والمتعجرفة وإلى المؤامرات التي حاكها كل من كاننغ ولوكور.

ولم تمر تلك التطورات دون ردة فعل بريطانية. ففي اليوم التالي على مغادرة منشيكوف للاستانة بعث كاننغ بتقرير إلى حكومته (وصل التقرير لندن في ٣١ أيار) حول مخاطر السياسة الروسية في الدولة العثمانية. وقد دفع هذا ابردين للكتابة إلى نسلرود (Nesselrode)

المستشار الروسي، حول تناقض التصريحات الروسية مع مطالب منشيكوف. وأكد ابردين للمستشار الروسي تمسك بريطانيا بمعاهدتي ١٨٤٠ و ١٨٤١[٦٢]. وقبل يوم على ذلك كانت الحكومة البريطانية قد أعطت كاننغ صلاحات استثنائية باستدعاء الأسطول البريطاني إلى الاستانة إذا ما وجد أن سلامة الدولة العثمانية بخطر[٦٣]. وكان هذا تحذيراً غير مباشر لروسيا حول عزم الحكومة البريطانية بالدفاع عن مصالحها المرتبطة بسلامة الدولة العثمانية.

— ٣ —

مرحلة ما بين الحرب والسلم

● استراتيجية الحرب الروسية وردود الفعل الدولية:

وفي بطرسبرج قرر القيصر بعد مشاورات مستفيضة القيام بإجراءات على مراحل اعتبرها وسطاً ما بين الحرب والسلم، وهي احتلال ولايتي الدانوب، على أن تتبعها إجراءات أخرى إذا ما استمرت الحكومة العثمانية في تجاهلها للمطالب الروسية[٦٤]. وفي هذا المعنى وجه نسلرود في ٣١ أيار إنذاراً إلى الباب العالي بضرورة تلبية مطالب منشيكوف خلال ثمانية أيام، وبعدها إذا لم يستجب إلى المطالب — ستعبر القوات الروسية الأراضي العثمانية **«ليس بقصد الحرب، بل للحصول على ضمانات مادية من السلطان»**[٦٥]. ولم تكن تلك **«الضمانات المادية»** سوى احتلال القوات الروسية لولايتي الدانوب.

وفي محاولة عثمانية للمناورة الدبلوماسية أصدر السلطان في السادس من حزيران مرسوماً يعلن فيه الحرب الدينية لمختلف الطوائف[٦٦]. وبعد عشرة أيام على ذلك بعث إلى عواصم الدول الكبرى يخبرها أنه لا يستطيع أن يلزم نفسه باتفاقية تمس سيادته واستقلاله[٦٧].

وبين الثالث والسادس من تموز عبرت القوات الروسية نهر بروث (Pruth) واحتلت بوخارست. وبهذه العملية السريعة أرادت روسيا أن تضغط على الباب العالي من جهة، وأن تضع الدول الكبرى أمام الأمر الواقع من جهة أخرى. لكن السؤال الذي يطرح نفسه: تُرى ما هي الأسباب التي جعلت روسيا تقدم على هذه الخطورة وهي تدرك أنها ستورطها بمجابهة مع الدول الكبرى؟ إن الاجابة عن هذا السؤال تكمن في إلقاء ضوء على الاعتبارات التي بنت روسيا عليها استراتجيتها الحربية، وهي:

— ضعف الجيش العثماني وعدم مقدرته في التصدي للجيوش الروسية.
— استحالة قيام تحالف بريطاني فرنسي ضد روسيا.
— القطيعة بين بروسيا والنمسا والتي لا يمكنها أن تجمع بينها في عمل موحد ضدها. بالاضافة إلى إمكانية تحييدهما إن لم يكن دفع النمسا لتحريك جيشها إلى الحدود الفرنسية للضغط على باريس.

وإذا كان للاعتبار الأول ما يبرره، فإن الاعتباران الأخيرين اثبتا خطأً استراتيجياً روسياً وكانا سبباً في اندلاع حرب القرم، وهزيمة روسيا[٦٨].

ففيما يتعلق بالتحالف البريطاني — الفرنسي رأى الساسة الروس ضرورة استخدام أسلوب المناورة وعدم إظهار أية نيات عدائية علنية تجاه الدولة العثمانية كي لا يؤدي ذلك إلى الانجراف وراء مجابهة مع بريطانيا. وإن مثل هذه السياسة — إلى جانب التناقضات البريطانية — الفرنسية — كفيلة بأن تمنع أي تقارب بريطاني فرنسي. وطالما أن تحالفاً لن يجمع بين بريطانيا وفرنسا، فقد افترض القيصر أن بريطانيا سوف لن تعارض بلاده، ولن تقوم بعمل منفرد للدفاع عن الدولة العثمانية[٦٩]. ولكن بعد أيار ١٨٥٣ عندما وضحت شكوك بريطانيا بالنوايا الروسية الحقيقية في الدولة العثمانية ومخاطرها على مصالحها الاستراتيجية والاقتصادية وحدث تقارب فرنسي باتجاه لندن بهدف التحالف، أخذت العلاقات البريطانية — الفرنسية تسير في مسار جديد غير الذي افترضه الساسة الروس. وحتى بعد تحريك بريطانيا وفرنسا لأسطولهما الحربي إلى خليج بزيكا (حزيران ١٨٥٣)، ظل قيصر روسيا يعتقد أن هذا الوفاق لن يعمر[٧٠] رافضاً الأخذ بعين الاعتبار استراتيجية الدولتين في

المسألة الشرقية، وهي المحافظة المشتركة على سلامة الامبراطورية العثمانية. وعلى حد قول فيليبسون وبوكستون، فقد كانت الدولتان «**طرفاً في اتفاقية دولية يعود مبرر وجودها إلى تصميمها واتفاقهما المشترك في المحافظة على السيادة الاقليمية للامبراطورية التركية. إن الغزو الروسي لولايتي الدانوب مهما كان هدفه الظاهري، كان تهديداً خطراً لهذه السيادة، إن لم تكن المرحلة الأخيرة لتدميرها**»(٧١).

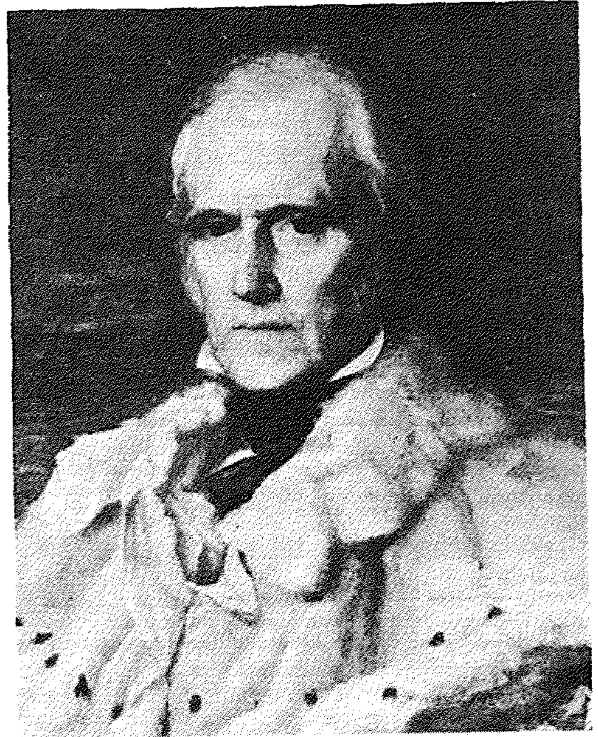
وإذا كان قيصر روسيا قد استبعد قيام تحالف بريطاني ــ فرنسي إلا انه كان متأكداً من حياد دول وسط أوروبا (النمسا وبروسيا) وبعدم إمكانية بريطانيا وفرنسا جر أحدهما إلى تحالف ضد بلاده. ولقد أخطأ القيصر في التقدير عندما اعتقد أن اتفاقتي ميونيخ غراتز وبرلين ودعم بلاده للنمسا في ١٨٤٩ و ١٨٥٠، كفيلان بأن يجعل الأخيرة تحرك جيشها إلى الحدود الفرنسية للمارسة ضغط على باريس(٧٢). فبدلاً من ذلك تحرك الجيش النمساوي إلى جبهة الدانوب، بعدما كانت النمسا قد تلقت تقارير سرية عن خطط لجنرالات روس «**للوصول إلى الاستانة مع فيينا أو عبرها**»(٧٣).وما لم يدركه القيصر نيقولا هو قلق النمسا من دبلوماسية منشيكوف واحتلال روسيا لولايتي الدانوب وتهديد التجارة النمساوية في الدانوب والبحر الأسود، وكيف ان ذلك كان إخلالاً للتوازن في البلقان من وجهة النظر النمساوية(٧٤). وحتى الافتراض القائل بأن القطيعة بين النمسا وبروسيا سوف لن تجمعهما معاً وسوف تدفع بروسيا لأخذ جانب روسيا، أثبت عجز القيادة الروسية في إدراك لعبة التوازن الدولي. فرغم إزلال اولمتز (١٨٥٠) فضل بسمارك، الذي لم تكن لديه اهتمامات مباشرة بالمسألة الشرقية، الوقوف على الحياد وعدم الانجراف وراء روسيا خشية الاصطدام بالنمسا(٧٥). لكنه رأى في الوقت ذاته أن ينتهج لروسيا سياسة خاصة بها، دون أن يمنعه ذلك من الاتفاق معها حول استراتيجية موحدة في البلقان إذا ما تجاوزت روسيا حدود المعقول(٧٦). وهكذا كانت كل الدلائل تشير عشية حرب القرم بأن النمسا ستكون الدولة الأوروبية الثالثة التي ستنضم إلى التحالف البريطاني الفرنسي.

مذكرة فيينا ومشروع أولمتز:

الواقع فقد اتسم موقف النمسا بين معسكري الحلفاء من جهة، وروسيا من جهة أخرى بالدقة. فكان الانحياز إلى جانب فريق سيؤثر حتماً على تماسك النمسا ويهددها بكارثة، وذلك بسبب أوضاع البلاد الداخلية الصعبة في إيطاليا وهنغاريا، فضلاً عن تدهور مالية البلاد. لهذا اتبعت النمسا سياسة خاصة بها، وهي أن تحرم روسيا من أية مكاسب سياسية أو إقليمية في الدولة العثمانية، وبالتلويح بالقوة دون التورط في مجابهة عسكرية معها ــ هذه السياسة التي أطلق عليها باومغارت«**الحيادية المسلحة**»(٧٧).

وفي إطار هذه السياسة دعا الغراف بول (Buol)، وزير خارجية النمسا، (آب ١٨٥٣) سفراء الدول الكبرى في العاصمة النمساوية إلى اجتماع لأجل تسوية النزاع. وبامتناع سفيري روسيا والدولة العثمانية عن المشاركة، صدر عن سفراء بريطانيا وفرنسا، بروسيا، بالاضافة إلى باول، ما عرف بـ «**مذكرة فيينا**» (١٩ آب)، التي كانت أهم بنودها التأكيد على اهتمام روسيا الدائم في المحافظة على حرية الكنيسة الأرثوذكسية، وامتيازاتها القديمة والمستمرة في الدولة العثمانية وكذلك حقوق رعايا السلطان الأرثوذكس. ومقابل ذلك الحصول على وعد من السلطان العثماني بأنه «**سيظل أميناً لنص وروح معاهدتي قينارجة وادرنة فيما يتعلق بحماية الديانة المسيحية**»(٧٨).

وبينما وافقت روسيا على المذكرة معتبرة أن معاهدة قينارجة وادرنة قد أعطتاها حق حماية الأرثوذكس في الدولة العثمانية، ربط الباب العالي موافقته على المذكرة بإجراء تعديل على النص، «بأن السلطان سيظل أميناً لنص وروح معاهدتي قينارجة وادرنة **فيما يتعلق بحماية الباب العالي للديانة المسيحية**»(٧٩). وكان تأكيد الباب العالي على ذلك يظهر جوهر المشكلة حول تفسير نصوص المعاهدتين المذكورتين: هل روسيا هي التي تحمي رعايا السلطان من الأرثوذكس، أم ان ذلك من مسؤولية السلطان؟ وكانت اختلافات



□ السفير البريطاني سترادفورد كاننغ.

وجهات النظر هذه كفيلة بأن تدفع المفاوضات إلى طريق مسدود وتجهض «**مذكرة فيينا**». وقد اتهم الروس كاننغ بأن أصابعه كانت وراء رفض العثمانيين للمذكرة وللتفسير الروسي لها. ورغم أن مسؤولية كاننغ عن هذه النقطة لا تزال غير ثابتة، إلا أنه من المؤكد أن الباب العالي كان متصلباً بموقفه نتيجة إدراكه بأن بريطانيا وفرنسا لن تتركاه فريسة لروسيا، بل ستدافعان عن سلامة أراضيه المرتبطة بالتوازن الأوروبي ومصالحهما. كذلك كان الباب العالي مدعوماً في موقفه بتعهدات تونسية ومصرية بتقديم المساعدة إليه ضد روسيا. ففي ١٢ آب وصلت وحدات بحرية مصرية إلى ميناء استانبول[٨٠].

وفي الشهر التالي على فشل مذكرة فيينا (٢٤ أيلول) حدث في اولمتز اجتماع مفاجيء بين القيصر نيقولا والامبراطور النمساوي فرانز جوزيف تم الاتفاق فيه على أن تتوسط النمسا بين روسيا والدول الأوروبية وأن يقوم سفراء الدول الكبرى الثلاث في الاستانة نتيجة ذلك بإصدار مذكرة يعترفون فيها بنوايا روسيا السلمية في الدولة العثمانية وعدم رغبة الأخيرة التدخل بشؤون الدولة العثمانية الداخلية وإن حماية الأرثوذكس في الدولة العثمانية من مسؤولية الباب العالي وحده وإن دور روسيا يقتصر فقط على مراقبة تنفيذ تلك الحماية وفقاً لمعاهدة قينارجة[٨١]. ولما كان هذا العرض يتعارض مع السياسة الروسية على الأرض، فقد رفض من جانب بريطانيا، بل إن مجلس الوزراء البريطاني أمر كاننغ بعد أسبوعين (٨ ت١) باستدعاء الأسطول البريطاني الراسي في خليج بزيكا إلى استانبول. وكانت هذه خطوة دافعة نحو الحرب، وفي الوقت ذاته كان الجناح المؤيد للحرب قد تسلم مقاليد الأمور في العاصمة العثمانية[٨٢].

— ٤ —

الحرب الروسية ــ العثمانية

● حملة الدانوب:

كانت أول ردة فعل عثمانية على فشل مبادرات السلام هو الانذار الذي وجهه الباب العالي لروسيا بإخلاء ولايتي الدانوب خلال خمسة عشرة يوماً، وموافقة الديوان العثماني على إعلان الحرب (٢٧ أيلول) ودعوة القيصر نيقولا شعبه (٣٠ أيلول) إلى حرب صليبية ضد الدولة العثمانية[٨٣]. وفي اليوم التالي لاعلان الحرب دعا الباب العالي أساطيل بريطانيا وفرنسا لعبور البسفور، وهو ما حصل وسط احتجاج روسيا. وفي ٤ ت ١ أعلنت الدولة العثمانية الحرب رسمياً على روسيا وبدأت قواتها بمهاجمة المواقع الروسية عبر نهر الدانوب، واضعة بذلك بريطانيا وفرنسا أمام الأمر الواقع. لكن تدمير الأسطول الروسي لوحدة بحرية عثمانية صغيرة قرب سينوب (٣٠ ت ٢ ١٨٥٣) كان كافياً لأن يعجل بعبور الأسطولان البريطاني والفرنسي للمرات إلى البحر الأسود (٤ ك ٢ ١٨٥٤)[٨٤].

وفي تطور دراماتيكي شهد شهرا شباط وآذار ١٨٥٤ الأحداث التالية:

ــ ٦ شباط قطعت روسيا العلاقات الدبلوماسية مع كل من بريطانيا وفرنسا.

ــ ٢٧ شباط انذار بريطاني فرنسي لروسيا بإخلاء ولايتي الدانوب.

ــ ١٢ آذار وقعت بريطانيا وفرنسا اتفاقية مع الدولة العثمانية تتعهدان فيها بدعمها.

ـ ٢٣ آذار، جيش روسي يعبر الدانوب ويحقق انتصاراً ساحقاً على الجيش العثماني عند سيلستريا.

ـ ٢٨ آذار بريطانيا وفرنسا تعلنان الحرب على روسيا.

وبعد أقل من أسبوعين لاعلانهما الحرب وقعت بريطانيا وفرنسا اتفاقية للتعاون العسكري بينهما (١٠ نيسان). وكانت كلتا الدولتين قد وقعتا اتفاقية مع النمسا وبروسيا للحفاظ على سيادة الامبراطورية العثمانية (آذار ١٨٥٤). أما بروسيا والنمسا فتوصلتا في ٢٠ نيسان إلى معاهدة دفاعية مشتركة موجهة ضد روسيا[٨٥]. إذن تقوي مركز النمسا السياسي والعسكري نتيجة تلك الاتفاقات والتي توجت بإنذارها لروسيا رسمياً بإخلاء ولايتي الدانوب (٣ حزيران) وبالمعاهدة التي وقعتها مع الدولة العثمانية لاجلاء روسيا عن ولايتي الدانوب واحلال قواتها «**مؤقتاً**» محلها (١٤ حزيران)[٨٦].

ولاعتبارات عسكرية وبناء على نصيحة ملك بروسيا، اضطرت روسيا للرضوخ للتهديد النمساوي وأنهت انسحابها من ولايتي الدانوب عند نهاية آب[٨٧]. وقبل ذلك تصاعدت العمليات العسكرية بعدما تمركزت قوات الحلفاء في غاليبولي وفي مرفأ بيروس باليونان[٨٨].

وبانسحاب الجيش الروسي من ولايتي الدانوب ودخول القوات النمساوية محلها تغير مجرى الحرب. فتهديد روسيا لسيادة الدولة العثمانية انتهى، وأصبحت الولايتان الدانوبيتان بعهدة دولة خليفة للسلطان. ومع ذلك فلم تتوقف الحرب، بل ان الحلفاء نقلوا عملياتهم العسكرية إلى القرم لضرب قوة روسيا الحربية في البحر الأسود، مما كان يتناسب مع استراتيجيتهم المتوسطية وبشكل خاص المصالح البريطانية[٨٩]. ففي تموز ١٨٥٤ نزل حوالي خمسون ألف جندي بريطاني وفرنسي وعثماني في خليج أوباتوريا (Eupatoria) شمالي سباستبول (Sebastopol). وبذلك بدأت حرب القرم الحقيقية. ولهذا ستدعي الدول المتحالفة بأنها لا تخوض الحرب ضد روسيا لأجل مصالحها الخاصة، بل لأجل سلامة أوروبا جمعاء. ولهذا أيضاً سعى الحلفاء للحصول على مؤيدين لهم ولايجاد «تجانس» أوروبي ضد روسيا (Anti-Russian «Concert of Europe») مشابه للتجانس الأوروبي الذي حدث عند نهاية الحروب النابوليونية[٩٠].

● حرب القرم و «مذكرة الضمانات الأربعة»:

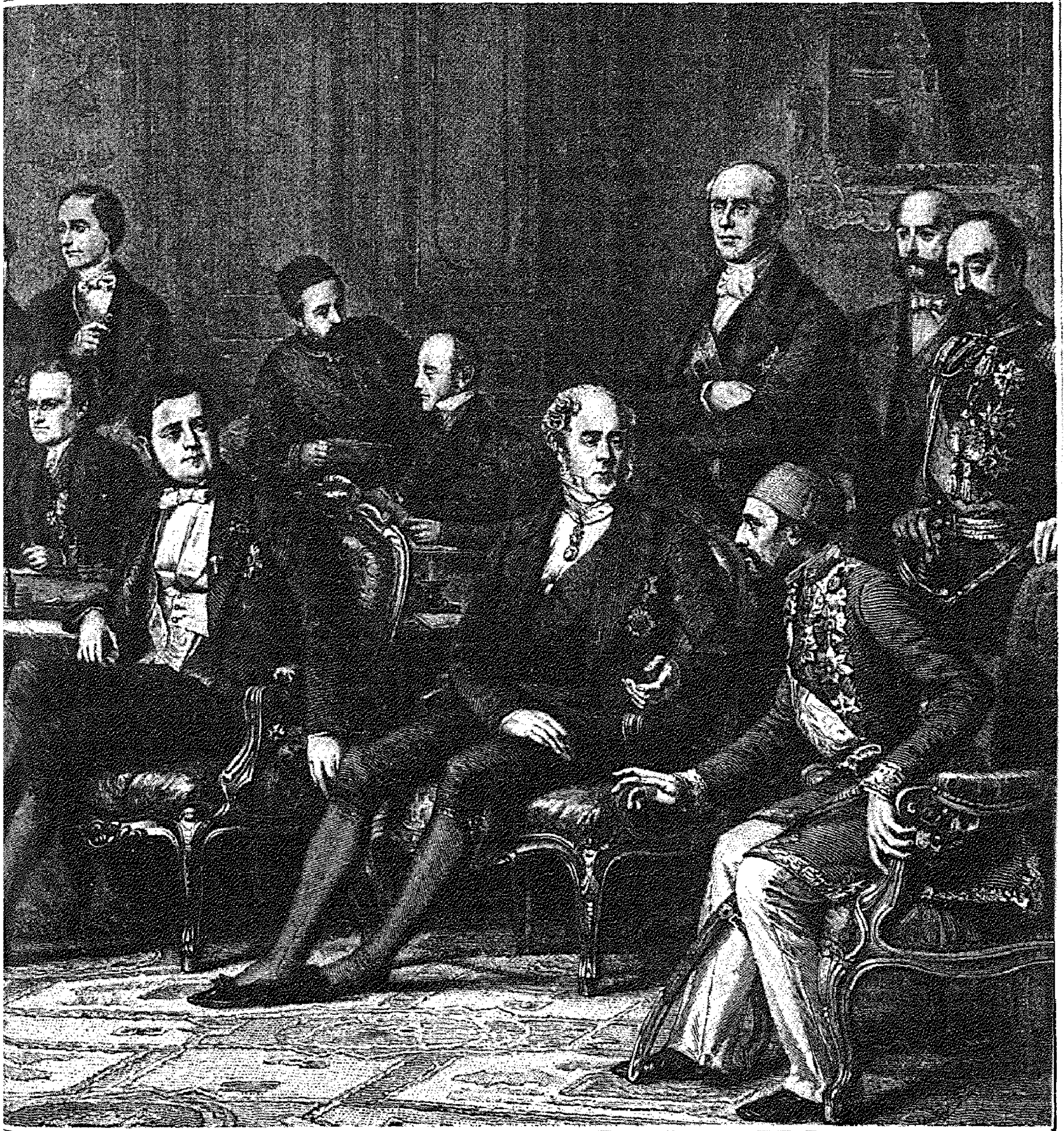
يعتبر انسحاب روسيا من ولايتي الدانوب وحلول القوات النمساوية محلها بهدف عدم ترك المنطقة تقع تحت سيطرة قوات الحلفاء نصراً دبلوماسياً باهراً للنمسا[٩١]، ولكن بثمن باهظ، هو العداء مع روسيا واحتمال تورطها معها في حرب تخوضها منفردة دون مساعدة الحلفاء. ولهذه الأسباب رأت النمسا أن تؤمن لنفسها تغطية سياسية وعسكرية ممايحرم روسيا من أية فرصة للانفراد بها. وكانت النمسا تدرك أن مقدار تقربها إلى الحلفاء كفيل بأن يجعل روسيا تسارع للقبول بتسوية سلمية للأزمة وفقاً للشروط التي تلائم سياسة ومصالح الأولى. وبناء على اقتراح من نابليون الثالث تقدمت النمسا وبريطانيا وفرنسا بمذكرة عرفت بـ «**مذكرة الضمانات الأربعة**»، الهدف منها انهاء الحرب وفقاً لمصالح تلك الدول. ونص البند الأول من المذكرة بأن تستبدل الحماية الروسية على ولايتي الدانوب والصرب بضمان أوروبي بموافقة الباب العالي. أما البند الثاني فكان يتعلق بحرية الملاحة في نهر الدانوب دون أية عوائق. وفي البند الثالث قررت الدول إعادة النظر باتفاقية الممرات لصالح التوازن الأوروبي وتحديد قوة الأسطول الروسي في البحر الأسود. وأخيراً تقرر في البند الرابع تخلي روسيا عن ادعاءاتها بحماية رعايا السلطان الأرثوذكس، على أن يقوم الباب العالي بتحسين أحوال هؤلاء دون المساس بسيادته[٩٢].

وسلمت المذكرة إلى الحكومتين العثمانية والروسية. ففي استانبول أحدثت المذكرة انقساماً في الديوان. لكن كاننغ نصح السلطان بقبولها. وعندما تسلم السفير الروسي في فيينا المذكرة رفضها لانتقاصها من كرامة وشرف بلده. كما عارضها نسلرود وخصوصاً بندها الثالث الذي نص على إعادة النظر باتفاقية الممرات لصالح «**التوازن الأوروبي**». واعتبر

نسلرود أن هذا النص «**ينسف كل المعاهدات السابقة ويدمر منشئات الأسطول الروسي في البحر الأسود ويحدد قوته هناك**»[٩٣]. ولهذا رفضت روسيا المذكرة لأنها «**لا تشجع على السلام في أوروبا، بل تبقيه بعيداً عنها**»[٩٤].

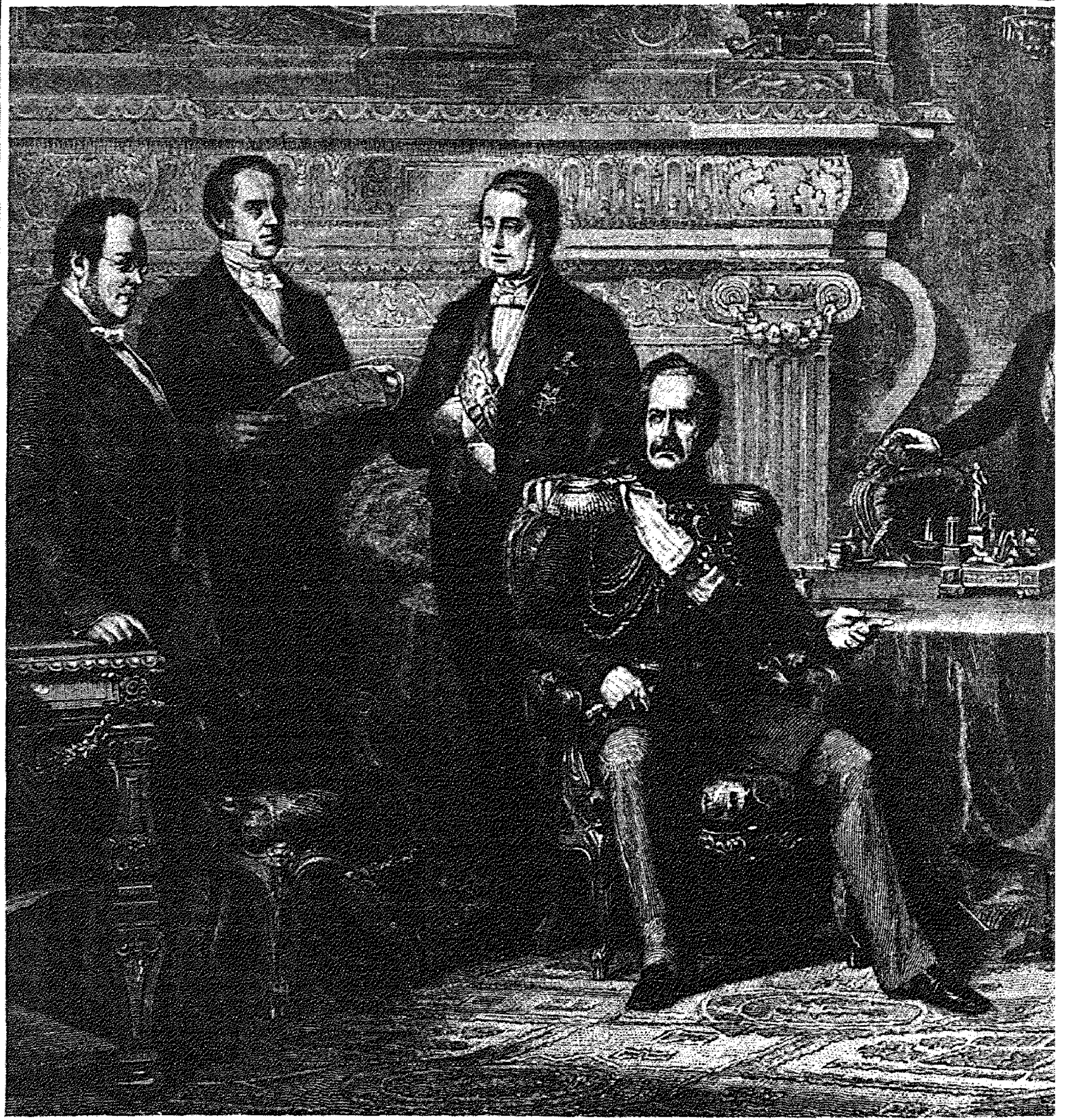
وبرفض روسيا للمذكرة شدد الحلفاء من عملياتهم العسكرية في القرم ودحروا القوات الروسية عند علما (أيلول ١٨٥٤) وضربوا الحصار على سباستبول واستولوا على انكرمان (ت ٢ ١٨٥٤) ولكن هذا لم ينه الحرب، مما دفع النمسا إلى توقيع اتفاقية تحالف مع بريطانيا وفرنسا على أساس الضمانات الأربعة (٢ ك ١٨٥٥) مقابل اعتراف الحلفاء بمركزها في إيطاليا[٩٥]. أما بروسيا ففضلت البقاء بعيداً عن

□ مؤتمر باريس ١٨٥٦ والوفود المشاركة.



التحالف الجديد[٩٦].

ولم تنه المعارك الضارية ولا انضمام سردينيا إلى الحلفاء (٢٦ ك ٢ ١٨٥٥) ولا صعود القيصر الكسندر إلى عرش روسيا بعد وفاة القيصر نيقولا (٢ آذار ١٨٥٥) حرب القرم. فبسبب رفض روسيا للبند الثالث من الضمانات الأربعة المتعلق بتحجيمها في البحر الأسود، شدد الحلفاء من حصارهم لسباستبول، في الوقت الذي ظلت مشاركة النمسا في الحلف اسمية إذ انها لم تكن على استعداد لدخول حرب ضد روسيا لغرض تفسير البند المتعلق بتحديد قوة تلك الدولة في البحر الأسود[٩٧]، بل ان النمسا وعدت القيصر بعدم التوقيع على معاهدة تكون مذلة لبلاده[٩٨]. ومن الواضح أن تشدد النمسا تجاه روسيا قد خف بعض الشيء بعد زوال الخطر الروسي على ولايتي الدانوب. وفي ٨ ك ١ سقطت سباستبول



بيد الحلفاء بعد حصار دام ٣٤٩ يوماً. وقبل ذلك بقليل (٢٨ ت ٢) كانت قارس قد سقطت بيد الروس. وكان سقوط سباستبول نقطة حاسمة في مجرى الحرب وفي مواقف الحلفاء تجاه روسيا. فرغم تذمر الرأي العام عندها من مواصلة الحرب ظلت الحكومة البريطانية على تشددها، خاصة ان بالمرستون هو الذي كان يرأس الحكومة البريطانية بعد ابردين في بداية ١٨٥٥. وكان بالمرستون يرى ضرورة الاستمرار في إزلال روسيا حتى انهاكها[٩٩]، في حين اتخذت فرنسا موقفاً مغايراً للموقف البريطاني. فبعدما حقق نابوليون ما كان يريده من الحرب، من مجد وتمزيق للتكتل الروسي ـ النمساوي ـ البروسي، لم يعد على استعداد لمواصلة الحرب لأجل مصالح بريطانيا، واعتبر أن سقوط سباستبول النقطة التي يجب أن تتبعها المفاوضات. ولهذا أخذ يسعى لأجل السلام مع روسيا مهدداً بريطانيا باثارة المسألة البولندية إذا لم توقف الحرب[١٠٠]. وعندما علمت النمسا أن وفاقاً فرنسياً روسياً تحاك خيوطه في الخفاء، سارعت إلى توجيه انذاراً لروسيا (ك ١ ١٨٥٥) بتنفيذ الضمانات الأربعة كما فسرها الحلفاء. وكانت النمسا تدرك أن روسيا قد استنزفت تماماً وستقبل انذارها لا محالة. وصحت تلك التوقعات عندما أذعن القيصر الكسندر للانذار بناء على نصيحة ملك بروسيا، وأصبحت بذلك الطريق بباريس إلى مؤتمر الصلح سالكة. وانتهت بذلك حرب القرم رسمياً (أول شباط ١٨٥٦) بعدما كلفت أوروبا الخسائر البشرية والمادية الفادحة[١٠١].

ـ ٥ ـ

معاهدة باريس ٢٧ نيسان ١٨٥٦

تعتبر معاهدة باريس انتصار للسياسة البريطانية والفرنسية في المحافظة على السيادة العثمانية. فقد وضعت المعاهدة الدولة العثمانية واستقلالها تحت الضمانة الجماعية للدول الموقعة عليها، بعدما تعهدت تلك الدول بعدم التدخل منفردة أو مجتمعة بشؤون الدولة العثمانية الداخلية. كذلك سمحت المعاهدة للدولة العثمانية بالانضمام إلى «**التجانس الأوروبي**»[١٠٢]، مقابل المرسوم العثماني الذي كان قد صدر قبل قليل (خط همايون ١٨ شباط ١٨٥٦) ووعد فيه السلطان بتحسن أحوال رعاياه المسيحيين والقيام بإصلاحات اقتصادية وضريبية والقضاء على الفساد[١٠٣].

ولعل أهم ما تضمنته معاهدة باريس ما تعلق بتحييد البحر الأسود وجعله مفتوحاً للملاحة التجارية لجميع الدول وإقفاله بوجه السفن الحربية. كذلك جعلت الملاحة في مصب الدانوب بإشراف لجنة دولية[١٠٤]. وفيما يتعلق بولايتي الدانوب (ملدافيا وولاشيا) فقد حررتا من الوصاية الروسية ومنحتا الاستقلال تحت السيادة العثمانية، بعدما ضمت إلى ملدافيا جزءً من بسارابيا[١٠٥]. كذلك استعادت الدولة العثمانية سيطرتها على قارس. وفي معاهدة منفصلة تعهدت بريطانيا وفرنسا والنمسا باحترام سيادة الدولة العثمانية واستقلالها والدفاع عنها.

وحول حرب القرم وأهمية معاهدة باريس لا بد من ملاحظة الاعتبارات الآتية فيما يتعلق بالدولة العثمانية وبقية الدول الأوروبية الأخرى. فبالنسبة للدولة العثمانية كانت معاهدة باريس أول معاهدة لا توقعها الدولة العثمانية بصفتها دولة مهزومة. وضمنت المعاهدة لها حياد البحر الأسود وهدوءً بالنسبة للمرات بعدما تلاشى الخطر الروسي عنها للخمسة عشرة سنة القادمة، بعدما دمرت قوة روسيا الحربية في البحر الأسود. لكن حرب القرم أوقعت الدولة العثمانية بضائقة مالية جعلتها تستدين للمرة الأولى في تاريخها (١٨٥٤) وكانت هذه نقطة انطلاق في سياسة الاستدان أفسحت المجال للامبريالية المالية الأوروبية باحكام سيطرتها على البلاد[١٠٦].

ومن ناحية النمسا، فقد أنهت حرب القرم سياسة الوفاق التي سارت عليها تجاه روسيا منذ ١٨٣٣ وحكمت على نفسها بعزلة أضعفتها. وفيما يتعلق ببروسيا فقد سببت حرب القرم ومعاهدة باريس شعوراً بالانتقام من بريطانيا والنمسا وكشفت عن خلل البنية التحية عندها. ولهذا استجابت روسيا إلى التقارب الفرنسي إليها، الذي كان قد بدأ خلال مؤتمر الصلح. وفي

السنوات التالية التي أعقبت حرب القرم قامت روسيـا بسلسلة من الاصـلاحـات الاداريـة والاقتصادية والاجتماعية وتنـظيم النقل(١٠٧). ولما كانت معاهدة باريس قد حطمت ثلاثة من المعالم الرئيسية للسياسة الروسية الخارجية مع الدولة العثمانية: السيطرة العسكرية والتجارية على البحر الأسود ــ تأمين مخرج من الممرات إلى المتـوسط ــ اعتـراف الدولة العثمـانيـة بالحماية الروسية على الأرثوذكس من رعاياها، فقد اعتبرتها روسيا مسألة تمس بـ «**الكرامة الوطنية**» ونظرت إليها مجرد هدنة مؤقتة(١٠٨) ولهذا سعت روسيا في السنوات التالية لاقتناص أية مناسبة دولية لتحطيم تلك المعاهدة وقد تم لها ذلك في ١٨٧١ وكانت مقدمة للحرب الروسيـة العثمانية ١٨٧٧/١٨٧٨، وهي التي سنختتم بها هذه الدراسة. ●

الهـــوامش

(١) في مقدمة هؤلاء المؤرخين: هـ. ا. ل. فيشر: تاريخ أوروبا في العصر الحديث (١٧٨٩ ــ ١٩٥٠). تعريب أحمد نجيب هاشم ووديع الضبع، الطبعة السادسة، القاهرة (ب ت)، الفصل ١٦، ص ٢١٧ ــ ٢٢٧.

— Verdy du Vernois: Die Frage der Heiligen Staetten Paläestinas, Berlin 1901; Felix Bamberg: Geschichte der orientalischen Angelegenheit im Zeitraume des Pariser und des Berliner Friedens, Berlin 1892; Edouard Driault: La question d'Orient depuis ses origines jusqu'a la Paix de Sèvres, Paris 1921.

(٢) من هؤلاء المؤرخين:

— Vernon John Puryear: England, Russia, and the Straits Question, 1844-1856, California 1935, reissued Connecticut 1965; L. S. Stavrianos: The Balkan since 1453, N.Y./London 1958, pp. 319-323; G. D. Clayton: Britain and the Eastern Question: Missonlonghi to Gallipoli, London 1971, pp. 90-92; Winfried Baumgart: Vom Europaeischen Konzert zum Voelkerbund. Friedenschluesse und Friedenssicherung von Wien bis Versailles, Darmstadt 1974, p. 45; Weltgeschichte in Zehnbaenden, Redaktion: J. J. Sutis, Vol. VI, p. 502.

ــ موسوعة «تاريخ العالم» الروسية المترجمة إلى اللغة الألمانية.

(٣) لمزيد من المعلومات، انظر:

— F.E. Bailey: British Policy and the Turkish Reform Movement, Cambridge, Mass. 1942.

(٤) — Jean Ducruet: Les capitaux européens au Proche-Orient, Paris, p. 80 ff.

(٥) راجع: Baumgart, op.cit., p. 32.

(٦) — M. Anderson: The Eastern Question, 1774-1923, London 1966, pp. 7-8, 60; Puryear, op.cit., 85, 88, 96ff, 102, 105-106.

(٧) انظر: Puryear, op.cit., p. 123.

(٨) راجع: Puryear, p. 127-128, 136; Clayton, p. 90-91, D.C.M. Platt: Finance, Trade, and Politics in British Foreign Policy 1815-1914, oxford 1968, p. 184.

(٩) انظر بيير رنوفان: تاريخ العلاقات الدولية، (القرن التاسع عشر ١٨١٥ ــ ١٩١٤)، ترجمة جلال يحيـى، القاهرة ١٩٨٠، ص ٣١٠.

— Clayton, p. 91-92; Stavrianos, p. 320-321.

(١٠) انظر: Puryear, p. 89, 125.

(١١) راجع:

— Stavrianos, p. 213; Puryear, p. 89-91, 128; Iwan Kirchner: Der Nahe Osten. Der Kampf um Vorderasien und Aegypten vom Mittelalter bis zur Gegenwart, Bruenn/Muenchen/Wien 1943, p. 398-399; F. Eichmann: Die Reformen des Osmanischen Reiches mit besonderer Berueksichtigung des Verhaeltnisses der Christen des Orients zur tuerkischen Herrschaft, Berlin 1858, p. 145-146.

ولتفاصيل وافرة عن تضاب مصالح الدولتين، انظر:

— Firuz Kazemzadeh: Russia and Britain in Persia, 1964-1914: A Study in Imperialism, New Haven / London, 1968.

(١٢) Platt, op. cit., p. 182-183.

(١٣) قارن: بيير رنوفان، ص ٣١٠، و Clayton, p. 90.

(١٤) قارن:

— Handbuch der Europaeischen Geschichte, edited by Theodor Schieder, Vol. 5, Europa von

der Franzoesischen Revolution zu den nationalistaatlichen Bewegungen des 19. Jahrhunderts, Stuttgart 1981, p. 53; Puryear, p. 127.

ـ وانظر ايضاً تصريح ستراتفورد كاننغ حول اهمية تركيا التجارية والاستراتيجية لبريطانيا لدى Platt, op.cit, p. 182.

(١٥) — Chevallier (D): La société du Mont-Liban à l'epoque de la révolution industrielle en Europe, Paris 1971, p. 183; Handels-Archiv, Berlin 1854/II, Gesetzebung, p. 151.

(١٦) Baumgart, op. cit., p. 41; Puryear, p. 83, 131-135.

(١٧) انظر الفصل الرابع من كتاب Puryear, pp. 139-180:

ـ وقارن ايضاً الجزء الأول من كتاب: ا. ج. جرانت وهارولد تمبرلي: أوروبا في القرنين التاسع عشر والعشرين، ١٧٨٩ ـ ١٩٥٠، ترجمة بهاء فهمي، القاهرة (ب ت)، ص ٤١٧.

(١٨) — Sydney Nettleton Fischer: The Middle East. A History, London, 2 ed., Edition 1971, p. 303.

(١٩) Verdy du Vernois, op. cit., p. 24.

(٢٠) حول مكانة الكنيسة الأرثوذكسية بين الكنائس الشرقية، انظر: كارل بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية، ترجمة نبيه أمين فارس ومنير بعلبكي، ط ٨، بيروت ١٩٧٩، ص ٥٦٧ـ وفيما ذكر بروكلمان أن عدد المسيحيين الأرثوذكس من رعايا السلطان قبل حرب القرن بلغ عشرة ملايين، ترى مصادر أخرى أن عددهم بلغ ١٢ ـ ١٣ مليوناً. انظر:

— Driault, op. cit., p. 172; Eichmann, p. 78; Edward S. Creasy: History of the Ottoman Turks: From the Beinning of their Empire to hte Present Time, London 1878, Reprint Beirut 1961, p. 537.

(٢١) حول هذه النقطة راجع الدراسة الممتازة لـ:

— Joseph Lammeyer: Das franzoesische Protektorat ueber die Christen im Orient, historisch, rechtlich und politisch gewuerdigt. Ein Beitrag zur Geschichte der diplomatischen Beziehungen der Hohen Pforte, Borna-Leipzig 1919, pp. 35-52, 58; Eichmann, 109ff.

(٢٢) Verdy du Vernois, op. cit., p. 58f.

(٢٣) — Christophilos Alethes: Die Lage der Christen in der Tuerkei und das russiche Protectorat, Berlin 1954, p. 80; Eichmann, p. 50.

(٢٤) تفاصيل وافية حول تطور نفوذ روسيا الديني لدى: Verdy du Vernois, pp. 59-62.

(٢٥) انظر: محمد مصطفى صفوت: المسألة الشرقية ومؤتمر باريس، القاهرة ١٩٥٨، ص ٢٩.

(٢٦) — Derek Hopwood TheRussian Presence in Syria and Palestine 1843-1914. Church and Politics in the Near East, Oxford 1969, cap. II, pp. 33-45.

(٢٧) — J. Hajjar: Le Christianisme en Orient. Etudes d'Histoire Contemporaine 1684-1968, Beyrouth 1971, p. 103; Fisher, op. cit., p. 303.

(٢٨) صفوت، المسألة الشرقية، ص ٢٩.

(٢٩) Driault, op. cit., p. 167; Stavrianos, p. 324.

(٣٠) — Driault, 167f; G. Rosen: Geschichte der Tuerkei von dem Siege der Reformen im Jahre 1826 bis zum pariser Tractat vom Jahre 1956, vol. II, p. 141, 143f.; Vernois, 63; H. Temperley: England and the Near East. The Crimea, London 1964, p. 286; Carl Ritter von Sax: Geschichte des Machtverfalls der Tuerkei bis Ende des 19. Jahrhunderts und die Phasen der «orientalischen Frage» bis auf die Gegenwart, Wien 1908, p. 319.

(٣١) انظر: — Anderson, op.cit., p. 117; Sax, p. 320; Vernois 65f.; Clayton, p. 104; Eichmann, p. 130.

(٣٢) Anderson, p. 117f.

(٣٣) Clayton, p. 101.

(٣٤) — Barbara Jelavich: A Century of Russian Foreign Policy 1814-1914, Philadelphia/N.Y. 1964, p. 115; Driault, p. 170f.; Alethes, op.cit., p. 80, 82.

(٣٥) نقلاً عن:

— E.C. Vulliamy: The Crimea. The Campaign of 1854-1856, London 1939, p. 52.

(٣٦) نقلاً عن: صفوت، المرجع السابق، ص ٢٧.

(٣٧) راجع: Creasy, op.cit., p. 534-535; Driault, p. 170f.

(٣٨) انظر: Stavrianos, p. 325.

(٣٩) نقلاً عن: Rosen, Vol. II, p. 159; Sax, p. 324f.

(٤٠) Stavrianos, p. 325f.

(٤١) Sax, pp. 322-324; Rosen II, 160-164.

(٤٢) من أهم هذه المصادر: Puryear, p. 206f; Baumgart, p. 36; Rosen II, 156; Clayton 105; Sax 325. —
— وموسوعة «تاريخ العالم» الروسية، ج ٦، ص ٥٠٣.

(٤٣) راجع: موسوعة «تاريخ العالم» الروسية، ج ٦، ص ٥٠٨ — ٥٠٩، والموسوعة العسكرية، ج ١، بيروت ١٩٨١، ص ٧٥٢.
— Jelavich, op. cit., p. 119

(٤٤) انظر: Bamberg, op.cit., p. 52.

(٤٥) Temperley, p. 306.

(٤٦) Eichmann, p. 165.

(٤٧) انظر: صفوت، ص ٣٢.
Puryear, p. 236 ، والهامش؛ Bamberg, p. 54.

(٤٨) Bamberg, p. 56, 58f.

(٤٩) انظر: قطف الزهور في تاريخ الدهور، مجهول المؤلف، (ب ت)، ص ٢٩٨. و
— Kirchner, op. cit., p. 400.

(٥٠) — Temperley, pp. 310-313; Bamberg, 62; Eichmann, p. 147; Rosen, II, 155.

(٥١) انظر: Puryear, p. 232، والهامش رقم ١٢٣.

(٥٢) Anderson, p. 121.

(٥٣) نقلاً عن المرجع السابق، ص ١١٩.

(٥٤) تمبرلي، جرانت: ص ٤٢٢ — ٤٢٣؛ وفيشر: تاريخ أوروبا في العصر الحديث، ص ٢٢٠.

(٥٥) نقلاً عن: Stavrianos, p. 327.

(٥٦) — R.A.J. Marriott: The Eastern Question, An Historical Study in the European Diplomacy, Oxford 1917, p. 231; Eichmann, p. 149.

(٥٧) انظر:
— Der tussisch-tuerkische Krieg und der Kriegschauplatz in politischer, öertlicher und militaerischer Beziehung, Pest/Wien/Miepzig 1854, p. 125.
— وقارن، عمر عبدالعزيز عمر: محاضرات في التاريخ المعاصر (١) (أوروبا ١٨١٥ — ١٩١٩)، بيروت، ١٩٦٧، ص ٧٦ — ٧٧.

(٥٨) انظر: صفوت، ص ٢٣ حول تفاصيل وافرة عن فحوى إنذارات منشيكوف إلى الباب العالي.
راجع: Eichmann, p. 151-153.

(٥٩) عمر عبدالعزيز عمر، ص ٧٧.

(٦٠) نقلاً عن المرجع السابق، ص ٧٧.

(٦١) Der russisch-tuerkische Krieg, p. 124f.

(٦٢) Rosen II, p. 180.

(٦٣) Anderson, p. 124.

(٦٤) Sax, p. 329.

(٦٥) نقلاً عن: Anderson, 124; Bamberg, 68.

(٦٦) Das russisch-tuerkische Krieg, p. 126; Eichmann 179.

(٦٧) — Das russichsch-tuerkische Krieg, p. 126; Marriott, op. cit., p. 232.

(٦٨) انظر موسوعة «تاريخ العالم» الروسية، ج ٦، ص ٥٠٢.

(٦٩) بيير رنوفان: تاريخ العلاقات الدولية، ص ٣٠٩.

(٧٠) المرجع السابق، ص ٣١٢.

(٧١) نقلاً عن: C. Phillipson, N. Buxton: The Question of the Bosphorus and Dardanelles, London 1917, p. 86. —

(٧٢) — Kirchner, op.cit., p. 401; Driault, p. 173; Jelàvich, op. cit., p. 118.

(٧٣) نقلاً عن: Bamberg, p. 87; Sax, p. 337f.

(٧٤) انظر بيتر رونوفان، ص ٣١٤.
— Sax, p. 337f; Anderson, 125.

(٧٥) راجع صفوت، ص ٤٦.
— Baumgart, p. 51.

(٧٦) Jelavich, p. 121f.

(٧٧) Baumgart, p. 39f.

وقارن أيضاً صفوت، ص ٤٦.

(٧٨) نقلاً عن:

— Bamberg, p. 76; Russisch-Tuerkische Krieg, p. 127f.; Eichmann, p. 190f.

(٧٩) نقلاً عن: Marriott, p. 233.

(٨٠) انظر:

— Eichmann, p. 194, 196-197; Handbuch der EuropaeischenGeschichte, vol. V, p. 672; Fischer, op.cit., p. 304;

— فيشر: تاريخ اوروبا الحديث، ص ٢٢١.

(٨١) انظر: Sax, p. 330; Stavrianos, p. 329f.; Rosen II, p. 187f.

(٨٢) Fischer, p. 304; Stavrianos, p. 330.

(٨٣) راجع: Alethes, op.cit., p. 9; Rosen II, p. 193.

(٨٤) Anderson, p. 129f.;

— ويرى (Temperley) أن الوصف «مذبحة سينوب» الذي أطلقته الصحافة الانكليزية على إغراق الأسطول العثماني من قبل الأسطول الروسي لا يتماشى مع الواقع، إذ أن العثمانيين قاموا بسلسلة من العمليات العسكرية عند الدانوب وفي آسيا دون إعلان للحرب وإن ردة الفعل الروسية في سينوب كانت متوقعة، p. 371.

(٨٥) Jelavich, p. 121f.; Rosen II, p. 208; Sax, p. 334.

(٨٦) Bamberg, p. 110; Rosen II, p. 210.

(٨٧) Anderson, p. 132f.

(٨٨) Vulliamy, p. 76f.

(٨٩) — Paul Haury: Exposé simple et clair de la question d'Orient 1770-1915, Paris 2 ed., 1968, p. 24;

— وايضاً موسوعة «تاريخ العالم» الروسية، ج ٦، ص ٥٠٣.

(٩٠) Stavrianos, p. 332;

— وقارن: Baumgart, p. 36.

(٩١) Driault, p. 175.

(٩٢) انظر: Bamberg, p. 113f.

(٩٣) نقلاً عن المرجع السابق: Bamberg, p. 114.

(٩٤) المرجع السابق: Bamberg, p. 114.

(٩٥) انظر: بيير رنوفان، ص ٢١٧.

(٩٦) Sax, p. 337.

(٩٧) صفوت، المسألة الشرقية، ص ٤٧.

(٩٨) Puryear, p. 367f.

(٩٩) انظر: صفوت، ص ٤٨.

(١٠٠) فيشر، ص ٢٢٥.

(١٠١) راجع مجلة «الجنان» البيروتية»، ١٨٧٠، عدد ٧ ص ٣٠٩ — ٣١٠.

— Vulliamy, p. 341f.

(١٠٢) Jelavich, p. 130; Eichmann, p. 210.

(١٠٣) — J.C. Hurewitz: The Middle East and North Africa in World Politics; A Documentary Record, Vol. I, European Expansion, 1535-1914, 2 ed., London 1975, pp. 315-318.

(١٠٤) حول تحييد البحر الأسود، انظر بندي المعاهدة XI و XIII في المرجع السابق، ص ٣٢٠ — ٣٢١؛ فيما يتعلق بالملاحة في نهر الدانوب، انظر بندي المعاهدة XV و XIX عن:

— Driault, op. cit., p. 183.

(١٠٥) انظر بندي المعاهدة XX و XXIX عند .Driault, p. 381

(١٠٦) راجع: Ducruet.

(١٠٧) انظر:

— Handbuch der Europaeischen Geschichte, op. cit., Vol. 5, p. 673.

(١٠٨) انظر: Jelavich, op. cit., p. 130.

أهداف قسم إحياء التراث الاسلامي في بيت المقدس

يتطلع القسم إلى عدة اهداف منها:

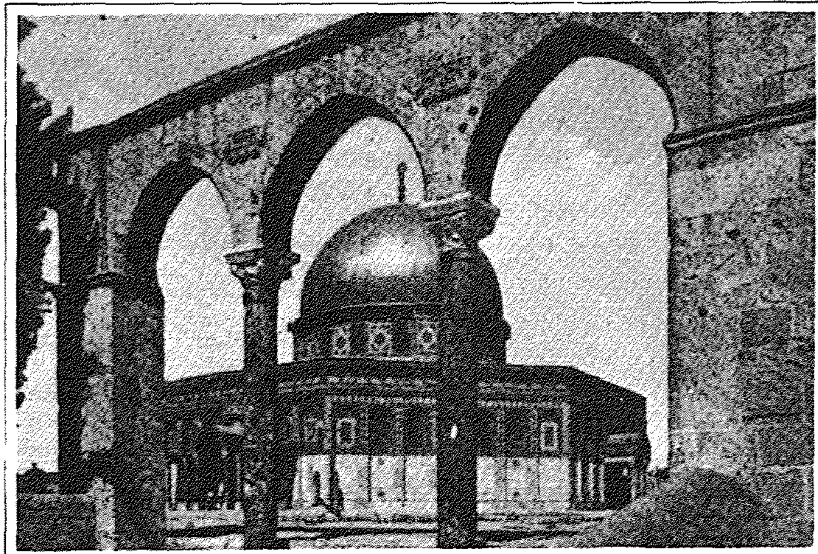
● لما كانت دائرة الأوقاف الاسلامية في القدس الشريف تشتمل على مخلفات العهد التركي والمجلس الاسلامي الأعلى في فلسطين من بيانات ووثائق هامة، وهي نهب للرطوبة والأرَضَة ، فإن هدف القسم إنقاذ هذه الوثائق وخدمتها ليستفيد الباحثون بها. وقد بدأ القسم بتصنيفها وفهرستها وحفظها في ظروف جيدة. وتم حتى الآن فهرسة حوالي مليون ومائة وعشرين ألف وثيقة.

وتجري الآن عملية تصنيف وفهرسة مجموعة من الوثائق، وجدت في أحد القباب في ساحة الحرم القدسي الشريف. وقد طبع المركز فهرساً أولياً لهذه الوثائق.

● يعمل القسم على تشجيع الباحثين والدارسين المتخصصين من أجل إعداد بعض دراسات التراث الهادفة، وتحقيق عدد من النصوص، وقد قام بعض الباحثين بعدد من الدراسات المهتمة بتراث القدس وفلسطين ومنها:

— وقفية أمينة الخالدي.

— وقفية خاصكي سلطان.



— مخطوط «الخمرة الحسية في الرحلة القدسية» للبكري الصديقي.

— مخطوط «الدّرة في الاعتقاد» لابن حزم.

— مخطوط «فلسطين وحدودها» للتمرتاش.

— مخطوط «فضائل زيارة بيتت المقدس» لابن تيمية.

● يعمل القسم في تصوير سجلات المحكمة الشرعية في القدس، والتي تصل إلى نحو ألف سجل، لما لها من فوائد كثيرة تفيد الباحثين والدارسين في تراث بيت المقدس والمدن الفلسطينية، خاصة في الجوانب العلمية والثقافية والاجتماعية والاقتصادية. وسيعمل القسم بعد الانتهاء من التصوير في فهرسة موضوعات هذه السجلات بهدف تسهيل الاستفادة منها، ومساعدة الباحثين في معرفة تاريخ وحضارة بيت المقدس ومدن الأرض المحتلة في فلسطين، كما أن تصويرها يحفظها من الأرضة أو الضياع.

● يتطلع القسم إلى ترميم وصيانة مخطوطات حصل عليها من مدن مختلفة في فلسطين المحتلة، للحفاظ عليها خاصة أنها تعاني من الرطوبة والأرضة، كما يتطلع إلى تصوير الف مخطوط موجودة لديه الآن (إهداءات).

ومن أصحاب الأيادي البيضاء الذين أوقفوا مقتنياتهم من المخطوطات:

— محمد مزيد العجلوني: أوقف (٦٧) سبعة وستين مخطوطاً للقسم.

— آل العفيفي: تبرعوا بمكتبة عائلتهم التي تحتوي على (٥٠) خمسين كتاباً تراثياً

مطبوعاً و (٢٠) عشرين مخطوطاً.

هذا ويخلو القسم من مكتبة خاصة به بسبب ضعف الامكانات.

معهد التراث العلمي العربي في جامعة حلب يعقد مؤتمره التاسع لتاريخ العلوم عند العرب

● **الاحتفال بالذكرى الألفية لوفاة العالم العربي الرّقي أبي عبدالله البتاني**

يعقد معهد التراث العلمي العربي بجامعة حلب في الرابع والعشرين من إبريل (نيسان) الجاري ولمدة يومين، مؤتمره السنوي التاسع لتاريخ العلوم عند العرب، كما يحتفل بذكرى مرور عشرة قرون على وفاة العالم العربي الرّقي أبي عبدالله البتاني.

يهدف المؤتمر إلى تقديم أبحاث أصيلة، لم تنشر سابقا في موضوعات تاريخ العلوم والطب والتكنولوجيا عند العرب وذلك تمشيا مع أهداف معهد التراث والجمعية السورية لتاريخ العلوم (المشاركة في المؤتمر) للنهوض بالأبحاث المتعلقة بتاريخ العلوم، والقيام بالدراسات والبحوث الأساسية الرامية إلى بيان مكانة العلوم العربية، ومدى ما أسهم به العلماء العرب في تقدم العلوم وفي إغناء الحضارة الانسانية.



□ البتاني.

كما يتطلع المؤتمر الذي سيعقد في مدينة الرقة السورية إلى الاحتفال بمرور عشرة قرون على وفاة العالم العربي الرقي أبي عبدالله البتاني.

وستدور أبحاث المؤتمر الذي سيعقد بالتعاون مع الجمعية السورية لتاريخ العلوم عند العرب في عدة نقاط أهمها:

— تاريخ العلوم الأساسية، وتشمل: الرياضيات — الكيمياء — الفيزياء — النبات — الحيوان — الجيولوجيا.

— تاريخ الفلك والتنجيم.

— تاريخ الطب والطب البيطري والصيدلة والعلوم الطبيعية.

— تاريخ التكنولوجيا والصناعات العربية وتشمل: الهندسة الميكانيكية — الهندسة الحربية — الصناعات الكيميائية.

— موضوعات تتعلق بالاحتفال بمرور عشرة قرون على وفاة العالم العربي الرقي أبي عبدالله البتاني.

هيئة عليا لكتابة التاريخ العربي

الأمانة العامة لاتحاد المؤرخين العرب تستعد لاعلان تشكيل أول هيئة لاعادة كتابة التاريخ العربي. ستكون أعلى هيئة تضم علماء ومؤرخين لاعادة تاريخ الأمة العربية.

الدكتور مصطفى عبدالقادر النجار، الأمين العام لاتحاد المؤرخين العرب ذكر أن الهيئة المذكورة ستضم أكثر من ١٢ عالماً ومؤرخاً عربياً في مختلف حقول الدراسات التاريخية. كما ستمثل الهيئة معظم الأقطار العربية وستعكف على كتابة تاريخ الأمة العربية في شكل نابع من صميم الواقع وتنطلق هذه الكتابة من التطور الذي يشهده الوطن العربي لترافقه عبر مساره التاريخي العريق.

وقد تم ترشيح كل من الشيخ حمد الجاسر (السعودية)، الدكتور أحمد عبدالرحيم مصطفى (مصر)، عبدالكريم فرابية(الأردن)،

حدثت بين الدولة العباسية ودولة شارلمان ومعنى ذلك أننا لا نستبعد وجود الهدايا المتبادلة بين الجانبين.

والأمر الهام في هذه الهدايا المتبادلة هو ما يترتب على تلك المبادلات خاصة إذا عرفنا أن الدولة العباسية كانت ذات تقدم حضاري في حين عم الغرب الأوروبي تأخر حضاري، وكانت النتيجة الحتمية هي تأثير الغرب الأوروبي عن طريق المبادلات بالحضارة الاسلامية، وخير شاهد على ذلك أنه عندما وصلت هذه الهدايا خاصة الساعة المائية الدقاقة التف حولها القسيسين وكانوا في الغرب الأوروبي آنذاك هم عنوان الحضارة الأوروبية فالتفوا عليها واندهشوا اندهاشاً كبيراً ولم يصدقوا أنها تعمل بطريقة علمية ولذلك عزوا أمر تشغيلها إلى السحر والجان وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على مدى تأخر الغرب الأوروبي في تلك الفترة ونخلص من ذلك أن الهدايا التي تم تبادلها بين شارلمان والرشيد حدثت ونتج عنها تأثر الغرب الأوروبي بالحضارة الاسلامية(١٨).

خلاصة

لقد تعاونت حقائق التاريخ مع روايات ألف ليلة وليلة والأساطير الفولكلورية الأخرى، لتجعل من شخصية هارون الرشيد، شخصية أسطورية نسجت حولها القصص الخيالية وهذا ما جعل اسمه معروفاً وخطب وده حكام عصره من الصين إلى أوروبا. من هذا المنطلق يمكن أن ندرك هدف إينهارد مؤرخ البلاط الكارولنجي حين بالغ في رواياته عن حقيقة الصلات بين البلاط العباسي والبلاط الكارولنجي، ألا وهو تفخيم اسم سيده شارلمان عن طريق ربطه باسم هارون الرشيد وبالأماكن المقدسة في فلسطين حيث أشار هذا المؤرخ إلى أن العاهلين تبادلا السفراء والهدايا، وأسفرت مفاوضاتهما عن إعطاء شارلمان امتيازات معينة في فلسطين وانقسم مؤرخو الغرب بين مؤيد لوقوع هذه الصلات والامتيازات ومعارضة لها(١٩).

إن الصلات بين الشرق والغرب لم تنقطع منذ أقدم العصور إلى الآن، ولكنها مرت بفترات من المد والجزر وتباينت بين صلات سلمية وحربية. وتشير بعض الكتابات إلى أن الاسكندر المقدوني حين فتح بعض أقاليم الشرق اشترط على أهلها أن يؤووا الاغريق المهاجرين والمستوطنين في أراضيهم ويعفوهم من الضرائب. وأشارت بعض الروايات الاسطورية الأوروبية إلى أن شارلمان قام بحملة صليبية لتحرير الأراضي المقدسة في فلسطين وكما ترك هارون الرشيد أثراً في الخيال الأوروبي المعاصر لتلك الفترة كذلك ترك «الحشيشية» نفس الأثر. فقد زخرت الكتابات الأوروبية بالقصص حول الجنان الأرضية لهذه الفرقة الدينية ــ السياسية ومجدت شجاعة الحشيشية ومهارتهم في التخفي، ودقتهم في اقتناص الضحية واغتيالها. ونسجت الأساطير حول شخصية زعيم الحشيشية الغامضة المسمى شيخ الجبل. كل ذلك كان له صداه في التاريخ والرحلات والشعر والأدب والأسطورة في أوروبا(٢٠).

العباسيون والسياسة الخارجية

● أولاً ــ الرشيد والشرق الأقصى:

تشير رواية تاريخية إلى زيارة وفد أرسله ملك من ملوك الهند إلى بلاد الرشيد وقدم للخليفة هدايا تتضمن السيوف والثياب والكلاب، وقد أعجب الرشيد بالكلاب السيورية وقدم للوفد هدايا وجوائز سنية. والظاهر أن الرشيد استقبلهم استقبالاً رسمياً لأنه أمر الأتراك فصفوا صفين ولبسوا الحديد حتى لا يرى منهم إلا الحدق، ولعل في هذه الرواية دليلاً جديداً يشير إلى اصطناع الترك لم يبدأ منذ عهد المعتصم، بل كان كما ذكرنا، قبل المعتصم، ومنذ عهد المنصور ولكن نسبتهم كانت قليلة، وغير ذات بال، كما تبادلت الخلافة في عصر الرشيد الذي تميز بزيادة

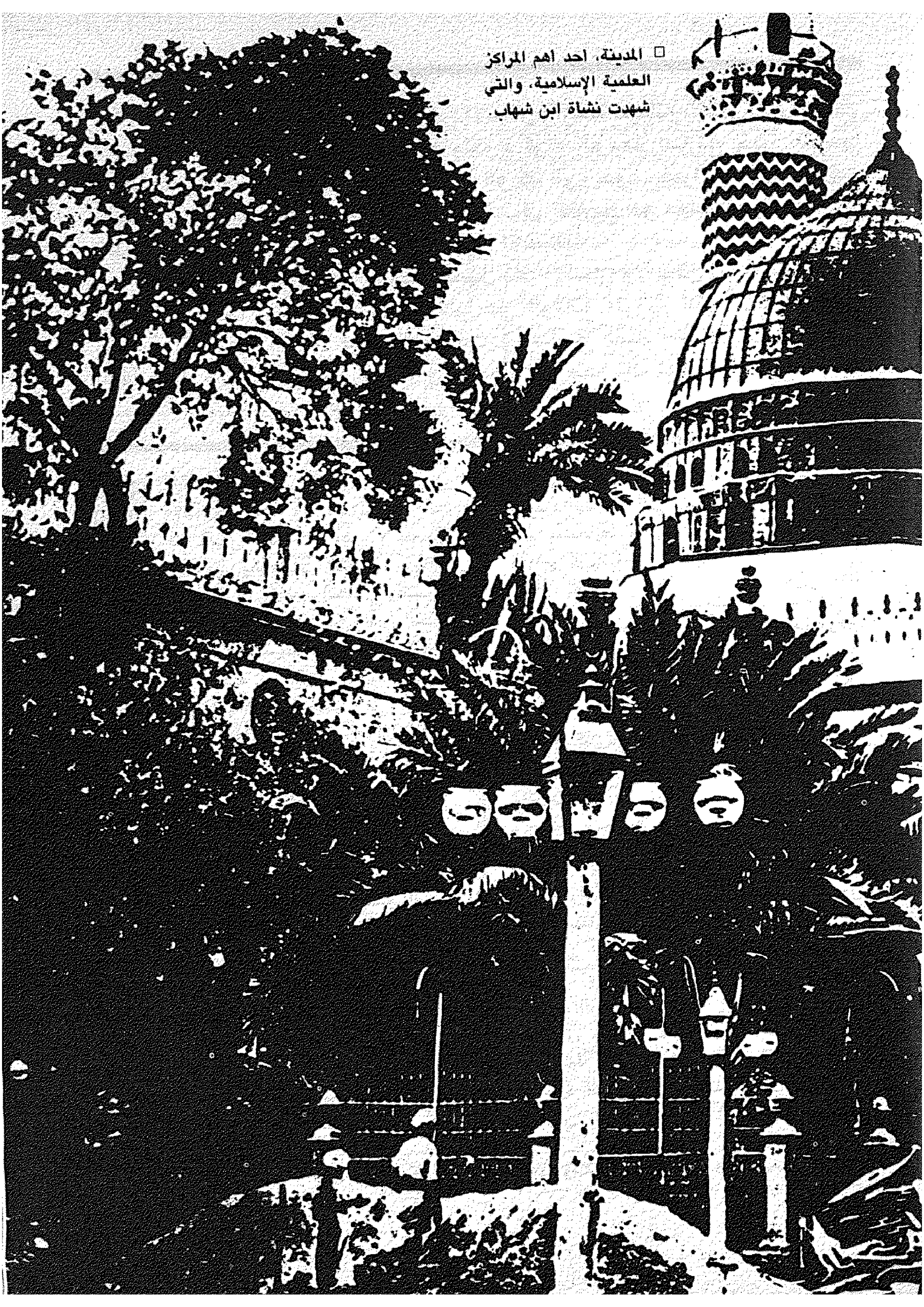
محمد بن مسلم بن شهاب

٥٨هـ - ١٢٥هـ

شذا عدرة



٤٨ - تاريخ العرب



□ المدينة، احد اهم المراكز العلمية الإسلامية، والتي شهدت نشأة ابن شهاب.

التاريخ هو سجل لكل ما صدر عن الانسان وارتبط بحياته بشكل ما. ولّما كانت أعمال الانسان متعددة بتعدد مداركه وتنوّع قواه، لم يعد التاريخ خبراً سياسياً أو اقتصادياً أو اجتماعياً أو غير هذا، بل هو كل شيء حوى خبراً من أخبار الماضي الانساني وقد صدق الأقدمون عندما قالوا: «إن التاريخ هو معلم الحياة»[1]، على اعتبار أنه سجل حافل بالخبرات والتجارب الانسانية.

أمّا كتابة التاريخ، فهي مرتبطة بسجل ذلك الانسان ولا يمكن لها أن تقوم على الإبداع الخيالي، بل تعتمد إعتماداً كلياً على الوقائع المروية التي تشكل بدورها المصادر الأساسية التي لا يمكن لأي باحث في التاريخ القيام بأي عمل دون العودة إليها لذلك فإن أول شروط البحث في التاريخ هي جمع تلك المصادر والعودة إليها ومحاولة استيعاب ما جاء فيها فهماً ودراية.



المصادر الأولى للتاريخ العربي الاسلامي تعود في الأساس إلى فترة ما قبل الاسلام. وهي لا تتعدى الأخبار المتفرقة والروايات المتعددة وبعض القصائد المسجلة في العصر الجاهلي وأنساب بعض القبائل المدونة وما كتب فيه بعض الحكم، كصحيفة لقمان الذي تنسب إليه الحكم والأقوال والأمثال وجاء ذكره في القرآن الكريم. إلاّ أن الحقيقة التي لا يمكن معارضتها، هي أن أوّل مصدر كامل في اللغة العربية هو القرآن الكريم، من حيث أنه سجل أحداث الغابرين وشيئاً غير قليل من تاريخ الأنبياء وشيئاً كثيراً من سيرة محمد رسول الله وأمر بإتباع الرسول وطاعته[2].

هذا بالاضافة إلى أن القرآن يعتبر الخطوة الأولى نحو الكتابة التاريخية العربية الإسلامية[3]، من حيث أنه فتح الباب للدراسة التاريخية المرتبطة بالماضي، لما في ذلك من عِبَر وعظات للمسلمين، والمرتبطة كذلك بسيرة النبي محمد. إذ كان على المسلمين اتّباعه في كافة شؤونهم، وعلى ذلك كان يتحتّم عليهم أن يكونوا على علم تام بسيرته ليؤدّوا ما فرض عليهم من اتّباعه.

وهكذا نجد أن السيرة النبوية تشكل المدخل الرئيسي لدراسة التاريخ الاسلامي[4] وبالتالي يقتضي هذا، الاهتمام الكبير بمصادر أخبار تلك السيرة الشريفة التي يشكل القرآن الكريم أحد اهم مصادرها وأهم دافع لوجودها من خلال الأوامر الربّانية:

قال تعالى:

«يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله ورسوله». (الأنفال:٢٠)

«من يطع الله ورسوله فقد أطاع الله». (النساء:٨٠)

«لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً». (الأحزاب:٢١)

أمّا الصحابة، وهم من خالَط النبي في المسجد والسوق والبيت والسفر، وكانت أفعال النبي وأقواله محور حياتهم الدينية والدنيوية. وكانوا يتناوبون ملازمة مجلسه يوماً بعد يوم، ويقطعون المسافات الطويلة ليسألوه عن حكم شرعي، ويسألون زوجات النبي فيما يتعلق بشؤون الرجل مع زوجته[5]. كان يشكّل هؤلاء، وما كان يصدر عنهم من أحاديث مكتوبة أو منقولة شفهياً، المصدر الرئيسي والمباشر للسيرة النبوية. وقد كان أولئك الصحابة، يعتبرون بدورهم أنه قد أصبح لزاماً عليهم،

□ **شذا عدرة: ماجستير في التاريخ الحديث من الجامعة اللبنانية وتتابع دراستها حالياً في الجامعة الأميركية في بيروت.**

خاصة بعد وفاة الرسول، أن يحافظوا على سيرته حيّة عن طريق محاكاتها وبكل السبل المتاحة لهم. فصبغوا حياتهم وحياة أولادهم وتلاميذهم بأسلوب حياة النبي. وتجاوز اهتمامهم أيضاً بالسيرة من مجال العمل إلى مجال العلم، فأصبحت سيرة الرسول ومغازيه ذات مكانة مرموقة في مجال الدراسة في عهد الصحابة والتابعين حيث كانت تخصص حلقات لدراسة المغازي، كما كان يفعل عبدالله بن عباس المتوفى سنة ٦٨هـ، الذي كان يخصص جزءاً من يومه لتدريس المغازي[٦]. وعبدالله بن عمرو بن العاص المتوفى سنة ٦٣هـ، الذي سجّل عدة غزوات وبعض الحوادث الأخرى من سيرة الرسول لمعرفته بالقراءة والكتابة وقد كان له صحيفة تعرف باسم الصحيفة الصادقة[٧].

ولكن لا بد هنا من الاشارة، إلى أن الصحابة كانوا متفاوتين في التحديث عن رسول الله، منهم المكثر، كأنس بن مالك، الملازم خدمة رسول الله، وكأبي هريرة، الذي كان يعتبر من أوعية الحديث التي فاضت على المسلمين بأخبار الرسول. ومنهم المقل، كعبدالله بن الزبير، الذي كان يخاف من أن لا تسعفه ذاكرته فيقع في خطأ لم يقصده وهو الذي سمع النبي يقول: «من كذب عليّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار»[٨]. ومنهم من أكثر ثم أحجم عن ذلك حين بدأ الوضع في الحديث، كعبدالله بن العباس، الذي قال: «إنّا كنّا نحدّث عن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، إذ لم يكن يكذب عليه. فلمّا ركب الناس الصعب والذلول تركنا الحديث»[٩].

لذا نستطيع القول، أن عملية قيام الصحابة بنشر الحديث وارتباطها بالانتباه والحذر الشديدين خوفاً من الوقوع في أي خطأ قد يتبوأ صاحبه «مقعداً من النار»، قد أكسبها صدقاً وثقة وأبعد عنها كل شك أو ريبة.

ثم جاء دور التابعين وحرصوا على لقيا صحابة النبي الذين صاروا قدوة لهم ولغيرهم في أقوالهم وأفعالهم حتى أنها صارت مشمولة بالحديث. ونقل التابعون ما في صدور الصحابة واتسع اهتمامهم بدراسة تلك الأحاديث حتى أصبحت خلال القرن الأول الهجري تشمل جميع فعاليات الأمة[١٠]. وقد برز من بين هؤلاء التابعون المحدّثون رجال اهتموا اهتماماً خاصاً بمغازي النبي[١١]، وهي تعني لغوياً غزوات الرسول وحروبه، ولكنها تناولت في الحقيقة فترة الرسالة بكاملها.

والسبب الرئيسي، على ما أعتقد، لانتشار دراسة المغازي انتشاراً واسعاً عن غيرها من الأحاديث النبوية ــ وهي طبعاً تعتبر من ضمن دراسة الحديث ــ لارتباطها الوثيق أولاً بميل العربي الطبيعي لحب الفروسية والأعمال الحربية. ثانياً، ميلهم لسماع القصص خاصة البطولية منها. «تنوقلت الأخبار والقصص عن المغازي وتوسع فيها القصّاص وجعلوها أدباً شعبياً»[١٢]. ثالثاً، وهذا الأهم، لكون بطل هذه المغازي وفارسها إنسان ارتبط بهم وأحبوه وودّوه وأجلّوا قدره وعظمة رسالته، وهو النبي محمد.

ولكن لكي لا تختلط الحقائق بالخيال وتنقلب الوقائع إلى ملاحم، لجأ المحدثون إلى التشديد على الاسناد أو سلسلة الرواة ــ في تقدير قيمة المغازي، ويعني ذلك ربط قيمة الحديث أو الرواية بمنزلة المحدّثين أو الرواة. وأدخل هذا الاتجاه عنصر البحث والتحري في جميع الروايات وكوّن أساساً متيناً للدراسة التاريخية[١٣].

يعتبر أبان بن عثمان بن عفّان المتوفى بين (٩٥ ــ ١٠٥هـ)، وهو المحدّث والفقيه، أول من وضع مجموعة مكتوبة تضم مغازي الرسول[١٤]. إلّا أن ابن سعد في طبقاته يصفها بأنها من الحديث[١٥]. وعلى العموم، فإن ابن عثمان بن عفّان على الرغم من عدم ذكر مغازيه في كتب المغازي والسِّيَر، إلّا أنه يعتبر ممثلاً لمرحلة إنتقالية بين دراسة الحديث ودراسة المغازي[١٦].

أمّا الرجل الذي كان له تأثير في علم المغازي واعتبر مؤسس دراسة المغازي، إذ كان أول من ألّف كتاباً في المغازي[١٧]، فهو المحدّث والفقيه عروة بن الزبير المتوفى سنة ٩٤هـ.

روى مغازي عروة عدد من تلامذته أمثال الزهري وابنه هشام بن عروة وأبو الأسود يتيم عروة، ولكن لم يتسنّى لدارسيه الحصول على كل رواياته، وجلّ ما توفر لهم هو عبارة عن روايات قليلة مبعثرة لم تمكنهم من الحصول على فكرة واضحة عن مغازيه أو عن الهيكل الذي انتظمت فيه رواياته[١٨].

تتناول مغازي عروة بن الزبير جوانب مختلفة من حياة الرسول، كبدء الوحي، وبعض الغزوات، وبعض الشؤون الخاصة بالرسول، ولم يدخل في رواياته في تفاصيل القتال في المغازي، كما كانت بعض رواياته أجوبة مكتوبة على أسئلة وجّهت إليه من البلاط الأموي[١٩].

يبدو أن عروة استعمل «الاسناد» في رواياته ذات الحوادث المهمة فقط، مثل بدء الوحي والهجرة وأهمل استعماله في رواياته الأخرى، ربما ليقينه بأنه من جلّة التابعين وأن الرواية المباشرة عن تابع سبيل موثوق. هذا بالاضافة إلى أنه استعمل الاسناد الجمعي، إذ جمع عدّة روايات في كتابة السيرة وبيّن أسانيدها أولاً ثم مزج متونها ليؤلف منها حادثة متكاملة. وقد وجد هذا المثال في رواية الزهري: وروى «معمر، قال الزهري، أخبرني عروة بن الزبير عن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم يصدق كل منهما حديث صاحبه...»[٢٠] وبذلك يكون عروة أول من ابتدأ في استعمال الاسناد الجمعي.

وعني عروة بالوثائق المكتوبة إلى جانب الروايات الشفوية، فكان يستشهد بآيات من القرآن الكريم، كحديثه عن غزوة بدر، واستعماله لبعض الجمل من كتب الرسول إلى جهات مختلفة[٢١]. ويورد عروة، أحياناً، بعض الأشعار مما يعكس حبه للشعر الذي كان يعتبر من مقاييس الثقافة في زمانه. وقد أعطى أيضاً أهمية خاصة للأنساب في السيرة، فلم يكتف، على حد قول محمد الأعظمي، بذكر المشتركين في الغزوات أو الشهداء فيها بل بذكر أنسابهم بالتفصيل. يبدو هذا الاهتمام أنه امتداداً لاهتمام العرب بالأنساب التي وضع لها عمر بن الخطاب ديواناً خاصاً، تم فيه تسجيل أسماء المحاربين وأهليهم حسب قبائلهم، مما أعطى الأنساب أهمية جديدة. وقد سكب عروة كل ذلك في قالب الرواية بأسلوب بسيط سهل بعيد عن الإنشاء والمبالغة، وكان يمهد أحياناً للحادثة بمقدمة يضعها في موضعها التاريخي ويجعل الحديث متسلسلاً متصلاً[٢٢]. مما يضفي على روايته طابع الشمول. ومما يلفت الانتباه أن اهتمام عروة بالتاريخ قد امتد إلى فترة الخلفاء الراشدين، كتناوله للردّة ومعركتي القادسية واليرموك[٢٣]، وهذا يعكس الاهتمام المبكر بأحداث الأمة.

وأخيراً يعتبرعروة محدثاً ثقة، اتّبع أسلوب أهل الحديث في رواياته، ومكّنته منزلته الاجتماعية من تحقيق منزلته العلمية عن طريق الحصول على المعلومات من مصادرها الأولية، من آل الزبير أسرته ومن خالته عائشة أم المؤمنين التي كان لها دور كبير في تعليمه وتربيته حتى أنه استنفذ ما عندها من العلم قبل وفاتها بثلاث سنين[٢٤].

ابن شهاب الزهري

تدرّجت دراسة المغازي من آبان بن عثمان إلى عروة بن الزبير، لتصل مع ابن شهاب الزهري، الذي يعتبر من رعيل تابعو التابعين[٢٥]، ذروتها من حيث وضوح معالمها وهيكلها وترسيخ دعائمها وتنميتها بحيث لم تعد مقتصرة على رواية مغازي عروة بل تعدى بها الزهري إلى روايات المدينة وأحاديثها فمحّصها ووضعها ضمن إطار واضح ومتين. وقد استعمل الزهري تعبير «السيرة» بدلاً من «المغازي» وقد كان محقاً في ذلك، لاعتقادي بأن خطوته في جعل المغازي من ضمن سيرة حياة الرسول وأفعاله وأقواله، كانت خطوة شاملة ومنطقية تستوجب إطلاق اسم الكل على الجزء وليس العكس. ولكن بالرغم من ذلك، فقد ظل اسم «المغازي» عند الزهري هو الشائع لدى الدارسين لشموله القسم الأكبر من السيرة.

ولكن قبل التطرق للحديث عن الزهري ومغازيه، لا بد من التلميح للصعوبات التي تعترض الباحث عند معالجته إيّاها والتي أكثر ما تتمثل بعدم وجودها كاملة ضمن دفتي كتاب أو مجلد واحد، بل على الباحث أن يستقصيَها ويستلّها من عدة مصادر تختلف وتتباين في تاريخ صدورها أو في طريقة معالجتها. وصحيح أن عدداً كبيراً من كتب الحديث قد أفردت أبواباً خاصة للحديث عن سيرة النبي محمد ومغازيه واعتمدت معظمها على روايات الإمام الزهري، إلا أن كثرة تلك الكتب وتباينها، في قلة أو كثرة اعتمادها على روايات الزهري، تجعل من المستحيل على الباحث الالمام بها جميعاً.

ولقد بذلت جهدي في ضبط مغازي ابن شهاب



□ كان الزهري يدور على مجالس العلم والحلقات ويسجل الأحاديث حتى لا يفوته شيء منها.

الزهري من خلال مواد توزعت ما بين مقالات وكتب ومصادر قديمة وجديدة اعتمدت أهمها مع طبعات مختلفة لنفس المصدر في بعض الأحيان، وذلك لوضوح بعض المواد فيها أكثر من غيرها. وصدف أثناء عودتي إلى كتاب المصنّف للامام عبدالرزاق بن همّام الصنعاني، تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي، أن وجدت هذا الامام يفرد قسماً كبيراً من كتابه لمغازي الزهري ــ الجزء الحادي عشر ــ مع زيادات طفيفة. وقد روى عبدالرزاق هذا القسم عن الامام معمر بن راشد تلميذ الزهري وراوية علمه. لذلك اعتمدت هذا المصنف في جلّ دراستي عن مغازي الامام الزهري.

تستوقفنا دراسة المغازي، عند الوصول إلى مغازي رسول الله لابن شهاب الزهري لأنها تشكل مدخلاً حقيقياً نحو الدراسات التاريخية بما حوته من عناصر مهمة تتطلبها صناعة التأريخ من تفتيش ونقد وإثبات وعرض(٢٦)، إلى جانب جرأته في قول الحق مما أكسبه صفة العالِم الصادق.

هو محمد بن مسلم بن عبيدالله بن عبدالله بن شهاب بن عبدالله بن الحرث بن زهرة بن كلاب بن مرّة بن كعب بن لؤي بن غالب أبو بكر القرشي الزهري المدني أحد الأئمة الأعلام وعالم أهل الحجاز والشام(٢٧).

ولد سنة ٥٠ هجرية، وهناك روايات أخرى هي: ٥١، ٥٦، و ٥٨، وكانت وفاته سنة ١٢٤ هجرية، وفي روايات أخرى: ١٢٣ و١٢٥(٢٨)، فقد عاش إذن النصف الثاني من القرن الأول الهجري والربع الأول من القرن الثاني الهجري. نشأ في المدينة أحد أهم المراكز الاسلامية للحياة العلمية في القرن الأول الهجري كانت تضم أشهر من أسلم من أهل مكة الذين هاجروا إليها مع النبي. وكانت بعد وفاة الرسول مقر الخلافة ومركز كبار الصحابة حتى أن عمراً قد حرّم على كبار قريش أن يبرحوها إلا لحاجة ماسة. كان يقصدها طلاب العلم من أقاصي البلدان لتلقي العلم عن علمائها(٢٩). لذلك كان طبيعياً لمدينة شهد أهلها غزوات رسول الله وسمعوا أحاديثه وعرفوا حياته وحياة خلفائه من بعده، أن تكون

مركزاً إسلامياً علمياً أكثر ما اهتم بدراسة سيرة الرسول وبالتالي بكل ما يتعلق بالدراسات الإسلامية من فقه وتفسير وحديث، التي شكّلت بدورها مدخلاً للدراسات التاريخية[٣٠].

يعتبر الزهري أحد علماء المدينة الذين ينتمون إلى طبقة تابعو التابعين، أو أحد كبار صغار التابعين، لرؤيته ولقائه القليل من الصحابة الذين لا يزيد عددهم عن عشرة أشخاص، أبي هريرة، سهل بن سعد وأنس بن مالك[٣١] خادم رسول الله، الذي روى عنه الزهري ما يقرب من خمسين حديثاً وهي منتشرة في كتب الحديث الستة[٣٢].

وقد درس ابن شهاب الزهري في أول عهده بالعلم على الصحابي عبدالله بن ثعلبة بن صعير العدوي، فكان يتعلم منه الشعر والنسب، خاصة نسب قومه ـــ بني زهرة ـــ[٣٣] ثم تحول إلى دراسة القرآن الكريم والحديث والفقه، فدرس على فقهاء المدينة، وأهم الذين أثّروا في نشأته العلمية واستقى علمه منهم: هم: سعيد بن المسيّب (ت ٩٤هـ)، عروة بن الزبير بن العوام (ت ٩٤هـ)، أبو بكر بن عبدالرحمن بن الحارث بن هشام (ت ٩٤هـ) وعبيدالله بن عبدالله بن عتبة بن مسعود (ت ٩٨هـ). وقد لازم الزهري هؤلاء العلماء الأربعة الذين كانوا من أهم ما يدار عليهم العلم والفتوى في المدينة في النصف الثاني من القرن الأول الهجري، ملازمة تامة لسنين طويلة، كسعيد بن المسيّب الذي لازمه مدة عشر سنين قال عنها الزهري: «جالست سعيد بن المسيب عشر سنين كيوم واحد»[٣٤]. وبلغ من حرص الزهري على العلم أنه كان يتولى خدمة بعضهم في منزلهم، كعبيدالله بن عتبة بن مسعود الذي كان يسقي له الماء. ولكن أشدهم تأثيراً عليه هو عروة بن الزبير الذي تشكل رواياته المصدر الرئيسي لمغازي الزهري والذي قال عنه بأنه «بحر لا ينزف»[٣٥].

الزهري ومكانته العلمية

كان ابن شهاب يتمتع بهمة عالية وعزيمة قوية، ودأب متواصل، مكّنوه جميعاً من تحصيل العلم حتى برّ شيوخه وفاق أقرانه من علماء المدينة. قال عراك بن مالك ـــ أحد الثقاة ومن تلاميذ الزهري ـــ «أفقه أهل المدينة، أعلمهم بقضايا رسول الله (صلعم) أبي بكر وعمر وعثمان وأفقههم فقهاً وأعلمهم بما مضى من أمر الناس فسعيد بن المسيّب وأما أغزرهم حديثاً فعروة ولا نشاء أن نفجر من عبيدالله بن عبدالله بحراً إلا فجرته وأعلمهم عندي ابن شهاب لأنه جمع علمهم إلى علمه»[٣٦]. وكان يدور على مجالس العلم وحلقات الدروس وقد شدّ ثوبه إلى صدره والألواح والصحف بيده يسائل كل من يلقاه في المجالس والحلقات، كهلاً كان أم شاباً، عاماً أو خاصاً، كما كان يدور على بيوت الصحابة والمهاجرين والأنصار فيطرق الأبواب ويسائل أبناءهم ويسجل كل ذلك، حديثاً كان أم سنّة من سنن الرسول أم رأياً لصحابي، أو قولاً لتابعي، ولم يقصرّ همته في ذلك ولم تضعف عزيمته على الرغم من ضحك أقرانه وسخريتهم من حالته تلك[٣٧].

ولكن عندما كبر ابن شهاب وكبر معه أقرانه وأصحابه، رأوا منزلة صاحبهم العالية وازدحام الناس عليه لينهلوا من علمه الغزير فندموا على ما فاتهم. ولكن كان قد فات الأوان وأصبح الزهري قبل أن ينهي القرن الأول الهجري سنواته «أعلم الناس بسنّة ماضيه» «ولولاه لضاعت أشياء كثيرة من السنن»[٣٨].

وأطرف رواية من الممكن أن ترسم لنا صورة عن تعلق مدى شغف الزهري بالعلم وسعيه وراء كسبه، ما جاء عند ابن خلكان في كتابه «وفيات الأعيان»: «وكان إذا جلس في بيته وضع كتبه حوله فيشتغل بها عن كل شيء من أمور الدنيا فقالت له امرأته يوماً والله لهذه الكتب أشد عليّ من ثلاث ضرائر»[٣٩].

الصفة الثانية التي ميّزت الزهري إلى جانب عنائه في طلب العلم، هي شدة حفظه وقوة ذاكرته. ويروي الليث ابن سعد عن شيخه الزهري، أنه قال: «ما استودعت قلبي شيئاً قط فنسيته»، وقال عبدالرحمن بن إسحق عن الزهري قال: «ما استعدت حديثاً قط ولا شككت في حديث إلا حديثاً واحداً، فسألت صاحبي فإذا هو كما حفظت»[٤٠]. كان يحفظ الحديث في المجلس نفسه فلا يبرحه إلا وقد حفظه، وإذا

كان الحديث طويلاً استعان بورقة يدون الحديث فيها ليستظهره حتى يحفظه ومن ثم يمحوه.

هنا لا بد من الاشارة إلى أن دعوة الزهري للتدوين من خلال إصراره على تدوين كل حديث مهما كان مصدره، وهو الأقوى عنده، كانت تبدو وكأنها لم تتعارض مع دعوته إلى الاعتماد على الذاكرة عن طريق تقويتها بالاكثار من شرب العسل الذي كان هو يكثر من شربه، وصيانتها عن طريق عدم إهمالها بالاعتماد الكلي على التدوين.

ولقد لعبت ذاكرة الزهري إلى جانب حفظه وغزارة علمه، دوراً مهماً في حياته العلمية والعملية، إذ كانت سبباً في اتصاله مع بني أمية في الشام عن طريق قبيصة بن ذؤيب ـ كان على خاتم عبدالملك بن مروان ـ الذي أوصله إلى الخليفة عبدالملك، الذي كانت تشغله مسألة فقهية تتعلق بأمهات الأولاد وكان في شبابه قد سمع فيها رأياً ولكنه لا يتذكره جيداً، كما أن أحداً من محدثي الشام لم يسعفه بنصها، بواسطة قبيصة اتصل الزهري بعبدالملك وحكى له الرأي في تلك المسألة فأعجب الخليفة بعلم الزهري وقضى عنه ديونه وضمه إلى صحابته وأمر له براتب يكفيه مؤونة هموم العيش وأمره بالعودة إلى المدينة والاستزادة من العلم والتفرغ له[٤١].

الزهري العالم وخلفاء بني أمية

كانت تلك الحادثة، بمثابة البداية لعلاقة طويلة مثمرة، قامت بين الزهري وخلفاء بني أمية. قال الزهري: «توفي عبدالملك بن مروان، فلزمت الوليد بن عبدالملك حتى توفي، ثم سليمان بن عبدالملك، وعمر بن عبدالعزيز ويزيد بن عبدالملك ثم لزمت هشام بن عبدالملك»[٤٢]. أي أن علاقته بهم لم تنقطع إلا بوفاته سنة ١٢٤هـ، ولم يدرك خلافة الوليد بن يزيد الذي كان ينوي قتله بسبب قدحه له عند سلفه هشام في سبيل خلعه[٤٣]. فعلاقة الزهري، إذن، مع بني أمية، استمرت نحواً من أربعين سنة، كان خلالها سمير الخلفاء ومستشارهم ومحدثهم ومفتيهم ومعلماً لأبنائهم ثم قاضياً لهم.



□ شراب العسل، كان يكثر الزهري في تناوله لأنه يساعد في تقوية الذاكرة.

يبدو من تشجيع لخليفة عبدالملك لابن شهاب، أن هذا الأخير كان ما يزال يافعاً، وكل الروايات اجمعت على أنه لم يتجاوز الثلاثين من عمره، لهذا كان أمامه متسع من الوقت لمعاودة تحصيل العلم الذي عاد ينهل منه، فأخذ يدرس ويجمع ويدوّن ويحفظ ما يقارب الست سنوات، كان خلالها يقوم بزيارات متقطعة للبلاط الأموي الذي ما لبث أن التحق به منذ زمن تولي الوليد بن عبدالملك الخلافة عام ٨٦هـ، ولكنه لم يتخذ دمشق مقراً لسكناه، حتى زمن يزيد بن عبدالملك الذي عيّنه قاضياً، وهشام بن عبدالملك الذي كانت صلته وثيقة مع الزهري وجعل منه مؤدباً لولده وطلب منه أن يملي الحديث لفائدة أولاده(٤٤)، وقد جعل من آدامى جنوبي فلسطين قرب حدود الحجاز وطناً ثانياً له يقوم من هناك بزيارات متقطعة للمدينة ولدمشق(٤٥).

تجمع لدى الزهري، خلال كل تلك السنوات من المعاناة في سبيل التحصيل العلمي، علماً غزيراً تميّز بضم علم فقهاء المدينة إلى علوم الآخرين وعلم أهل الحجاز إلى علم أهل الشام، وبذلك بلغ منزلة عالية من العلم وأصبح من أبصر الناس في الحديث، حتى أنه عندما كان يتردد على المدينة يتوقف محدّثوها عن التحديث ويمتنع فقهاؤها عن الافتاء إجلالاً له، بل أن بعضهم كانوا يذهبون إلى مجالسه لسماع الحديث منه بالرغم من كبرهم وصغره، فنجد عالماً كعمرو بن دينار الذي كان يفاخر بلقائه بعض الصحابة ودراسته عليهم مما لم يتيسر للزهري لأنه لم يدركهم، كان — على مرضه — يذهب إلى الزهري ولا يعود إلى أصحابه إلا في وقت متأخر، وهو يعجب بعلم الزهري(٤٦).

كانت الصفة العامة التي ميزت علاقة الزهري ببني أمية، هي الاحترام المتبادل. فعلى الرغم من المصلحة المشتركة التي كانت تربط بين الطرفين — حاجة الخلفاء في دمشق إلى علم الزهري ولما كان يمثله، في ذلك الوقت، من منزلة عالية في علم الحديث والسيرة، وحاجة الزهري المادية التي كانت تضغط عليه في بعض الأحيان إلى درجة الاستدانة من خدمه بسبب كرمه وسخائه المفرط(٤٧)؛ بالرغم من تلك المصلحة، فلا خلفاء دمشق ضغطوا عليه لوضع أحاديث تخدم مصالحهم، ولا الزهري استغل تقديرهم لعلمه وكرمهم له لتصحيح أوضاعه المادية أو الإثراء من ورائهم، أو تحقيق أي مكسب مادي دنيوي، بل على العكس، فقد كان صداحاً بالحق لا يخاف في الله لومة لائم منسجماً مع نفسه من ناحية توافق أقواله مع أفعاله. وهو الذي كان يحدث بحديث عمر بن الخطاب إلى الرجل الذي جاء يسأله: «ألا أكون في منزلة من لا يخاف في الله لومة لائم؟ فقال: إما أن تكن من الناس شيئاً فلا تخف في الله لومة لائم، وإمّا أنت خلوٌ من أمرهم فأكب على نفسك وأمر بالمعروف وانه عن المنكر»(٤٨). والزهري هو من أكبّ على نفسه فأمر بالمعروف ونهى بني أمية عن المنكر.

جاء في العقد الفريد: «دخل الزهري على الوليد بن عبدالملك فقال له: ما حديث يحدثنا به أهل الشام؟ قال: وما هو يا أمير المؤمنين؟ قال: يحدثوننا أن الله إذا استرعى عبداً رعيته كتب له الحسنات ولم يكتب له السيئات». قال الزهري: باطل يا أمير المؤمنين! أنبي خليفة أكرم على الله، أم خليفة غير نبي؟ قال: بل نبي خليفة قال: فإن الله تعالى يقول لنبيه داود عليه السلام: «يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله إن الذين يضلّون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب» فهذا وعيد يا أمير المؤمنين لنبي خليفة فما ظنك بخليفة غير نبي؟ قال الوليد: إن الناس ليغووننا عن ديننا»(٤٩).

إن موقف الزهري من الخليفة الوليد لا يمكن وصفه إلا بموقف العالم الناصح لدين الله، فقد وضع الزهري الوليد على الطريق الصحيح بأن الأمير لا يختلف عن غيره من الناس تسجل له حسناته كما تسجل سيئاته أيضاً وأزال بذلك ما يدعوه إلى الاستكبار والانحراف عن جادة الصواب، كما أن موقفه من هشام بن عبدالملك في جداله في خبر «الافك» ومن تولى كبره، صريح في صدحه بالحق، إذ اتهم عبدالملك الزهري بالكذب في الحديث، فردّ عليه الزهري وقد امتلأ غضباً: «أنا أكذب؟ لا أباً لك! فوالله لو ناداني منادٍ من السماء أن الله أحلّ الكذب ما كذبت.. حدثني سعيد بن المسيّب وعروة وعبيدالله وعلقمة بن وقاص عن عائشة أن الذي تولى كبره

عبدالله بن أبـي قال: فلم يزل القوم يغرون بـ فقال هشام: ارحل فوالله ما ينبغي لنا أن نحمل عن مثلك. قال: ولِـمَ أنا اغتصبتك على نفسي أو أنت اغتصبتني فخلّ عني. قال: لا ولكنك استدنت ألفي ألف فقال: قد علمت وأبوك قبلك أني ما استدنت هذا المال عليك ولا على أبيك. فقال هشام: إنّا نهيّج الشيخ وذكر كلمة فأمر فقضي عنه ألف ألف فأخبر بذلك فقال الحمد لله الذي هذا هو من عنده»[٥٠].

نستدل من هذا النص، ليس فقط على جرأة الزهري بصدحه بالحق ومدى ورعه وشدة تمسكه بالدين، بل مدى ثقته بنفسه ودينه واعتزازه بعلمه واستهانته بالمال، فهو يعتبر أن بني أمية ليس لهم عليه أية منّة في قضاء دينه، فالمال مال الله، وبيت المال هو بيت مال المسلمين وله فيه حق معلوم كأي مسلم آخر: «إني ما استدنت هذا المال عليك ولا على أبيك».

الزهري بمواقفه الصريحة الصادقة والقوية، فرض احترامه على بني أمية الذين قصدوا إرضاءه والاحتفاظ به إلى جانبهم والانتفاع قدر الامكان من علمه، فسليمان بن عبدالملك جعل منه مستشاراً له في بعض أمور الدولة والخلافة، وعمر بن عبدالعزيز توثقت صلته به حتى أصبح سميره ومحدّثه بأمور الدين والدنيا، وها هو الزهري يقول: «سمرت مع عمر بن عبدالعزيز ليلة فحدثته، فقال: كل ما ذكرت الليلة قد أتى على مسامعي ولكنك حفظت ونسيت»[٥١]. ويزيد بن عبدالملك عيّنه قاضياً[٥٢]، أما هشام بن عبدالملك فقد توثقت صلته به لدرجة أن جعل منه مؤدباً لولده وطلب إليه أن يملي الحديث على بعض ولده، وطلب فيما بعد من كاتبين أن يصحباه ويحضرا دروسه وأن يدونا أحاديثه ففعلا لمدة سنة[٥٣].

هنا لا بد من الاشارة، إلى أن هذا الطلب قد أثار في الزهري دافع عدم اقتصار نشر العلم بين الخاصة، بل عند الضرورة، وجوب نشره بين العامة. وهذا ما يفسر لنا تصرفه بعد انتهائه من إملاء أربعمائة حديث على كاتب هشام، إذ خرج وقال: «أين أنتم يا أصحاب الحديث». وحدّثهم بتلك الأربعمائة[٥٤]. ومن ثم أخذ يردد «كنّا نكره كتاب العلم حتى أكرهنا عليه هؤلاء الأمراء، فرأينا أن لا نمنعه أحداً من المسلمين»[٥٥]. ومعنى ذلك أن الزهري، كان لا يرغب في كتابة الأحاديث لنشرها لكي لا يتكل الناس على الكتب، وليبقى اعتمادهم على ذاكرتهم. ثم شرع في الكتابة، بعد إلحاح الخليفة هشام عليه ليملي على ولده. وهناك إحتمال آخر أن عمر بن عبدالعزيز قد حمل الزهري أيضاً على جمع الحديث وتدوينه[٥٦] بهدف حفظه من الضياع أو التزوير.

يبرز هنا تناقضاً في مسألة التدوين، وهو كيف كان الزهري يدعو إلى التدوين وتسجيل الأحاديث، وهذا ما أشرت إليه من قبل، وفي نفس الوقت «يكره كتاب العلم»؟

إن ما نذكره على هذا التساؤل، يكمن في أن دعوة الزهري إلى التدوين، كان يعني تسجيل الأحاديث من أجل حفظها للصالح الشخصي ـــ وهذا لم يكن مألوفاً عند أهل زمانه ـــ وليس لصالح النشر العام ضمن دفتر أو دفتيّ كتاب. ومما يؤكد صحة هذا التفسير، هو عدم وجود كتاب كامل للزهري، اللهم إلا ما كتبه بإيعاز من الخليفة الأموي الوليد الأول الذي وضع له بما يشبه اللائحة الزمنية التي تتناول الخلفاء الأمويين وزمن توليتهم وطول مدة خلافتهم، وما كتبه بإيعاز من خالد بن عبدالله القسري، والي العراق يتناول أنساب العرب، ولكن لم يكمله. والكتاب الوحيد الذي وضعه هو كتاب يتناول فيه نسب قومه[٥٧]. أما ما عدا ذلك، فليس هناك عملاً تأليفياً مستقلاً قام به الزهري. ولكن مجموعات كبيرة من الأحاديث نقلت عنه تحت عنوان «الزهريات» وقد أطلق عليها هذا الاسم جامعوها ممن لحقه من حفّاظ من تلامذته[٥٨]. ويقول معمر تلميذ الزهري «كنّا نرى أنّا أكثرنا عن الزهري حتى قبل الوليد فإذا الدفاتر قد حملت على الدواب من خزانته من علم الزهري»[٥٩].

هذا بالاضافة إلى أن الزهري بدأ يخاف الأحاديث الملفقة التي تسيل عليهم من المشرق، إذ قال: «لولا أحاديث سالت علينا من المشرق ننكرها لا نعرفها ما كتبت حديثاً ولا أذنت في كتابه»[٦٠].

يتبين لنا من خلال استعراض علاقة ابن شهاب الزهري ببني أمية، أن طابع تلك

العلاقة لم يكن سياسياً، فهو لم يداهنهم ولم يجاملهم على الرغم من أن والده، أبو مسلم بن عبيدالله، كان ضدهم مع عبدالله بن الزبير. وهو الذي قال فيه عبدالملك «كان أبوك لنعّاراً في الفتن»(٦١). ومع ذلك لم تتأثر علاقة الزهري بهم وظلت ملتزمة حدود العلم والدين، فكان يخاطبهم بلقب «خليفة» أو «أمير المؤمنين» وليس بلقب «ملك» أو «سلطان»، مما يعني أنه اعتبر حكمهم امتداداً لحكم الخلفاء الراشدين. ولكن لا يخفي تعاطفه مع أهل بلده التي عمل من أجلها خيراً، إذ أشار على مسلمه بن هشام،وكان قد استعمله أبوه هشام بن عبدالملك سنة ست عشرة ومائة على الحج وأمر الزهري أن يسير معه، أشار عليه أن يصنع خيراً إلى أهل المدينة، فأقام فيها مسلمة مدة نصف شهر وقسم الخمس على أهل الديوان، وفعل أموراً حسنة كثيرة(٦٢).

تمثل المرحلة الأموية من حياة ابن شهاب الزهري، المرحلة الأهم. فقد كانت بالنسبة إليه مرحلة الانتاج والعطاء من النفس التي اختزن فيها الكثير من العلم والحديث حتى أصبحت بمثابة مستودعاً للأحاديث النبوية الشريفة.

كان يروي بإسناد، إذ أن قيمة الرواية آنذاك هي في الثقة براويها وقد أخذ ابن شهاب من ثقاة. وقد قيل له يوماً «زعموا أنك لا تحدث عن الموالي؟ فقال: إني لأحدث عنهم، ولكني إذا وجدت أبناء المهاجرين والأنصار أتكىء عليهم فما أصنع بغيرهم»(٦٣). وكان يقول أيضاً، «ما هذه الأحاديث التي لا أزمّة لها ولا خطم»(٦٤). أي شبه أسانيد الأحاديث بالأزمّة والخُطُمْ ووجه الشبه بينهما الضبط، فكلما تضبط حركة الدابة وتوجه إلى الطرق السالكة السليمة، كذلك الحديث فإنه يضبط بمعرفة رجال سنده ويميز صحيحه من سقيمه. كان يقصد الزهري أهل العراق، حيث يقول في موضع آخر: «نخرج الحديث شبراً فيرجع ذراعاً ـــ يعني من العراق ـــ وأشار بيده إذا وغل الحديث هناك فرويداً به»(٦٥). يقول الزهري رويداً، كأنه يريد التأمل والتدقيق في الحديث الذي يدخل العراق، إشارة إلى التلاعب بالأحاديث هناك في تلك الفترة(*).

عمل الزهري على نشر علمه فلا يمنعه على مسلم: «ما نشر أحد من الناس هذا العلم نشري ولا بذله بذلي»(٦٦). وهو القائل أيضاً: «لا يرضي الناس قول عالم لا يعمل ولا عمل عامل لا يعلم»(٦٧).

ومسألة التدوين التي سبق ابن شهاب غيره من أبناء عصره في القيام بها، تعتبر مرحلة مهمة من مراحل جمع التراث والانتقال به من الرواية الشفوية إلى الرواية المدونة.

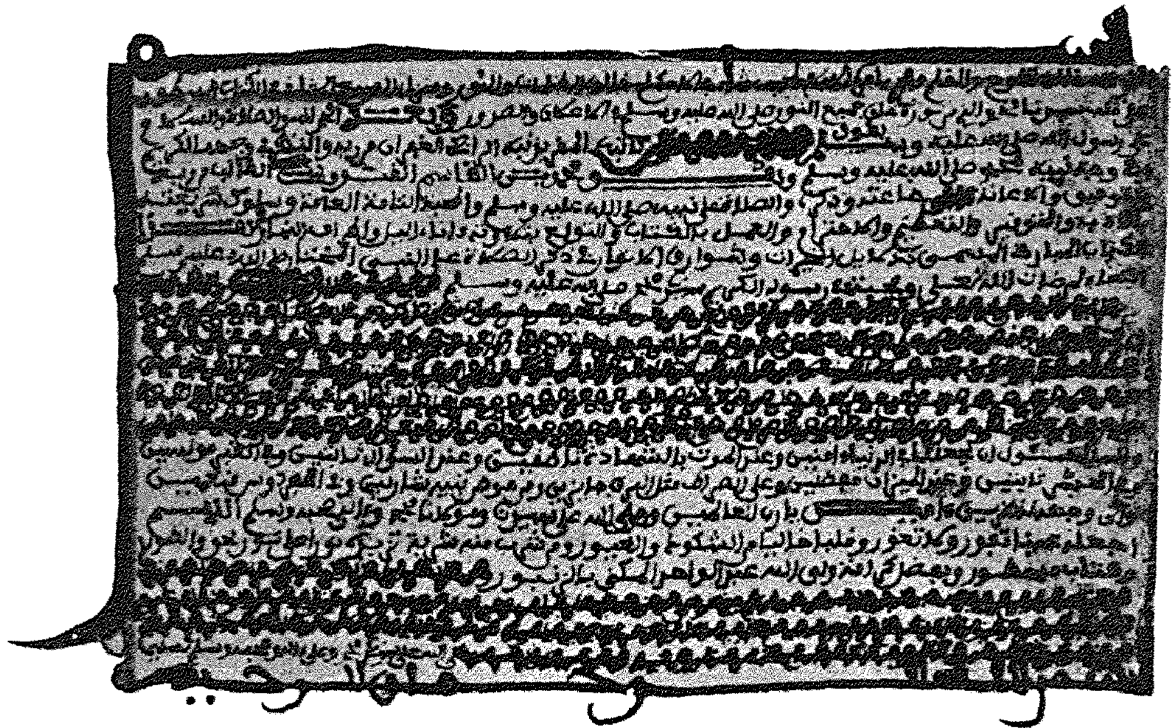
التهم التي وجهت إلى الزهري

جلب اتصال الزهري ببني أمية الاتهام عليه والكلام فيه، ابتداءً بشيوخه وانتهاءً بعصرنا هذا، فأما السلف فقد أخذوا عليه صحبته للسلطان وتوليه القضاء له. «روى عليّ بن حوشب الفزاريّ عن المكحول قال: أيّ رجل الزهري لولا أنه أفسد نفسه بصحبة الملوك»(٦٨). فقد كان الفقهاء والمحدثون الورعون يتجنبون مصاحبة الملوك لما في ذلك من خطر مجاراتهم والتساهل معهم في أمور الدين، من ناحية تأويل الأحاديث أو تفسيرها حسب ما تقتضي مصالحهم.

أما المحدثون وعلى رأسهم المستشرق اليهودي إجناس غولدتسهير، فقد ذهبوا إلى أن الزهري ذهب إلى الشام واتصل بعبدالملك بن مروان وأخذ يضع له الحديث لنصرته في حربه مع عبدالله بن الزبير(٦٩).

إن رأي أولئك وهؤلاء من الزهري، فيه كثير من التجني على الحقيقة. فأمّا معاصروه فكانوا يعلمون مدى صدق الزهري وصدحه بالحق الذي تبين لهم من مواقفه مع بني أمية، فلم يكن، كما سلفت الاشارة، مجارياً لهم ولامتساهلاً معهم في أمور الدين بل صدّاحا بالحق ناصحاً أميناً.

أما ما ذهب إليه المحدثون، من وضع الزهري للأحاديث في خدمة مصالح بني أمية زمن عبدالملك بن مروان في حربه مع عبدالله بن الزبير، ففيه بعداً عن المنطق. فالزهري أيام عبدالملك، كان لا يزال فتياً مغموراً، وإن أراد الخليفة الأموي وضع أحاديث تخدم مصالحه لاستعان بشيخ من شيوخ الحديث أمثال سعيد بن المسيِّب وليس بشاب طريّ العود



□ التدوين، اعتمده الزهري ودعا إليه لحفظ الأحاديث النبوية الشريفة من الضياع.

وجديد العهد بالحديث. وقد أشبع كل من السباعي وهوروفتس الحجج في ردّهما على غولدتسهير

المآخذ

أمّا المسائل التي أخذت على الزهري فتتعلق ببعض الأمور الشخصية والعلمية.

فالشخصية، هي كثرة استدانته بسبب سخائه المفرط، الذي كان يضطره إلى الاستدانة حتى من الخدم والعبيد، وبالتالي اللجوء إلى السلطان لتسديد تلك الديون وما يتطلب ذلك من الالتماس والمجاراة. إلّا أن موقف الزهري من قصة «الأفك» مع الخليفة هشام والتي انتهت بقضاء دين الزهري، تُبيّن وكأنّ الزهري لم يكن يفكر يوماً بمداهنة بني أمية ليحظى بتسديد ديونه، لاعتقاده أن بيت المال هو بيت مال المسلمين ولكل مسلم حق معلوم فيه. «الحمد لله الذي هذا هو من عنده»، هذا ما قاله الزهري عندما أخبر بقضاء هشام ديونه.

أمّا الأمور العلمية، فهي إجازاته كتبه وحديثه دون أن تقرأ عليه أو يقرأها هو وينظر فيها[٧٠]، الأمر الذي لا يؤمن معه تحريف بعض النصوص أو الزيادة عليها. وقد أنكر ذلك عليه المحدثون، حتى أن سفيان الثوري رفض أن يروي من كتاب للزهري كان أعطاه إياه لم يقرأه عليه[٧١].

ولكن هذا الأمر، بالرغم من كل الأخطاء التي قد تصحبه، إلا أن البعض قد اعتبره كدعوة تشجيعية إلى التأليف ونشر العلم وتعميم الفائدة[٧٢].

وهناك من عابه أيضاً في كثرة إسناده وردّه الحديث، فرد عليهم قائلاً: «تلومونا في ردّ الحديث، لهو أشد من نقل الصخر»[٧٣].

تلك هي المسائل التي أخذت على الزهري، وهي ليست بالأمور الهينة ولكنها لا تغض من شأنه ولا تقلل من مكانته العلمية ولا توثيقه.

تلامذة الزهري

درس على الزهري علماء كثيرون لا يحصون، نبغ عدد غير قليل منهم في القرن الثاني الهجري، وتولوا نشر العلم وتصدروا للافتاء وكوّنوا مدارس فقهية، ومن أشهر هؤلاء التلاميذ الذين أصبحوا فقهاء الأمة فيما بعد، مالك بن أنس، النعمان بن ثابت، عبدالرحمن بن عمرو الأوزاعي، الليث بن سعد، عبدالملك بن جريج، سفيان بن عيينة وغيرهم كثير من المحدّثين كمعمر بن راشد،

محمد بن الوليد الزبيدي، يونس بن زيد وعقيل بن خالد وغيرهم[٧٤].

وبعد حياة طويلة جاوزت السبعين عاماً قضاها الزهري في طلب العلم وتدوينه ونشره، توفي في آدامى — على الحدود ما بين الحجاز وفلسطين — وأوصى أن يدفن على قارعة الطريق ليدعو له من يمر به[٧٥].

مغازي الزهري

«كان محمد بن مسلم الزهري مقدماً في العلم بمغازي رسول الله(ص) وأخبار قريش والأنصار، راوية لأخبار رسول الله (ص) وأصحابه»[٧٦] هذا ماجاء على لسان الطبري، ملخصاً دور الزهري المؤرخ الذي أكثر ما يظهر ويتضح في «مغازي رسول الله (ص)» وقد قال بعضهم «إن الزهري وضع كتاباً في المغازي»[٧٧].

وردت مغازي الزهري ضمن مقتطفات تتباين في قلتها أو كثرتها، في طولها أو قصرها بين مؤرخ وآخر، فابن اسحق والواقدي والطبري والبلاذري وابن سيد وموسى بن عقبة، تعدّ مؤلفاتهم من أكثر المؤلفات ذكراً لمغازي الزهري، إلا أن مصنف الحافظ أبي بكر عبدالرزاق بن همام الصنعاني، من الممكن اعتباره من الأهم، ليس لاحتوائه الكثير من مغازي الزهري، بل لأنها وردت بشكل منظم على الرغم من تشابكها مع بعض الروايات الأخرى، إلا أنها تكاد تؤلف كتاباً مستقلاً للزهري في المغازي.

خطة الزهري في المغازي تبدأ بتناول بعض الأخبار عن مكة وأهلها وأسرة النبي مع حياة النبي محمد الخاصة قبل الإسلام. فيذكر ما جاء بصدد حفر زمزم، ونذر عبدالمطلب من أن ينحر أحد أبنائه، تزويج عبدالله بن عبدالمطلب آمنة بنت وهب، ضم أبي طالب الرسول إليه وخروجه معه إلى الشام، هدم قريش الكعبة وتجديد بنائها، تزويج رسول الله خديجة بنت خويلد[٧٩].

تعتبر هذه القطعة بمثابة توطئة تاريخية، يدخل الزهري من بعدها، ليبدأ في سرد سيرة حياة الرسول الكريم ليقسمها إلى قسمين، فترة مكّية وأخرى مدنية. تتناول الأولى الجوانب المهمة من حياة النبي إلى وقت الهجرة. بدأها بذكر الوحي إلى رسول الله وما سبقه من رؤيا صادقة وتحنّث في الخلوة ومن ثمّ ما رافقه من اضطراب الرسول ومساعدة خديجة له وذهابها به إلى ورقة بن نوفل، حتى نزول أول الآيات وذكر أول المسلمين وإسلام عمر بن الخطاب، وقصة الإسراء والمعراج، ثم جاء على ذكر بعض الوقائع المهمة كوقعة حنين[٨٠]. أمّا الفترة المدنية، فتعرض لأخبار المرحلة المدنية، من مخرج رسول الله ونزوله في بني عمرو بن عوف، وقد حددها الزهري بالتاريخ، «يوم الاثنين من شهر ربيع الأول..»[٨١] حتى نهاية العصر الراشدي. وعلى هذا تحدث عن بعض الغزوات، كغزوة قينقاع والخندق ومعركة أحد وفتح مكة، وعن بعض السفارات، إلى هرقل وكسرى، والوفادات. ثم يذكر الزهري تفاصيل أخرى كحديث الافك[٨٢]، مع بعض الإشارات إلى أزواج النبي حتى يصل إلى مرحلة مرضه الأخير الذي يذكره بالتفصيل. يذكر الرسول وهو يلقي نظرة على المسلمين في المسجد في آخر أيامه من الدنيا ويفوض أبي بكر إمامة المسلمين في الصلاة. آخر ما عهد به الرسول الكريم وانتقاله إلى دار الخلود وتاريخ ذلك وعمره وأثر الوفاة[٨٣]. ثم يذكر الزهري بيعة أبي بكر في سقيفة بني ساعدة، ويستمر في سرد أهم الوقائع كمقتل عمر وعثمان وخبر علي ومعاوية مع ذكر معركة الجمل وصفين ويوم التحكيم. وهكذا إلى أن استولى معاوية على مقاليد الأمور وأسس حكم الأسرة الأموية. ويلاحظ أن الزهري أثناء عرضه للأخبار، كان يقدم تواريخ بعض الحوادث بشكل مفصل ودقيق.

يتبين لنا بعد هذا العرض الموجز لمغازي الزهري، الهيكلية أو الخطة التي اتبعها في بناء «السيرة»، فهو قدّم لها بتوطئة تاريخية تناولت البيئة التي ظهر فيها النبي مع ذكر لأهم الأحداث التي تركت بصماتها على تلك الفترة من أخبار الأنبياء الماضين وأهل الكتاب. وهنا تتجلى معرفته بعلم الأنساب الذي كان مقياساً للعلم في ذلك الوقت.

بعد التوطئة ينتقل الزهري إلى صلب الموضوع إلى قلب السيرة وفحواها، فيقسمها بشكل منطقي إلى فترتين: مكّية ومدنية، ويدرج



□ الزهري، كان مرجعاً في حلّ القضايا الفقهية.

تحت كل منهما وحسب التسلسل الزمني وبالتفصيل، أهم الأحداث التي وقعت، من الدلائل على ظهور النبوة، إلى بدء نزول الوحي إلى التطبيق العملي للرسالة إلى آخر النواحي الهامة في الفترة المكية، إلى الهجرة وبداية المرحلة المدنية التي تشكل بداية انتشار رسالة الإسلام خارج حدودها الضيقة وما رافقها من غزوات وسرايا وفعاليات أخرى من سفارات ووفود، حتى يصل إلى مرض الرسول الكريم ووفاته. ثم يأتي إلى فترة الخلفاء الراشدين، من بيعة أبي بكر إلى عمر ومقتله إلى عثمان ومقتله إلى علي وخلافه مع معاوية. ويستمر في السرد حتى يصل إلى تنازل الحسين بن علي لمعاوية الذي استولى على مقاليد الأمور وأسس حكم الأسرة الأموية.

عالج الزهري روايات المغازي عن حسب المذهب الذي تعامل به مع مختلف الأحاديث النبوية الشريفة. فقدم معلومات واقعية متزنة بأسلوب يتصف بالصراحة والبساطة والتركيز والتناسق فيه استقصاء كامل للحقيقة. ولكن كل هذا دون أن يصرّح برأيه أو يعكس لنا موقفه من تلك الأحداث، أللهم تعليقه على صلح الحديبية وأهميته ونتائجه: «فما فتح في الإسلام فتح قبله كان أعظم منه إنما كان القتال حيث التقى الناس فلما كانت الهدنة ووضعت الحرب وآمن الناس بعضهم بعضاً والتقوا فتفاوضوا في

الحديث والمنازعة ولم يكلم أحد بالإسلام يعقل شيئاً إلا دخل فيه ولقد دخل في تينك السنتين مثل من كان في الإسلام قبل ذلك أو أكثر»(٨٤).

هذا بالاضافة إلى ما نستشفه من بين السطور لمواقف الزهري من بعض الأحداث الكبرى خاصة التي لعبت دوراً أساسياً في تطور أحداث الأمة والتي تناولها الزهري بالتفصيل، كمسألة انتخاب أبي بكر والأثر الذي تركه وما رافقه من ردّات فعل(٨٥)، كنظرة علي إلى الانتخاب ثم بيعته فيما بعد وطلب فاطمة الزهراء أن ترث، وسلوك أبي بكر كخليفة وتجاه كل تلك الأمور. ثمّ يخص عصر عمر بن الخطاب بالتفصيل ويذكر الانجازات التي حققها من إنشاء ديوان الجند وتنظيم الأعطيات وقول عمر في أهل الشورى(٨٦).

إن تفاصيل تلك الأحداث التي تعمّد الزهري ذكرها، إنما تظهر موقفه الإيجابي من أبي بكر وعمر، فقد كان يمدحهما بطريقة غير مباشرة، فجعل أفعالهما تنطق بخصالهما. أما عثمان، فقد فصّل الزهري أمر خلافته وأسهب في ذكر الانتقادات الموجهة إليه، ثم يورد تفاصيل دقيقة عن الفتنة، ويذكر أن عثمان كان محبوباً في السنوات الست الأول من حكمه ومن ثمّ اشتدت انتقادات الناس وأنكروا عليه مفاضلته لأهل بيته وكأنه بذكر ذلك يحاول التبرير لبعض مواقف وأفعال عثمان. ثم يعرض الزهري للانقسامات الخطيرة في المدينة، وانتخاب علي، وموقف طلحة والزبير من علي، الخليفة الجديد، ومفاوضتهما مع عائشة، وأخيراً موقعة الجمل(٨٧)، وبعد ذلك يتناول النزاع بين علي ومعاوية ومعركة صفين ثم التحكيم. ويذكر علاقة الحسين بالكوفيين ومفاوضته مع معاوية وينتهي بتنازل الحسن واستيلاء معاوية.

من خلال كل ذلك كان الزهري يعرض وجهة نظر أهل المدينة التي بدأت تشكو الانقسام، وبالتالي وجهة نظره فهو أولاً وأخيراً ابن بيئته.

إن اهتمام الزهري بتجارب الأمة، كان عاملاً مهماً في نشأة الدراسة التاريخية. فمبدأ الشورى والاجماع وظهور الأحزاب السياسية والفتنة ومسألة الخلافة والجدل الذي قام حولها، وإنشاء الديوان، كل هذه المسائل كانت تتطلب إيضاحاً عن طريق الدراسة التاريخية فتلقفها الزهري عن استاذه عروة بن الزبير واستطاع أن يضع لها اسساً ثابتة واضحة المعالم.

اتبع الزهري في محاولة تحقيق الأحاديث والروايات طريقة اعتماد الاسناد، «ما رأيت انصّ للحديث من الزهري»(٨٨)، وكان، كما بيّنا من قبل، من المتشددين في اتباع هذه الطريقة التي كان يراها ضرورية ولا بدّ لكل محدّث من اتّباعها لاثبات وقائعه. وقد مشى الزهري بالاسناد خطوة نحو الأمام، إذ جمع عدّة روايات في خبر متسلسل تتقدمها رجال أسانيد، أي اتّبع ما يسمونه بالاسناد المدرّج أو الاسناد الجمعي(**) فدخل بذلك مرحلة الأخبار التاريخية المتصلة. وقد ذكرت بعض المصادر أن الزهري هو أول من اتّبع الاسناد الجمعي، ولكن يبدو أن شيخه ابن الزبير قد سبقه بذلك ولو على نطاق ضيق(٨٩)، إلى جانب بعض رواياته التي وردت دون إسناد، لاعتباره «تابع» فهو إذن سبيل موثوق، والبعض الآخر ورد بإسناد عادي.

أمّا الزهري فهو الذي اعتمد الاسناد الجمعي بشكل واسع وبصورة صريحة وواضحة، مما أكسبه مرتبة الأولوية في هذا المجال. هذا إلى جانب اعتماده الاسناد العادي، أي أنه كان يكتفي بذكر رواية أحد التابعين مما يسمح له بحرية أكثر في التحديث. أما الروايات التي وردت بإسناد جمعي عند الزهري فهي كثيرة، نذكر منها، وقعة بدر، وقعة أحد، وموقعة حنين(٩٠).

إلى جانب الاسناد، أكثر الزهري من ذكر الآيات القرآنية التي تتصل بما يورد من أخبار فجاءت بمثابة استشهادات تدعم ما كان يذكر من أخبار ووقائع، كما في حديثه عند نزول الوحي، وفي حديثه عن قريش عندما أرسلت إلى النبي تناشده الله والرحم لينقذها من عصابة أبي صير وأبو جندل بن سهيل، وفي حديثه عن استفتاح وقعة بدر(٩١). وبما أن القرآن حافل بالاشارات إلى شؤون المسلمين ويعتبر أحد أهم المصادر الرئيسية للتاريخ الاسلامي، فقد ساعدت تلك الاستشهادات في إضفاء طابع الجدية والأهمية على روايات الزهري.

أمّا التسلسل التاريخي الذي بدا واضحاً جداً مع الزهري، فقد حدّده بالتواريخ مثل تاريخ



□ دمشق الأموية التي احسنت وفادة الزهري.

الهجرة، تاريخ غزوة بدر، «يوم الجمعة لسبع أو ست عشرة ليلة مضت من رمضان»، فتح مكة، «على رأس ثمان سنين ونصف من مقدم النبي (ص) إلى المدينة، ليلة ثلاث عشرة خلت من رمضان»[٩٢]. وقد ساعدت هذه الطريقة ـ تواريخ ـ على تثبيت إطار وقائع مغازيه أو بالأحرى إطار السيرة عنده.

والشعر عند الزهري كان لا بدّ منه، ولو بكمية ضئيلة، فهو المولع بالشعر[٩٣] والمتضلّع فيه، ولكن ليس إلى حد التأثير على أسلوبه.

ومما تجدر الاشارة إليه، أن القالب الذي صبّت فيه تلك المغازي، فيبدو على شكل فتاوي تاريخية يردُّ بها على أسئلة وجُهت إليه، والأرجح أن يكون معظمها قد وجّه إليه من قبل تلاميذه[٩٤].

والأسلوب الذي عالج فيه الزهري مغازيه، كان سلساً مباشراً صريحاً بعيداً عن المغالاة والتكلف، جعل الأخبار متصلة متسلسلة، مما أضفى على رواياته صفة الشمول والجدية. وهو لا يختلف عن أسلوبه في كامل أحاديثه، فالزهري محدّث أولاً وأخيراً ومغازيه لا تخرج عن إطار السيرة.

الخـاتمـة

يتضح لنا بعد كل هذا، أن ابن شهاب الزهري باعتماده الأسانيد والتشديد عليها،

واستشهاده بالآيات القرآنية، مما دعّم أحاديثه وأعطاها قوة وفاعلية، واستعماله التواريخ، قد قدم خدمة جليّة للتاريخ الاسلامي، ليس فقط من ناحية حفاظه على التراث الاسلامي، بل من ناحية تحديده للاطار التاريخي للسيرةالنبوية وإعطائها شكلاً ومضموناً منهجياً، إن من ناحية الأساليب التي استعملها لدعمها، أو من ناحية المضمون وما حواه من معلومات وأخبار قيّمة.

أما التدوين، وهو الخطوة الأخرى والهامة جداً التي أخذ يدعو إليها الزهري، أشارت معه إلى مرحلة جديدة من مراحل جمع ذلك التراث والانتقال به من الرواية الشفوية إلى الرواية المدونة. وبذلك يكون قد انتقل بالدراسات التاريخية نقلة نحو الأمام ساعدت فيما بعد على وضعها على أسس ثابتة، وأدّت إلى حفظ الروايات الأولى.

وهكذا نجد أن محمد بن مسلم بن شهاب الزهري، بتفتيشه عن الأحاديث من خلال سعيه وراء الحديث، كبيراً كان أم صغيراً، تابعاً أو غير تابع، وبتدوينه إياها، ومن ثم نقدها لمعرفة الأصيل من الدخيل عن طريق تحقيقها بالأسانيد، ومن ثم جمعها (عن طريق الاسناد الجمعي) وأخيراً عرضها ضمن أسلوب سلس وواضح، كل هذه الأمور كانت كفيلة لتظهر ملكة التأريخ عند ابن شهاب ولتجعل منه المؤسس الحقيقي للمدرسة التاريخية في المدينة.

حواشي الموضوع

(١) Somogyi, Joseph: «The Development of Arabic Historiography», *Journal of Semetic Studies*, 3, (1958), p. 373.

(٢) الأعظمي، محمد مصطفى: **مغازي رسول الله، صلى الله عليه وسلم، لعروة بن الزبير**، ص ١٢ ــ ١٥.

(٣) Gibb, H.A.R.: «Tarikh», in *Encyclopedia of Islam*, 1st ed. *Supplement*, p. 234.

(٤) السباعي، مصطفى: **السنة ومكانتها في التشريع الاسلامي**، ص ٦١ ــ ٦٢.

(٥) ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، ج ٢، قسم ٢، تحقيق إدوارد سخاو، ص ١٢١ ــ ١٢٢.

(٦) للدراسة التفصيلية في هذا الموضوع، انظر: الأعظمي، محمد مصطفى: **دراسات في الحديث النبوي وتاريخ تدوينه**، ص ٩٢ ــ ١٤٢.

(٧) السباعي، مصطفى: المصدر السابق، ص ٦٦ ــ ٦٧.

(٨) السباعي، مصطفى: المصدر السابق، ص ٦٧.

(٩) الدوري، عبدالعزيز: **بحث في نشاة علم التاريخ عند العرب**، ص ٢٠.

انظر أيضاً:

— Horovitz, J. : «Early Biographies of the Prophet and their Authors», *Islamic Culture*, I (1927), p. 536.

(١٠) Horovitz, J.: Ibid., p. 536

(١١) الدوري، عبدالعزيز: المصدر السابق، ص ٢٠.

(١٢) الدوري، عبدالعزيز: المصدر السابق، ص ٢٠.

(١٣) Horovitz, J.: Ibid., p. 539.

(١٤) ابن سعد: المصدر السابق، ج ٥، ص ١٥٦.

(١٥) الدوري، عبدالعزيز: المصدر السابق، ص ٢١.

(١٦) الحاجي، خليفة: **كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون**، ج ٢، ص ١٧٤٧.

(١٧) الدوري، عبدالعزيز: المصدر السابق، ص ٢١. انظر أيضاً:

— الأعظمي، محمد مصطفى: **مغازي رسول الله، صلى الله عليه وسلم، لعروة بن الزبير**، ص ٣٠ ــ ٧١، يذكر الأعظمي في دراسته التي يعتمد فيها على رواية أبي الأسود يتيم عروة، أنه ليس دليلاً كافياً في أكثر الحالات، هل نقلت تلك المعلومات عن عروة شفاهاً أو سجلت تسجيلاً، إلا رواية أبي الأسود يتيم عروة.

(١٨) ابن سعد: المصدر السابق، ج ٥، ص ١٣٣.

(١٩) الأعظمي، محمد مصطفى: المصدر السابق، ص ٦٨.

(٢٠) الطبري: **تاريخ الرسل والملوك**، ج ٢، ص ٤٨٠. انظر أيضاً:

— ابن هشام: **سيرة النبي**، ص ٤٧٤ ــ ٤٧٥.

(٢١) الدوري، عبدالعزيز: **علم التاريخ عند العرب**، ص ٧٥ ــ ٧٦.

(٢٢) الطبري: المصدر السابق، ج ٣، ص ٥٧١.

(٢٣) الأعظمي، محمد مصطفى: المصدر السابق، ص ٤٦.

(٢٤) Horovitz, Joseph, Ibid., p. 536.

(٢٥) زريق، قسطنطين: **نحن والتاريخ**، ص ٧٠ ــ ٧٥.

(٢٦) الذهبي، شمس الدين: **تراجم رجال روى محمد بن إسحاق رئيس اهل المغازي عنهم**، ص ٦٤.

(٢٧) الذهبي، شمس الدين: المصدر السابق، ص ٧٤.

(٢٨) أمين، أحمد: **فجر الإسلام**، ص ١٧١ ــ ١٧٣.

(٢٩) Duri, A.A. : «Alzuhri, A Study on the Beginnings of History Writing in Islam», *BSOAS*, 19 (1957), pp. 1-12.

(٣٠) الذهبي: المصدر السابق، ص ٦٤ ــ ٦٥.

(٣١) المزي، جمال الدين أبو الحجاج يوسف بن عبدالرحمن بن يوسف القضاعي المزي الدمشقي: **تحفة الاشراف بمعرفة الأطراف**، ج ١، ص ٣٧٥ ــ ٤٠١.

الأئمة الأربعة وأصحاب الكتب الستة للسنة:
- الامام أبو حنيفة: ٨٠ ــ ١٥٠هـ.
- الامام مالك: ٩٣ ــ ١٧٩ هـ.
- الامام الشافعي: ١٥٠ ــ ٢٠٤هـ.
- الامام أحمد: ١٤٦ ــ ٢٤١ هـ.

أصحاب الكتب الستة:
- الامام البخاري: ١٩٤ ــ ٢٥٦ هـ.
- الامام مسلم: ٢١٤ ــ ٢٦١ هـ.
- الامام النسائي وسننه: ٢١٥ ــ ٢٧٥ هـ.
- الامم ابو داود وسننه: ٢٠٢ ــ ٢٧٥ هـ.
- الامام الترمذي وجامعه: ٢٠٩ ــ ٢٧٩ هـ.
- الامام ابن ماجه وسننه: ٢٠٧ ــ ٢٧٣ هـ.

(٣٢) ابن سعد: **الطبقات الكبرى، القسم المتمم لتابعي اهل المدينة ومن بعدهم**، تحقيق: زياد محمد منصور، ص ١٥٧ ــ ١٥٨.

(٣٣) ابن سعد: المصدر السابق، ص ١٦٥.

(٣٤) ابن سعد: المصدر السابق، ص ١٣١.

(٣٤) ابن سعد: المصدر السابق، ص ١٣١.

(٣٥) الذهبي: المصدر السابق، ص ٦٨. انظر أيضاً:
— Horovitz, J.: Ibid, II (1928), p. 44-45.

(٣٦) ابن سعد: المصدر السابق، ص ١٦٦ ــ ١٦٨.

(٣٧) الذهبي: المصدر السابق، ص ٩٨ ــ ٩٩.

(٣٨) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ١، ص ٥٧١.

(٣٩) الذهبي: المصدر السابق، ص ٩٨.

(٤٠) ابن سعد: المصدر السابق، ص ١٥٧ ــ ١٦٢.

(٤١) ابن سعد: المصدر السابق، ص ١٦٢.

(٤٢) ابن سعد: المصدر السابق، ص ١٨١ ــ ١٨٢.

(٤٣) أمين، أحمد: المصدر السابق، ص ٣٠٦.

(٤٤) الذهبي: المصدر السابق، ص ٧٠ ــ ٧١.

(٤٥) الذهبي: المصدر السابق، ص ٧٣ ــ ٧٤.

(٤٦) ابن سعد: المصدر السابق، ص ١٧٤ ــ ١٧٩. انظر أيضاً:
- السباعي، مصطفى: المصدر السابق، ص ٣١٦ ــ ٣١٧.

(٤٧) الذهبي: المصدر السابق، ص ٧٠.

(٤٨) ابن سعد: المصدر السابق، ص ١٦٣ ــ ١٦٤.

(٤٩) ابن عبد ربه: **العقد الفريد**، ج ١، ص ٧٠.

(٥٠) الذهبي: لمصدر السابق، ص ٧٢ ــ ٧٣.

(٥١) ابن سعد: المصدر السابق، ص ١٦٥.

(٥٢) الذهبي: المصد السابق، ص ٧٢.

(٥٣) الذهبي: المصدر السابق، ص ٦٩ ــ ٧١. انظر أيضاً:
— Horovitz, J.: Ibid., p. 46-47.

(٥٤) الذهبي: المصدر السابق، ص ٦٩.

(٥٥) ابن سعد: المصدر السابق، ص ١٦٩.

(٥٦) Horovitz, J.: Ibid., p. 47.

(٥٧) Horovitz, J.: Ibid., p. 48-49.

انظر أيضاً:
- الذهبي، المصدر السابق، ص ٦٨.

(٥٨) Horovitz, J.: Ibid., p. 49-50.

(٥٩) الذهبي: المصدر السابق، ص ٧١.

(٦٠) ابن سعد: المصدر السابق، ص ١٦٦.

(٦١) الذهبي: المصدر السابق، ص ٧٠.

(٦٢) ابن سعد: المصدر السابق، ص ١٦٤.

(٦٣) ابن سعد: المصدر السابق، ص ١٢٩.

(٦٤) ابن سعد: المصدر السابق، ص ١٧٩.

ازمة، جمع زمام وهو الحبل الذي يستعمل لضبط حركة الدابة إلى مسالك الطرق. والخطم، هو ما يوضع على أنف الدابة لتقاد به، فهو الزمام بنفسه.

(٦٥) ابن سعد: المصدر السابق، ص ١٧١.

(٦٦) الذهبي: المصدر السابق، ص ٦٩.

(٦٧) الذهبي: المصدر السابق، ص ٧١.

(٦٨) الذهبي: المصدر السابق، ص ٧٢.

(٦٩) للتوسع في هذا الموضوع انظر كتاب السباعي، مصطفى: المصدر السابق، ص ٢٩٦ ــ ٤٤١؛ و
— Horovitz, J.: Ibid., p. 46-50.

(٧٠) الذهبي: المصدر السابق، ص ٧٢ ــ ٧٣.

(٧١) الذهبي: المصدر السابق، ص ٦٩ ــ ٧٠.

(٧٢) الذهبي: المصدر السابق، ص ٦٨.

(٧٣) الذهبي: المصدر السابق، ص ٦٦ ــ ٦٨.

(٧٤) ابن سعد: المصدر السابق، ص ١٨٥.

(٧٥) الطبري: **المنتخب من كتاب ذيل المذيل من تاريخ الصحابة والتابعين**، ص ٩٧.

(٧٦) الحاجي، خليفة: المصدر السابق، ج ٢، ص ١٧٤٧.

(٧٧) الدوري، عبدالعزيز: **بحث في نشأة علم التاريخ عند العرب**، ص ٨٢.

(٧٨) أبي بكر عبدالرزاق بن همامالصنعاني: **المصنف**، ج ٥، ص ٢١٣ ــ ٣٢١.

(٧٩) الصنعاني: المصدر السابق، ص ٣٢٢ ــ ٣٩٤.

(٨٠) الصنعاني: المصدر السابق، ص ٣٩٥.

(٨١) الصنعاني: المصدر السابق، ص ٤١١.

(٨٢) الصنعاني: المصدر السابق، ص ٤٢٨ ــ ٤٣٧.

(٨٣) ابن هشام: **سيرة النبي**، ص ٥٤٦.

(٨٤) الطبري: **تاريخ الرسل والملوك**، ج ٣، ص ٢٠٠ ــ ٢٠٤.

(٨٥) الصنعاني: المصدر السابق، ص ٤٤٧.

(٨٦) الصنعاني: المصدر السابق، ص ٤٥٦ ــ ٤٥٨.
(٨٧) الصنعاني: المصدر السابق، ص ٤٥٧.
(٨٨) الذهبـي: المصدر السابق، ص ٦٨.
(٨٩) راجع هذه الدراسة.
(٩٠) الصنعاني: المصدر السابق، ص ٣٦٣، ٣٧٩.
(٩١) الصنعاني: المصدر السابق، ص ٣٢٢، ٣٤٢ و ٣٤٧.
(٩٢) الصنعاني، المصدر السابق، ص ٣٤٨ ــ ٣٧٣.
(٩٣) الذهبـي: المصدر السابق، ص ٧٣.
(٩٤) الصنعاني: المصدر السابق، ص ٣٢٥ و ٣٣٠.

(*) كان أهل العراق يمثلون مدرسة تاريخية تقوم على علم الأنساب تختلف عن مدرسة المدينة القائمة على علم الحديث وما يرافقه من علوم الفقه والتفسير.
انظر الدوري: **بحث في نشأة علم التاريخ عند العرب**، ص ٦١ ــ ١٠٢ و ١١٨ ــ ١٣٠.

(**) هذا ما أطلق عليه الدوري في كتابه **بحث في نشأة علم التاريخ عند العرب**.

مصادر الدراسة

الكتب القديمة

(١) ابن سعد، أبو عبدالله محمد بن سعد بن منيع: الطبقات الكبرى. (تحقيق إدوارد سخاو، ٩ أجزاء، ليدن ــ بريل، ١٩٤٠).
(٢) ابن سعد، أبو عبدالله محمد بن سعد بن منيع: الطبقات الكبرى، القسم المتمم لتابعي أهل المدينة ومن بعدهم. (من ربع الطبقة الثالثة إلى منتصف الطبقة السادسة)، (تحقيق زياد محمد منصور، الجامعة الاسلامية بالمدينة المنورة، المجلس العلمي، إحياء التراث الاسلامي، الطبعةالأولى، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣).
(٣) الطبري، أبـي جعفر محمد بن جرير: تاريخ الرسل والملوك. (تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف بمصر، ١٩٦٢، ج ٢ و ج ٣).
(٤) الطبري، أبـي جعفر محمد بن جرير: المنتخب من كتاب ذيل المذيل من تاريخ الصحابة والتابعين. (ملحقاً بتاريخ الطبري، ج ١٣، ط. الحسينية، القاهرة).
(٥) ابن خلكان: وفيات الأعيان. (جزءان، القاهرة، ١٢٩٩هـ).
(٦) المزي، جمال الدين أبو الحجاج يوسف بن عبدالرحمن بن يوسف القضاعي المزي الدمشقي: تحفة الأشراف بمعرفة الأطراف. (تحقيق عبدالصمد شرف الدين، بومباي، ١٩٦٥ ــ ١٩٧٢).
(٧) ابن عبد ربه: العقد الفريد: (تحقيق ورتب فهارسه، أحمد أمين، أحمد الزين، إبراهيم الابياري، ج ١، القاهرة، ١٣٥٩هـ/١٩٤٠).
(٨) ابن هشام: سيرة النبـي، كما رواها ابن هشام عن البكائي عن المطلبـي. (دار ريحاني للطباعة والنشر، بيروت).
(٩) الذهبـي، شمس الدين: تراجم رجال روى محمد بن إسحاق رئيس أهل المغازي عنهم. (ليدن ــ بريل سنة ١٨٩٠).
(١٠) الحاجي، خليفة: كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون. (جزءان، استانبول، ١٩٤١ ــ ١٩٤٣).
(١١) أبـي بكر عبدالرزاق بن همّام الصنعاني: المصنّف. (تحقيق الشيخ حبيب الرحمن الأعظمي، ج ٥، منشورات المجلس العلمي، ط ١٠، ١٣٩٢هـ/١٩٧٢).

الكتب الحديثة

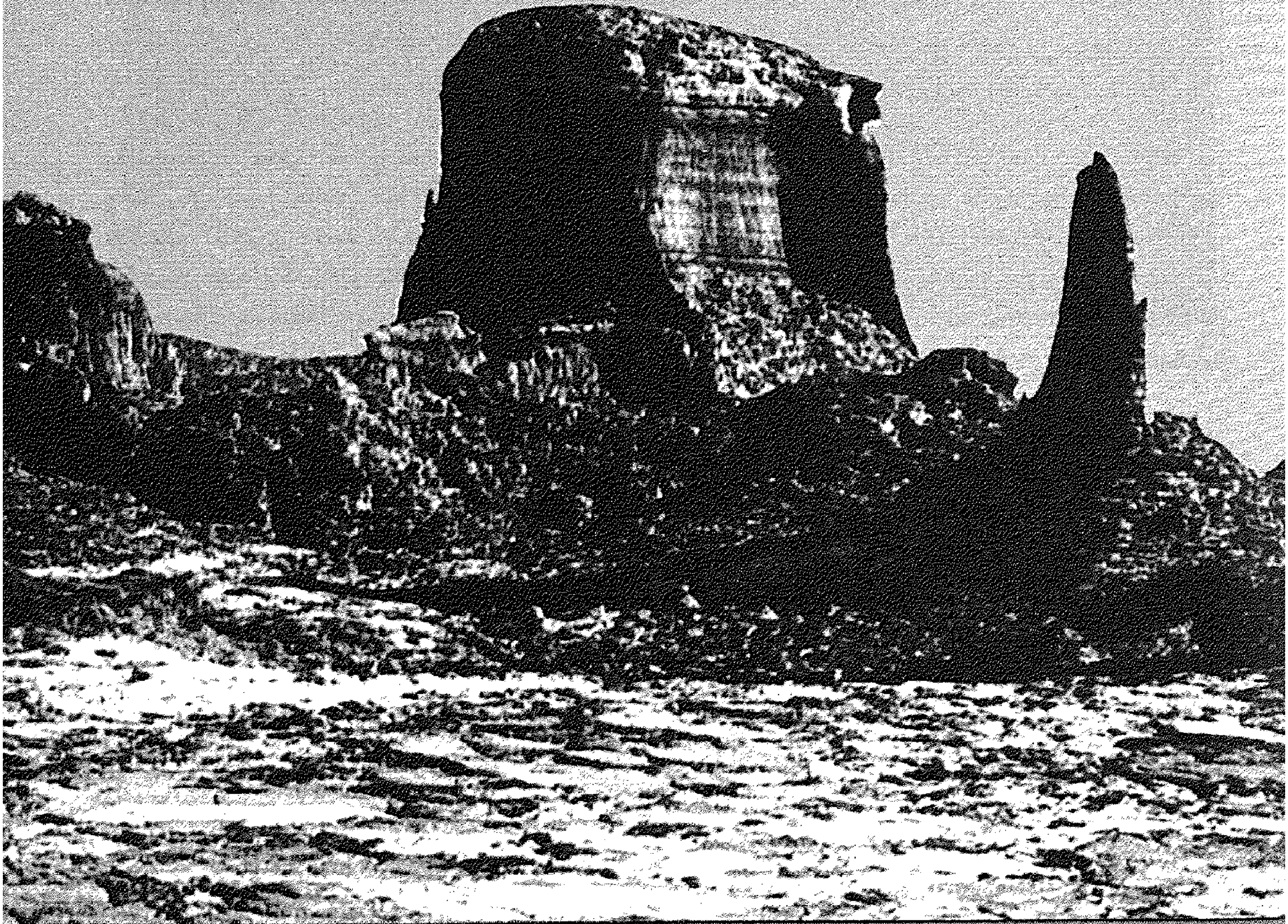
(١٢) الأعظمي، محمد مصطفى: مغازي رسول الله، صلى الله عليه وسلم، لعروة بن الزبير. (منشورات مكتب التربية العربـي لدول الخليج، الرياض، ١٤٠١هـ/١٩٨١).
(١٣) الأعظمي، محمد مصطفى: دراسات في الحديث النبوي وتاريخ تدوينه. (جامعة الرياض، الرياض، ١٣٩٦هـ).
(١٤) السباعي، مصطفى: السنة ومكانتها في التشريع الاسلامي. (الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦١).
(١٥) الدوري، عبدالعزيز: بحث في نشأة علم التاريخ عند العرب. (المطبعة الكاثوليكية، بيروت).
(١٦) زريق، قسطنطين: نحن والتاريخ. (دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٧٤).
(١٧) أمين، أحمد: فجر الاسلام. (دار الكتاب العربـي، بيروت، الطبعة العاشرة، ١٩٦٩).

المقــالات

(1) Somogyi, Joseph: «The Development of Arabic Historiography». Journal of Semetic Studies, 3, (1958).
(2) Gibb, H.A.R.: «Tarikh», in Encyclopedia of Islam, 1st ed., Supplement.
(3) Horowitz, Joseph: «Early Biographies [illegible] Prophet and their Authors». Islamic Culture, I (1975); II (1928).
(4) Duri, A.A.: «Alzuhri, A S[illegible] of History Writing in Islam», BSOAS 19 (1957).

خلفيّة تاريخيّة عن سياسة حكومة السّودان (الحكم الثنائي)

الطيب أبشر الطيب



□ دنقلا، أرض المعادن.

في مجال التعدين ومنح الرّخص والامتيازات على ضوء وثائق مصلحة الأراضي



هذه المجموعة التي وصلت لدار الوثائق المركزية في السودان ـ صنفت بالطريقة العلمية المتبعة وأعدت محتوياتها في قوائم لتكون في متناول الباحثين والدارسين.

ترتكز خطة التصنيف أساساً على نظام ترقيم الملفات وفي حالة ملفات الأراضي هذه اتضح أنها لم ترقم على حسب نظام السكرتير الاداري ولكنها أخذت أرقاماً متسلسلة كما أن المصلحة نفسها كانت تابعة للقضائية ثم انتقلت إلى وزارة الداخلية ثم إلى وزارة الحكومات المحلية.

وضعت كل طائفة من الملفات التي تحمل رقماً واحداً، وهي بالتالي تتحدث في موضوع واحد، في قسم خاص بها فتفصل عن بقية الأقسام الأخرى تحت المجموعة الأم وبذلك انقسمت هذه الأخيرة إلى عدد ٢٤ قسماً تتناول موضوعات مختلفة.

من بين هذه الأقسام قسم يعالج موضوع المناجم وهو الفصل الرابع في المجموعة يحكي عن مناطق التعدين والرخص والامتيازات التي منحت للشركات للعمل في هذا المجال.

ويتناول البحث الكلام عن:

(أ) الثروة المعدنية في السودان.

(ب) سياسة الحكومة فيما يختص بمنح رخص وامتيازات التعدين في السودان في فترة الحكم الثنائي.

(ج) نماذج من الشركات التي عملت في مجال التعدين في السودان.

(د) إحصاء بالرخص الممنوحة لبعض الشركات.

الثروة المعدنية

نقب المصريون القدماء عن المعادن في السودان وفي فترة حكم محمد علي باشا استعان بالباحث الأوروبي المسيو روسيجر وجماعته من النمسا في عام ١٨٣٥ للبحث عن الذهب وزودهم بألف جندي ليخدموا البعثة[١].

يمكن القول بأن صحراء النوبة تمتد جنوباً حتى تصل إلى خط عرض ١٤ شمالاً وفي الجزء الغربي بين النيل والبحر الأحمر تكثر الأحجار النارية والأحجار المتحولة بفعل العوامل الطبيعية كما تكثر صخور الكوارتز والميكا والصخور ذات الطبقة المكونة من بعض المعادن في الأراضي الواقعة جنوبي خط عرض ١٤.

وفي وسط كردفان تمتد صخور الكوارتز والميكا والصخور النارية إلى مسافات تبلغ مئات الأميال المربعة وتكون تلالاً يصل ارتفاعها في بعض الأحيان إلى أكثر من ألف قدم فوق سطح السهل.

أما في بحر الغزال ومنجلا فتكثر صخور الكوارتز والميكا[٢].

صناعة استخراج الذهب

انتشرت في أجزاء كثيرة وخاصة في العتبى ودنقلا وكانت رابحة. كانت أيضاً في مركز فازوغلي وأم باردي والتزامندي وقد هجرت المناجم عند قيام الثورة المهدية. كما أن الذهب موجود في جبيت وقد عمل في المنجم في جبيت آلاف العمال حتى أن السودان صدَّر الذهب بكميات كبيرة في عام ١٩٢٧ إلى انجلترا.

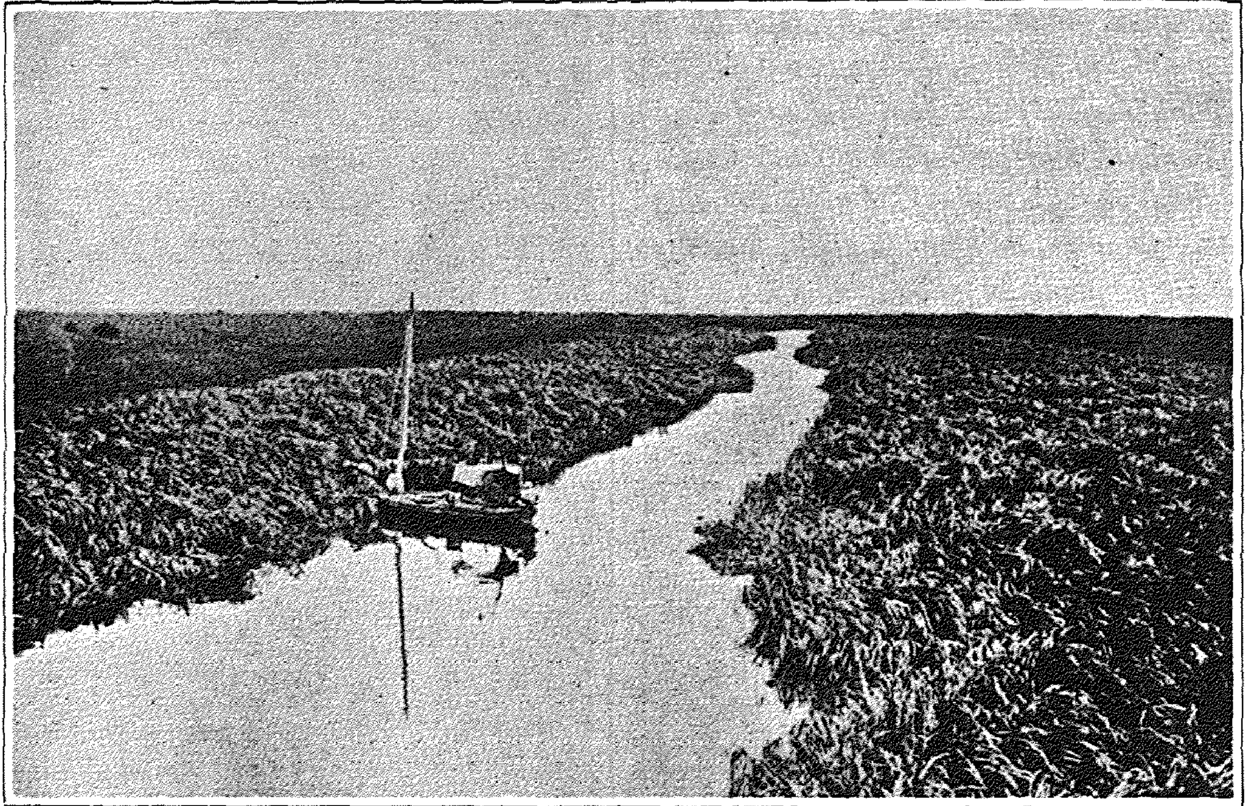
استمر منجم فازوغلي طويلاً. أما المنجم الوحيد بالسودان الذي كان يستخرج منه الذهب عام ١٩١١ فهو منجم أم باردي وقد كان يستخرج منه الذهب بتكسير أحجار الكوارتز التي تحتوي على الذهب.

استخرجت كميات كبيرة من الذهب من المناجم النهرية في مراكز بني شنجل والتومات ودبوس وقد كانت خواتم الذهب تباع في سوق أم درمان[٣].

إلى جانب الذهب هناك معادن أخرى موجودة في السودان فهناك الفحم اكتشف في دنقلا وفي شلجا شمال بحيرة تانا قريباً من القلابات.

ثم يوجد النحاس وأهم مناطقه حفرة النحاس على أحد روافد بحر العرب وتغطي مساحة قدرها نصف ميل مربع.

أما الجبس فتوجد كميات كبيرة منه في شاطىء البحر الأحمر في منطقة تبعد ٤٠ ميلاً شمال بورتسودان ويتراكم ليكون تلالاً تواجه البحر. وإن جزيرة ماكاو تتكون كلها من الجبس ويبلغ سمك الطبقات ثلاثين قدماً[٤].



□ منطقة بحر الغزال حيث تكثر صخور الكوارتز والميكا.

في مطلع الحكم الثنائي الانجليزي ــ المصري في السودان عادت الحركة للمناجم بعد أن توقفت بقيام الثورة المهدية وكان لا بد أن تجذب هذه الأرض الواسعة ومعادنها هذه العديد من المستغلين في مجال التعدين من الشركات وفعلاً فيبدو أن سيلاً انصب على البلاد من هؤلاء وكان لا بد للحكومة أن تواجه هذه الحركة الهامة بالضوابط التي تحقق لها الفوائد المالية الكبيرة فكان لا بد لها أن تسن القوانين التي تحكم مسار عمليات التعدين ومن مجملها ــ أي هذه القوانين وتعديلاتها والرخص والامتيازات التي منحت بمقتضاها ــ تتضح سياسة الحكومة آنذاك فيما يختص بالتعدين كمورد اقتصادي ومصدر من مصادر الدخل.

سياسة الحكومة فيما يختص بمنح رخص وامتيازات

التعـــدين:

إن مساحة السودان الانجليزي ــ المصري تساوي مرتين ونصف مساحة مصر. وقد خضعت هذه المساحة في كثير من أرجائها لعمليات التنقيب عن المعادن منذ القدم، وقد نشطت هذه العمليات في السودان تحت الحكم الثنائي. ويمكن الحديث عن تمليك الأراضي بصفة عامة في هذا الزمن علماً بأن الحكومة تعتبر المالك الوحيد لجميع الأراضي في المساحة المحددة.

تملك الأراضي:

يباح تداول ملكية الأراضي في أنحاء السودان بشــرط تسجيلهـا الذي لا يمكن أن يتم إلا بتصديق من مدير المديرية ولفترة لا تنتقل فيها الملكية مجال وللمدير الرأي النهائي في أن يعطي ويمنع. يعزو بعض الناس هذه الطريقة إلى الرغبة في الرقابة وجعل الأمر في يد الحكومة بحسب ما يلائم سياستها ولكن الحكومة تعلل هـذه السيطرة الادارية بالرغبة في منع سوء الاستغلال وانتهاز بعض المرابـين فرصـة ضعف الأهالي وجهلهم وعدم تعلقهم بالأرض فيطغون عليهم وينزعون ملكياتهم بثمن بخس. لا شك في سلامة هذا الاجراء من الناحية الادارية وإن تعارض مع القـواعـد الاقتصـاديـة وحـريـة التـداول في المعاملات(٥).

أمـا الأراضي التي لا ملاك لهـا فهي ملك للحكومة وإذا رغب أحد في استغلالها ووافقت الحكومة على طلبه فإنها لا تبيعها له بيعاً وإنما تعـطيه حق استعمـالها ويكـون لها الحق في استردادها ولا شك أن في عدم تمليك الأهالي تمليكاً نهائياً ما يبعث على خلقهم من ناحيـة المستقبل وعدم استقـرارهم في خدمـة الأرض وإصلاحها كما لو كانت ملكاً لهم[٦].

أمـا فيما يتعلق بـإيجار الأرض لأغـراض التنقيب فقد منحت الحكومة الرخص والعقود للمناجم واستخراج المعادن وكان أول تشريع بصدد ممثلو الشأن هو قانون استخراج المعادن (رخص البحث) ١٨٩٩.

قانون استخراج المعادن (رخص البحث) ١٨٩٩[٧]

أصدر هذا القانون السيرريجنالد ونجت حاكم السودان وسردار الجيش المصري ويحتوي على عشـرة بنود ويبـدأ بـأن البحث عن المعـادن الخالصة والمشوبة والمـواد المعدنيـة والحجارة الكريمة سواء كانت في بـاطن الأرض أو على سطحها هي جميعاً ملك الحكومة وقد أصدرت هذا الأمر وبمقتضاه يمكن الحصول على رخص البحث عن المعادن واستخراجها.

يحدد القانون في البند (٢) نوعين من الرخص التي يمكن الحصول عليها وهي:

١ ــ رخصة بحث عامة (General Prospecting License)، يقدم طالبها طلباً مكتوبـاً يشتمل على التفصيلات الآتية:

(أ) اسم الطالب وعنوانه وجنسيته.

(ب) القسم الذي يـرغب الطالب إجـراء البحث ضمن دائـرتـه.

٢ ــ رخصة بحث خصوصية (Exclusive Prospecting License)، يقدم للحصول عليها طلب مكتوب يشتمل على:

(أ) اسم الطالب وعنوانه وجنسيته.

(ب) موقع وحـدود الأرض المقدم بشـأنها الطلب مع بيان مساحتها.

(ج) عما إذا كانت الأرض المقدم بشأنها الطلب في حيـازة خصوصيـة أو منتفـع بهـا أو مستعملة بأي طريقة كانت كلها أو بعضها مع بيان مقدار ذلك البعض.

(د) المعـادن الخالصـة والمشوبـة والمواد المعدنية والحجارة الكريمة التي يراد البحث عنها

ويجدد القانون في البند (٦) الحقوق والامتيازات والشروط والنصوص التي منحها الحاكم العام على الرقعة في كل حالة على حدتها.

حقوق وامتيازات رخص البحث العمومية

١ ــ تخول لصاحبها حق البحث شخصياً مع عماله وفعلته على جميع المعادن الخالصة والمشوبة والمواد المعدنية والحجارة الكريمة في كل الأراضي المتروكة الكائنة في القسم أو الأقسام المبينة في الرخصة وتخرج منها الأراضي الداخلة مؤقتاً في رخصة بحث خصوصية وكذلك حق البحث في الأراضي التي في الحيازة الخصوصية الكائنة في القسم أو الأقسام.

ويكون مالكها أو المنتفعون بها قد وضعوها تحت تصرفه لهذا الغرض.

٢ ــ مـدة رخص البحث العموميـة سنـة واحدة.

٣ ــ لا تنتقـل هـذه الرخصة للغـير إلا بموافقة الحكومة.

٤ ــ لا تتـرتب عليها حقـوق وامتيـازات خاصة.

حقوق وامتيازات رخصة البحث الخصوصية

١ ــ تخول لصاحبها دون غيره حق البحث لشخصه أو بواسطة وكيله المسمى مع عمـاله وفعلته عن المعادن المعينـة في الرخصة وضمن دائرة الأرض المحدودة واتسـاع هذه الأرض يحـدد تحديـداً واضحاً في الرخصـة. وهـذه الرخصـة لا تخول لصـاحبهـا حق البحث في الأراضي التي في الحيازة الخصوصية إلا برضاء ملاكها أو الذين ينفقعون بها.

٢ ــ مدتها سنة واحدة وفي نهايتها إذا تبين للحاكم العام أن صاحب الرخصة قـد أجرى البحث المقبول وأنه اتبع من كل الوجوه أحكام

هذا القانون ونصوص رخصته يكون له الحق بعد دفع الرسوم المعنية بأخذ رخصة جديدة عن الجزء الذي يختاره من الأرض التي كانت داخلة في رخصتـه السابقـة بشرط أن الأرض التي يختارها لا تتجـاوز نصف الأرض التي كانت داخلة في رخصته السابقـة وأن تكون قـطعة واحدة.

٣ ــ لا تنتقل هذه الرخصة للغير. ولا يجوز تحويل حقوقها أو حقاً منها أو ترتيب أي حق كان عليها إلا برضاء الحاكم العام.

٤ ــ تخول الرخصة حقوقاً ممتـازة بنص صريح وذلك بحسب استصواب الحاكم العام.

حقوق وامتيازات وشروط أخرى على الرخص

١ ــ لصاحبها أن ينقل ويتصرف بجميع المعـادن الخالصـة والمشوبـة والمواد المعـدنية والحجارة الكريمـة التي تستخرج أو تكتشف أثناء عمليات البحث وذلك بعد دفع الرسـوم المعنية.

٢ ــ يجب عليه أن يقدم بلاغاً إلى الحاكم العام عما يكتشفه من الذهب والفضة والحجارة الكريمة قبل أن ينقله للغير أو يرسله إلى الخارج.

٣ ــ له الحق أن يباشر ما يلزم فقط من العمل لاختبار حالة الأرض المعدنية ويداوم عليه إلى أن يتم اختباره.

٤ ــ يجب عليه أن يسمح للحـاكم العام أو لأي مندوب من رجال الحكومة ينتدبه الحاكم العام للتفتيش في جميع الأوقات المناسبة على أي عمـل يتم بموجب الرخصـة أو لا يـزال تحت العمل.

٥ ــ عليه إبراز رخصته عندما يطلبها منه أحد رجال الحكومة أو أي شخص آخر بيده رخصة بحث بشرط أن يكون للأخير رخصـة أيضاً.

٦ ــ تلغى رخصـة البحث إيجازيـاً بدون محاكم إذا خالف صاحبها أو وكلاؤه أو خدمه أو عماله أو خرق شرطاً من شروطه نصاً من نصوص هذا القانون.

٧ ــ المحـاكم القضـائيـة المؤسسـة في السـودان هي المحـاكم التي لهـا وحـدهـا



□ ريجنالد ونجت، حاكم عام السودان.

الاختصاص بفصل المسائل أو المنازعات التي تحصل بين الحكومة وبـين صاحب الرخصـة فيما يختص برخصة البحث.

٨ ــ كل شخص سواء كان بيده رخصة أولاً إذا أرسل إلى الخارج أو نقل إلى الغير ما يكتشفه من الذهب أو الفضـة أو الحجارة الكريمة بدون أن يكون قد سبق وقدم بلاغاً عما اكتشفه إلى الحاكم العام يضاف ما اكتشفه مع النقود أو المنفعة التي تحصل عليها إلى جانب الحكومة وعلاوة على ذلك يعاقب بغرامة غايتها ١٠٠ جنيهاً مصرياً وإن تأخر عن دفع الغرامة يعاقب بالحبس لمدة غايتها ثلاثة شهور.

وكـل شخص يجـري البحث عن المعـادن الخاصة والمشوبة والمواد المعدنية أو الحجارة الكريمة في أرض تكون في حيازة خصوصية أو في أرض متروكة بدون أن يكون بيده رخصة بحث وكل شخص يباشر أو يشتغل في حفر منـاجم بدون رخصة لحفر المناجم أو تصريح كاف من الحاكم العام يعاقب بغرامة غايتها ١٠٠ جنيهاً

مصرياً وإن تـأخر عن دفـع الغرامـة يعاقب بالحبس لمد غايتها ثلاثة شهور.

غير أنه يجوز لصاحب أرض أن يجري البحث في الأرض التي تحت حيازته بدون رخصة بحث بشرط أن يقدم بلاغاً أولاً عن ذلك إلى الحاكم العام[٨].

صدرت أيضاً مذكرة من الحاكم العام تحوي الشروط التي يجب أن تتوفر لكي تتم بموجبها عمليات التعدين في السودان. وقد حدث أن تعدل قانون رخص البحث لسنة ١٨٩٩ في عام ١٩٠٦.

كيفية الحصول على رخص البحث

يقدم الطالب طلباً مكتوباً لمصلحة الأراضي يكون مستوفياً البيانات الأساسيـة المنصوص عنها في القانون، فإذا وافقت الحكومة على هذا الطلب تحول له الرخصة بعد دفع مبلغ ٢٥ جنيه مصري للبحث لمسؤوليته وبدون تحمل الحكومة لأية خسائر تحدث ولمدة سنة تحدد بدايتهـا ونهايتها في الرخصة كما تحدد المعادن التي يريد البحث عنها وفي غالبيـة الرخص تحدد هـذه بالمعادن الخالصة والمشوبة والأحجار الكريمة.

يستثنى من المعـادن البترول. وقـد منحت رخصة بحث عن البترول في عام ١٩٢٣ لشركة (The D'Arcy Exploration Co.) للبحث في منطقة البحر الأحمر وقد انفردت بهذه الرخصة بعد مفاوضاتها مـع الحكومـة شركـة سودان مـاركنتـايـل[٩] (Sudan Mercentile Co.) كما لا يشمل حق البحث الأراضي الآتية:

(أ) أراضي متعاقد عليها أو داخلة في منطقة بحث أخرى مرخصة للغير.

(ب) أراضي تستخدمها الحكومة في أعمال عامة.

(ج) أراضي زراعية.

(د) أراضي تعلن الحكومة أنها غير مفتوحة للتنقيب.

(هـ) أراضي على بعد أو خلال ١٠٠ متراً من أي منزل مسكون إلا بموافقة الساكن.

(و) أراضي تبعد ١٠٠ متراً من أية مباني حكومية، سكك حديدية، قنوات أو أي منشآت عامة تخص الآثار بدون موافقة الحكومة.

(ز) لا يحق لصاحب الرخصة مزاولة عمله في مناطق خاصة بالأهالي.

هذه الرخصة لا تعني بداية العمل في التنقيب وإنما هي موافقـة للدخول للمسـاحة المعنيـة والمبينـة في الرخصة للدراسـة والاستكشـاف والحصول على النتاج التي بمقتضاها يقرر سواء بتجديد الرخصة أو عدمه وغالباً ما تجدد لسنة واحدة بنفس الرسم السابق إذا رأت الحكومة أن المرخص له يدير أعماله ويوجهها بطريقة سليمة ونافعة ويكون التجديد بواسطة مصلحة الأراضي أيضاً وقد تعلن الحكومة رفضها لتجديد أية رخصة بعد إعلانها في الغازيتة الرسمية لذلك يشترط أن يتقدم طالب التجديد بـطلبه قبـل ١٤ يوماً من انتهاء مدة الرخصة للمرخص له أن يختار المنطقة التي يود التنقيب فيها كما يحق له في حالة الرخصة المجددة، أن يختار منطقة معينة لعمله عـلى أن لا تـزيـد المسـاحـة عن ٢ كيلومتراً × كيلومتر واحد في العرض وتحدد هذه المساحة بعلامات بارزة في أطرافها حسب اللوائح المعمول بها وتكتب على الحامل المرتقع البيانات الآتية:

(أ) الموقع.

(ب) اسم حامل الرخصة.

(ج) تاريخ بداية العمل.

(د) نمرة الرخصة.

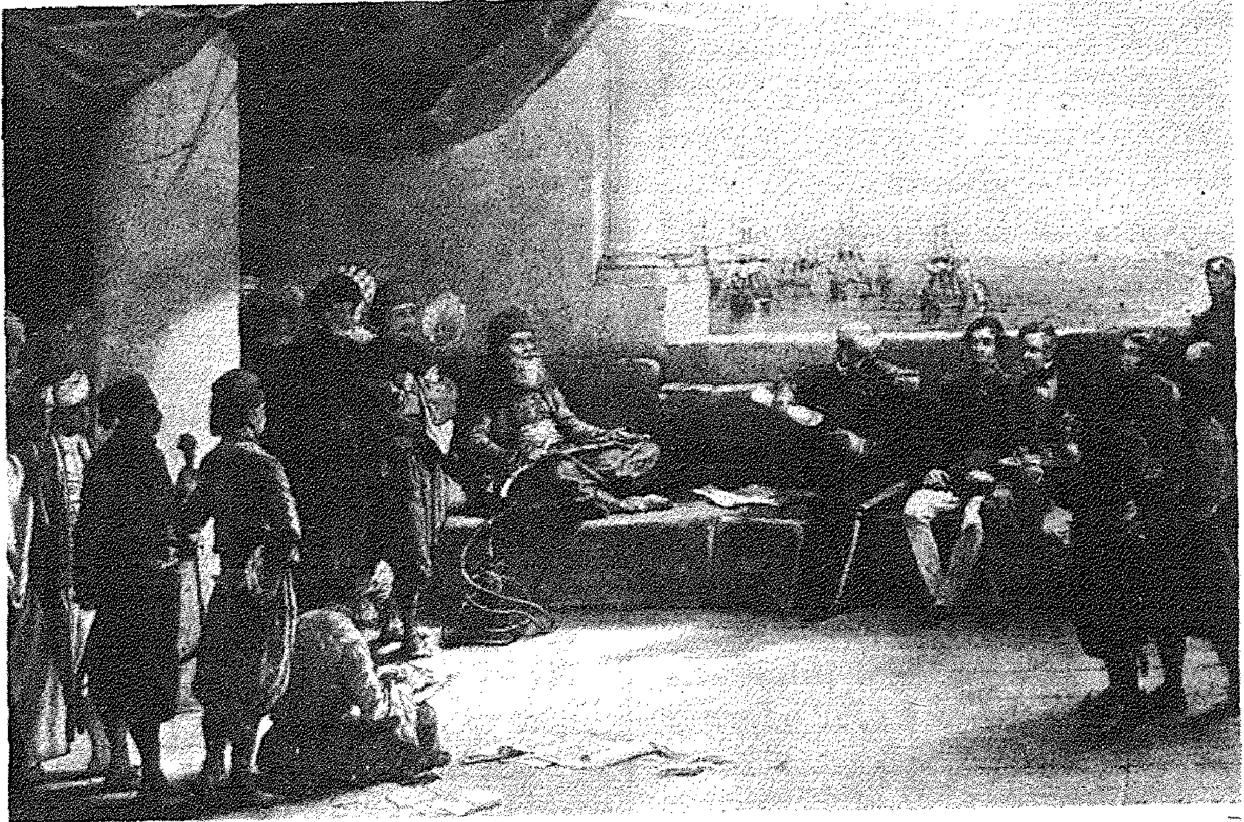
وتقدم خريطة بهذا لمكتب الأراضي بالخرطوم وعليها نفس البيانات السابقة[١٠].

وعلى صاحب الرخصة أيضاً أن يرسل نتيجة دراسته إلى مدير الأراضي خلال ١٤ يوماً من اكتمالها ويرفق معها خريطة تبين الموقع الجغرافي وحدود مساحة البحث.

لا يعني تسجيـل منطقـة التنقيب ضمانـاً صريحاً من الحكومة بـأن هذه المنـطقة لهـا صلاحيات معينة بالنسبة للأرض التي تشملها.

يكون المرخص له متمتعاً بحقه في البحث في منطقة الرخصة الممنوحة له ولكنه لا يعطى الحق في اختيـار منطقـة عمـل أخـرى بمقتضـاهـا مالم ترسل ملاحظاته بهذا الشأن لمساعدي مدير الأراضي.

عليه أن يبدأ عملياته بعد ستة شهور من تسجيل المنطقة بواسـطة الحكومـة وأن يكون



□ محمد علي باشا، استعان بالباحث الأوروبي روسيجر وجماعته من النمسا عام ١٨٣٥ للبحث عن الذهب وزودهم بألف جندي.

العمل مستمراً ولا يتوقف لأكثر من ٩٠ يوماً إلا بموافقة الحكومة وبتصريح مكتوب من الأراضي.

على المرخص له أن يحتفظ بسجل مضبوط للعمل والعاملين وأن يمد مدير الأراضي بالمعلومات الخاصة بهذا في أورنيك خاص يقدم مرة كل ثلاثة شهور.

في أثناء سريان هذه الرخصة أو عند تجديدها لفترة قادمة يحق لصاحبها المطالبة بالحصول على عقد للتنقيب في المنجم (Mining Lease) في أي مساحة من منطقته يحددها حسب اختياره على خريطة ولا تزيد المنطقة المتضمنة في أي عقد عن ٢ فداناً في حالة الأراضي على الأنهار ولا تربو على ٢٠٠ فداناً في كل الحالات إلا في حالة التنقيب عن الفحم ولا تزيد مساحته عن ١٥٠٠ فدان ويكون الايجار السنوي بواقع ١ جنيه عن الفدان الواحد ويدفع في حالة الفحم ١٢ قرشاً.

بمجرد منع العقد لأي جزء من منطقة التنقيب بمقتضى الترخيص يسقط حق صاحب الرخصة في المطالبة بالتعاقد على الأجزاء المتبقية من المنطقة بمقتضى الرخصة ويسلمها للأراضي وتستبدل بالعقد.

لا تنتقل هذه الرخصة للغير إلا بموافقة الحكومة، وبعد دفع رسوم الانتقال للجهة المتعاقد معها.

إذا وجد المنقب شيئاً من الآثار فعليه إخطار الحكومة بذلك حسب قانون الآثار لعام ١٩٠٥.

صاحب الرخصة مسؤول عن الأشخاص الذين يستخدمهم في عملياته من حيث السكن والصحة وبعد نهاية أعماله ورجوعهم إلى أماكنهم بدون مسؤولية الحكومة عن هذا الأمر.

يدفع المرخص له تكاليف تصرفها الحكومة على ترحيلات البوليس لحفظ النظام وسلامة العاملين في منطقة التنقيب. وعليه أيضاً أن يسهل مهمة الحكومة في تفتيش المنطقة بواسطة مفتش المديرية ــ المأمور ــ أو أي ضابط يعين لهذا الغرض وأن يبرز رخصته متى ما طلب منه شخص ذلك.

كما يقوم بتسجيل عنوانه لدى مصلحة الأراضي ويخاطب الحكومة عن طريق هذه المصلحة.

تلغى الحكومة الرخصة إذا حدث إخلال أو نقص لأي من الشروط الواردة فيها وإذا ثبت أن المرخص له لم يتمكن من معالجة هذا الخلل وإصلاحه.

عقد المناجم The Mining Lease

ينص في الترخيص الذي يسمح للمرخص له دخول المنطقة ودراستها تمهيداً لاختيارها للعمل لاستخراج المعادن، بأن له الحق أن يختار جزءاً من هذه المنطقة ويطالب بالحصول على العقد الذي يخول له المشروع في فتح المنجم أو استغلال ما به من معادن. والسلطة التي تمنح العقد هو الحاكم العام. توضح في العقد كل الحقوق والامتيازات الواردة في الرخصة ولكن مدة التعاقد بالعمل بمقتضاه تكون لفترة ٢١ عاماً قابلة لتجديد مدة مماثلة على أن يدفع المتعاقد إيجاراً سنوياً عن العقد بواقع ٢٥ جنيهاً مصرياً كما يمكن أن يمد فترة التعاقد لأكثر من هذا على حسب الاتفاق مع الحكومة كما يتفق أيضاً على الضريبة والايجار السنوي حسب الفئات التي تحددها الحكومة على معظم المعادن فيما عدا الماس الذي تعتبره الحكومة ملكاً لها ويجب أن يسلم حالاً حال العثور عليه.

يدفع المتعاقد في كل سنة الإيجار الجاري كما يدفع أتاوة عن الانتاج تقدر بنسبة ١٠٪ من الفائدة الموزعة[١١].

كما تدفع نسبة ٢٪ من قيمة المعادن المستخرجة بحساب سعر السوق بلندن.

إذا حدث في نهاية فترة العقد أن المتعاقد قد نفّذ أعماله بصورة مرضية تحت الاتفاقية وتقدم بإخطار الحكومة قبل ستة شهور بذلك كتابة يعطى فترة عشرة سنوات أخرى بنفس الشروط الواردة في العقد الأول.

للمتعاقد أن ينهي هذا العقد وذلك بإشعار للحكومة وعندها يعطى مدة ثلاثة شهور ليتمكن من إبعاد ممتلكاته وأن تبقي شيء منها بعد انقضاء المدة تصبح ملكاً للحكومة بدون أن تدفع تكاليفها أو تعويضاً عنها.

لا تزيد مساحة أي منجم على الأبعاد التالية:

الذهب	٦٤ هكتار
الفضة	٦٤ هكتار
المعادن اخرى	١٢٨ هكتار
الفحم	٥١٢ هكتار

قلنا أن منح العقد من اختصاص الحاكم العام ويوقع عليه من جانب الحكومة مع توقيع المتعاقد سواء كان شخصاً أو شراكة. وقبل هذا العقد شرحنا الشروط الواردة في الرخص حتى يصل الفرد أو الجماعة إلى العقد. تشترك معه في هذه الاجراءات مصالح كثيرة أولها مصلحة الأراضي ثم مصلحة السكرتير القضائي — وعليهما متابعة الأداء في عمليات البحث في منطقة التعدين بعد الحصول على العقد.

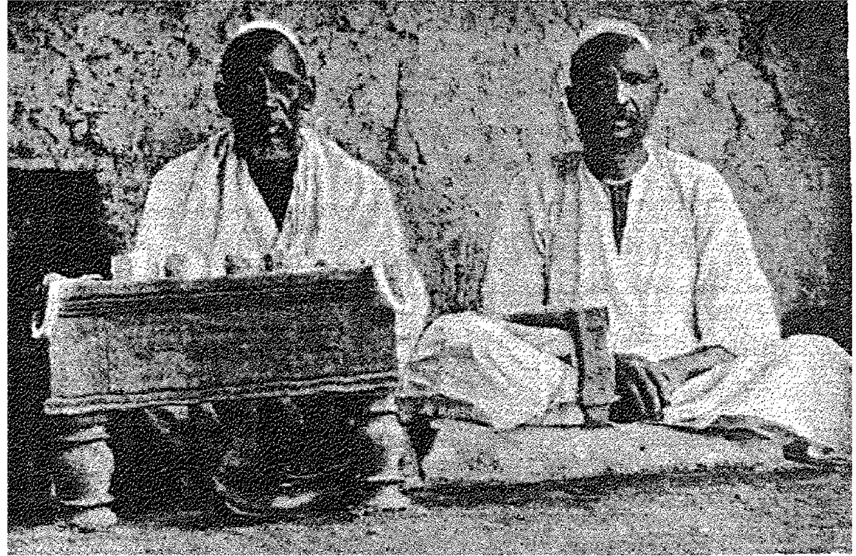
كما على مدراء المديريات الإشراف على المناجم ومتابعة الأداء بها ويقوم الجيولوجيون بدورات تفتيشية مستمرة على المنجم كما يهم هذا النشاط السكرتير المالي من ناحية الأموال التي تجيء من هذه المناجم سواء عن الرخص أو العقود أو الإتاوات المفروضة على الانتاج. ثم تهتم أيضاً مصلحة المساحة بالتعديل وتحتفظ بالخرط التي تصلها من الجهات التي تقوم بالتنقيب حسب ما هو متفق عليه في الرخص والعقود.

بموجب الاتفاقيات تحتفظ الشركة أو المنجم بسجل للحسابات ويخضع هذا للمراجعة، كما على المنجم أن يقدم بلاغات بالأشياء والمعادن التي يكتشفها والكميات التي بيعت وأثمانها للحكومة ولمكتب الأراضي.

كثيراً ما تراكمت الطلبات على مكاتب الأراضي بشأن الحصول على رخص البحث وفي هذه الحالة تقرر وتعطى الرخص على حسب الأسبقية.

كما أن الحكومة تعتمد إلى حد بعيد في منحها للرخص والعقود أن يكون الشخص قادراً مالياً على تنفيذ برامج التعدين وأن تكون له خبرة في هذا المجال. فكثيراً ما تصدق وترفض الطلبات في حالات لا تتوفر في المتقدمين الشروط والمؤهلات ولذلك كان الذي يحظى برخصة يتعاقد مع شركة معروفة ويعتمد على ضماناتها المالية.

ثم هناك عقبة كبيرة تحول دون الحصول على الرخصة وذلك بأن تكون المنطقة المحددة للبحث والمطلوبة لهذا الغرض من قبل مقدم الطلب داخله مسبقاً في منطقة بحث خصوصية تعاقدت الحكومة مع طرف آخر أو أن تكون في



□ صاغة سودانيين، وطريقة عرضهم التقليدية لحلي بلادهم المحلية الصنع.

منطقة مقفولة (Closed District) حسب قانون المناطق المقفولة وهذه المناطق غير مسموح بدخولها إلا بموافقة السكرتير الاداري للحكومة.

نماذج من الشركات التي عملت في مجال التعدين في السودان

تلقت مصلحة الأراضي العديد من الطلبات لرخص البحث عن المعادن في السودان منذ مطلع فترة الحكم الثنائي ذلك لأنها هي الجهة الرسمية التي تقدم لها هذه الطلبات حسب ما ورد في الرخص الصادرة من الحكومة.

تقدم المستر جولدبيرج (Mr. Goldberg) بطلبه للمصلحة في تاريخ ٢٨/٥/٣٠ طالباً منحه رخصة بحث عن الأحجار الكريمة في مساحة حدودها ٤٠٠ × ٤٠٠ ميلاً في الخريطة وقال أنها تقع في منطقة دنقلا وقد ردت عليه مصلحة الأراضي بأن هذه المساحة كبيرة جداً ولا تقع في مديرية دنقلا وحدها كما تبين الخريطة ولكنها تشمل مديريات البحر الأحمر، كسلا، كردفان، الخرطوم، بربر، النيل الأزرق بالاضافة إلى دنقلا وورد في خطاب الأراضي بأن الحكومة لا تعطى ترخيصاً إلا إذا اقتنعت بأن المراد الترخيص له سواء كان فرداً أو شركة قادراً مالياً على القيام بهذه المهام(١٢)..

وقد ذكر مقدم الطلب أنه يطمع في الرخصة لخمس سنوات بدون دفع ضرائب وإذا نجح في الاكتشاف تمد فترته إلى ٥٠ سنة وفي حالة عثوره على أحجار كريمة يدفع للحكومة ١٠ ٪ من فائدتها.

ومثال آخر يبين دور مصلحة الأراضي في تنسيقها لعمل التنقيب كطرف هام في تسيير عمليات التعدين في البلاد. منحت رخصة بحث عادية لمنطقة أم نباردي في ١٩٣٤ للمسمى لورنزاتو وأخوانه (Lorenzato Brothers) ويبدو أنهم لم يوافقوا في الحصول على نتائج طيبة فخاطبوا الأراضي بأن تجدد لهم التخريص لسنة أخرى بدون دفع الرسوم فجاء رد مدير الأراضي بأنه لا يمكن التخلي عن دفع مبلغ الـ ٢٥ جنيهاً وهي الرسوم المنصوص عليها في القانون وعليه فقد امتنعوا عن تجديد الرخصة وانتهت في ١٩٣٥/٣/٣٠(١٣).

ومثال ثالث رفع مستر هـ ويزر (Mr. H. Wither) طلبه بتاريخ ٢٦/٤/٢٩ للبحث عن النحاس في منطقة تسمى بحفرة النحاس على بعد ميل غرب نهر الأبلاشر ــ أحد روافد بحر العرب ــ وقد جاء رد المصلحة على هذا الطلب بأن هذه المنطقة قد سبق التعاقد عليها بين الحكومة وآخرين وما زال التعاقد سارياً(١٤).

يتضح مما سبق أن مصلحة الأراضي تقوم بتنسيق عمل التعدين فيما يختص بمنح الرخص والامتيازات وتحتفظ بسجلات تتضمن الرخص الممنوحة والشركات التي تعمل بمقتضى هذه

الرخص ولعل القائمة التالية تبين جانباً من هذا التنظيم إذ تبين إحصائية بالرخص والشركات التي تحملها من سنة ١٩١٣ إلى سنة ١٩٢٧ ونتعامل مع المتقدمين للطلبات بإمدادهم بمثل هذه الإحصاءات ليكونوا على بينة من أمرهم وهم يتقدمون بطلباتهم للحصول على رخص البحث.

قائمة تبين الرخص الممنوحة والنتائج التي ترتبت عليها من سنة ١٣ إلى سنة ٢٧

السنة	مقدم الطلب	منطقة الرخصة	النتيجة النهائية
١٩١٣	فرانسيس نورتون	بربر ٢ × ١ كيلومتر	انتهت في ١٥/٣/٣١
١٩١١	شركة جبيت	البحر الأحمر هيل	عقد منجم ١٣/١٢/٢٠
١٩١٤	شركة السودان الذهبية	بربر / أم نباردي	بدأت في ١٩١٩/٩/١٧
١٩١٦	شركة السودان الذهبية	حلفا / ام كروش	انتهت في ١٩/١١/٣٠
١٩١٩	شركة السودان الذهبية	البحر الأحمر	
١٩١٩	شركة السودان الذهبية	سنار / خوربايوس ومنطقة مساحتها ٥ أميال حول أبو تقورو	تجددت الرخصة في ١٩٢٠/٤/٣٠
١٩١٩	شركة جبيت	البحر الأحمر	عقد لمنجم وادي أوبو في ١٩٢٠/٣/١
١٩١٩	شركة جبيت	أماتياب	تجديد الرخصة في ١٩٢٣/٩/١٥
١٩١٩	شركة جبيت	البحر الأحمر	ألغيت الرخصة في ١٩٢١/٤/٣٠
١٩١٩	الشركة الأثيوبية	سنار / خورتومات	١٩٢٠/١١/٣٠
١٩٢٠	شهرنهر الكنغو	بحر الغزال ومنقلا	—
١٩٢١	متعدد	بربر	مساحات للمايكا
١٩٢٤	وادي أيو للتعدين عن الذهب	البحر الأحمر	
١٩٢٤	جبيت	البحر الأحمر	
١٩٢٤	ج.د. قاولد	منجلا	تحولت إلى مشروع جديد بعد انتهائها لمشروع شركة نهر الكنغو للتعدين
١٩٢٧	لورنزاتو وأخوانه	البحر الأحمر ٤٥:١٩ خط عرض ١٥:٢٠ طول	١٩٢٩
١٩٢٧	شركة جبيت	البحر الأحمر في منطقة المنجم القديم في أوتيب	

هناك أيضاً طلبات لمساحات تكون خارجة اصلاً عن الحدود السياسية للسودان في ذلك الوقت، أي أنها تقع في الأقطار المجاورة وطبيعي أنها لا تجد تصديقاً وتبعد ما عدا بعض الحالات والتي تكون الشركة قد حصلت على ترخيص من الطرف الآخر الذي يكون الجزء المتبقي من المساحة تابعاً له.

حدث أن تقدمت شركة سودان ماركنتايل (Sudan Mercantil Co.) بطلب للحصول على رخصة وقد جاء في خطابها للأراضي بهذا الطلب أنها تقدم للحصول على رخصة للتنقيب عن المايكا (Mica) في جبل نوبة (Jebel Nuba) بمنطقة الرهد بمديرية كردفان. ولكن مدير هذه المديرية رد على استفسار الأراضي والرامي إلى استشارية في الأمر حتى لا يكون هناك مانعاً في منح هذه الرخصة رد قائلاً بأنه لم يجد ما يسمى بجبل نوبة في منطقة الرهد فسأل مدير الأراضي هذه الشركة عن هذه المنطقة فرد مدير الشركة بأن هناك خطأ حدث في كتابة الموقع وصحح المعلومات لتكون جبال النوبة بمديرية كردفان. وقد منحت هذه الشركة الرخصة نمرة (٢٦) وانتهت في ٢٢/٧/٩ ولم تجدد لعدم توفقها عن العمل[١٥].

شركة السودان الذهبية
The Sudan Gold Field Hd.

هذه الشركة الانجليزية حصلت على رخص بحث وحقوق خصوصية للتنقيب في مساحات واسعة في السودان الشرقي وأهم أعمالها كانت في منجم أم نباردي (Um Nabardi Mine).

والجدول التالي يبين الرخص التي حصلت عليها هذه الشركة:

تاريخ الرخصة	الفترة	المساحة	الايجار	ملاحظات
١٩١٤/٧/٣١	٣ سنوات تجدد في ١٩/٨/٣١	مديرية بربر على ٢١:٢٠ عرض ٣٣:٣٠ طول	٥٠ جنيه	كانت عليها إتاوة بواقع ٢٠٪ من قيمة المعادن المستخرجة
١٩١٥/٢/٢٢	٤ سنوات من ١٣/٩/١ إلى ١٩١٩/٨/٣١	حول ام نباردي	٢٠,٧٥٠	خفض الايجار إلى ١٩,٧٣٠ تبعاً لتخفيض المساحة الكلية
١٨/١١/١٦	سنة قابلة للتجديد	شمال خط عرض ٢٠ في البحر الأحمر	٢٥	حقوق ممتازة في المنطقة المحظورة بين خطوط ٤ ــ ٢١ عرض ٢٠ ــ ٣٩ طول
١٩/٥/١١	سنة قابل للتجديد	البحر الأحمر منطقة فركوت Ferukut	٢٥ جنيه	
١٩/٢/٢٥	سنة قابل للتجديد	شمال خط عرض ١٨	٢٥ جنيه	
١٩/٤/٢٣		مديرية سنار	٧٥ جنيه	تشمل هذه الرخصة حقوقاً في خوريابوس Khor Yabus وحول منطقة أبو نقور Bungoro

كما يبين الجدول التالي العقود التي دخلت فيها هذه الشركة مع الحكومة نتيجة لنجاح عمليات البحث في بعض المناطق التي عملت فيها كما هو واضح من الجدول السابق.

التاريخ	الموقع	الايجار	الاتاوات
١٩٠٤/٢/١ لمدة ١٠ سنوات	منطقة أم بناردي مديرية بربر	١٦١,٨٧٥	١٠٪ من الفائدة
تجدد لمدة مماثلة ١٩١٩/٤/١٧	مساحة جديدة بزيادة على مساحة المنجم القديم	٢٠٠,٥٤٠	

كما منح سير ونجت هذه الشركة امتيازاً بمد خط سكة حديدية لمنطقة المنجم في أم بناردي وحتى محطة نمرة (٦) وكانت تدفع الشركة إيجاراً مقداره (١٢) جنيهاً وقد وقعت معها الاتفاقية بهذا الخصوص في ١٩٠٥/٧/١ كما كان لها الحق بمقتضى هذه الاتفاقية أن تشيد المباني اللازمة لها وأن تحفر الآبار وخلافها.

ومن المناطق التي بقيت فيها هذه الشركة منطقة أم كروش (Um Kurush) التي تقع على بعد (١٨) ميلاً غرب محطة نمرة (٤) من سكة حديد السودان في ١٩٠٦/١١/١٤ لكنها لم تجدد هذه الرخصة في ١٩٠٧/٥/١ أي بعد انقضاء السنة الأولى من استخراجها[١٦].

كانت شركة السودان الذهبية تدفع للحكومة سنوياً إيجاراً يساوي ٣٨٣,٨٧٥ عن كل أوجه النشاطات التي تقوم بها في المساحات المرخصة والتي تعاقدت عليها[١٧].

يبين الاحصاء التالي كميات الذهب المنتجة في أربعة شهور وفوائدها.

الشهر	الأوقيات	الفائدة (بالاسترليني)		
		بنس	شيلين	جنيه
٧	٢٠٧,٦	١٠	٣	٧٤٦
٨	١٥٤,٥	٢	١٦	٥٥٦
٩	٢٣٣,٢٥	٥	٦	٨٥٥
١٠	١٩٤,١	٧	١٢	٧١٠
المجموع		٠	١٩	٢٨٦٨

تدفع الشركة للحكومة ضريبة بواقع ٢٪ من هذه الفائدة وهي محسوبة بسعر سوق لندن.

ثم توقف العمل في منجم أم نباردي.

عينت الشركة مستر كيتو (Mr. Kitto) ليخلف مستر وليم (Mr. H. William) المدير السابق للمنجم. وعند وصوله أجرى تفتيشاً عاماً ابرق بعده الشركة في لندن ناصحاً بضرورة التوقف عن العمل، وقد تلقى تعليمات بالموافقة على التوقف وكانت أسبابه في ذلك ما يلي:

توقف العمل في داخل المنجم وهجره الخبراء الانجليز وذهب الموظفون عنه ولم يبق به سوى المدير وما ذلك إلا لشح المنطقة ونفاذ المعادن وصعوبة استخراج المتبقى منه في المنطقة، كما أن الزراعة في منطقة بربر ودنقلا قد جذبت إليه الأيدي العاملة وتأثرت مالية الشركة من جراء التكاليف الباهظة التي تكبدتها في هذا العمل ومما ساعد على هجر العمل تفشي مرض الانفلونزا.

بيعت ممتلكاتها بمبلغ ٣٥,٠٠٠ جنيه مصري بما فيها المخازن والمعدات وكل الآلات في منجم أم نباردي(١٨).

شركة منجم جبيت The Gabait Tributing Syndicate Ltd.

من ١٩٢٩/٨/١١
From: 11th. August 1929

إلى ٣٥/١٢/٣١ To: 31 December 1935

تعاقدت مع الحكومة في ١٩١٣/١٢/٢٠ على التعدين في منطقة جبيت في مديرية البحر الأحمر على بعد ٦٠ ميلاً غرب محمد قول في مساحة تبلغ ٥٥٠ ياردة في الطول وحوالي ٢٢٠ ياردة في العرض. وحصلت على منحة لمدة ٣٠ سنة مع حق خاص وامتياز بالنسبة للمعادن المستخرجة وحق حفر الآبار ــ مدّ السكك الحديدية، شق الطرق، وإصلاح وتركيب المعدات في نظير أن تدفع للحكومة إيجاراً قدره ٢٤ جنيهاً مصرياً عن كل سنة تدفع في أول يناير كما تدفع عن المعادن ــ خلاف القيمة منها ــ ما قيمته ٢٪ من قيمة هذه المعادن محسوباً على سعر سوق لندن وتدفع أيضاً ضريبة قدرها ١٠٪ بالنسبة للأحجار الثمينة.

حصلت هذه الشركة على مناطق تعدين أخرى في المناطق الثانية بموجب رخص عديدة بالنمرة

□ شلالات الملح تكثر في دنقلا، كغيرها من المواد كالصوديوم والبوتاسيوم والماغنيزيوم.





□ جسر مؤقت للعبور، يعود لعام ١٨٩٨.

٣٢ ــ ٣٦ ــ ٣٧.

قدم طلب بتاريخ ٢٤/٤/١٤ لرخصة للتنقيب عن الذهب في منطقة تبعد ½ ميل من منجم جبيت وقد وضح بأن هذه المنطقة كانت تنقب فيها شركة السودان الذهبية وقد انتهت مدة هذا المشروع وأرفق معه خريطة للمنطقة ومعها شيك بمبلغ ٢٥ جنيهاً قيمة رخصة لتبدأ في ٢٤/٥/١ وأن تكون المنطقة باسم جبيت شرق ــ بمشاورات بين مدير الأراضي ومدير البحر الأحمر والجيولوجيا وموافقة السكرتير المالي ليصدق له بهذه الرخصة تحت نمرة (٣٢)[١٩].

أما الرخصتان الباقيتان فكانتا لمنطقتين بالأسماء التالية:

١ ــ أونيب الكبرى (Onib Major Mine[٢٠])

٢ ــ أونيب الصغرى (Onib Minor Mine[٢١])

منطقة أونيب الصغرى تقع في وادي أونيب (Wady Onib) على درجات ٣٠:٢١ من خطوط الطول و ٣٥:١٥ من خطوط العرض في مديرية البحر الأحمر. تقدمت شركة جبيت للحصول على ترخيص للبحث في هذه المنطقة بعد أن فشل العمل في منجم أيو (Oyo) في شرق جبيت وقد سبق أن أجريت بهذه المنطقة عمليات تنقيب أجراها تايلور (John Taylor & Sons).

حصل مستر توماس كلارك (Thomas A. Clarke) على هذه الرخصة بالنيابة عن الشركة في تاريخ ٢٦/١٢/١٤ بعد أن انتهت الرخصة نمرة (٣٢) في ٢٦/٥/٣١.

ويبدو أن الشركة تحصلت على كميات لا بأس بها من الذهب حتى أغسطس ٢٤ من منجم جبيت ووادي أويو فكما ورد في تقرير مستر كلارك مدير هذين المنجمين أن مقدار الذهب من جبيت في ستة شهور بلغ ٧٧٢٢ وقية وقيمتها ٢٩،٨٣٦ جنيهاً. علماً بأن الحكومة تأخذ ضريبة عنها بواقع ٢٪ كما هو متفق عليه أما من أويو فبلغ ١٨٦٦ وقية وقيمتها ٦٦٠٦ جنيهاً وقد تعطل العمل به لتعطل المعدات المستخدمة في التعدين وانتهت مدة الرخصة في هذا المنجم في عام ١٩٢٦.

من الامتيازات التي حصلت عليها الشركة أنها حصلت على موافقة الحكومة على توقف العمل في منجم جبيت لمدة تفوق المدة المكتوبة في العقد والمحددة بثلاثة شهور كحافز لها في إعادة تجميع



□ الساحة العامة في أم درمان حيث كانت خواتم الذهب تباع في أسواقها.

رأس المال وإعادة فعالية العمل في المنجم ولاعادة تنظيم العمل به وقد تنازلت هذه الشركة عن ممتلكاتها بتاريخ ١٩١٩/١٢/٢٠ وبموافقة مكتوبة مع الحكومة. ●

المصـــادر

(١) Files of Lands — Glass (4) — Mines.

(٢) Sudan Govt. Gazzettle No. 8 Dated 2/1/1900.

(٣) Notes on The Mineral Deposits of the Anglo-Egyptian Sudan — By Stanley C. Dunn — 1911.

(٤) بحوث اقتصادية عن السودان: عبدالله فكري — طبعة ١٩٤٠.

(١) بحوث اقتصادية عن السودان، عبدالله فكري أباظة، ص ٩٥، طبعة ١٩٤٠.

(٢) Notes on The Mineral Deposits Of The Anglo-Egyptian By Stanely C. Dunn — 1911.

(٣) Ditto.

(٤) بحوث اقتصادية عن السودان، عبدالله فكري، ص ٩٦.

(٥) بحوث اقتصادية عن السودان، عبدالله فكري أباظة، ص ٦٥، ١٩٤٠.

(٦) بحوث اقتصادية عن السودان، عبدالله فكري أباظة.

(٧) Sudan Govt. Gazzette No. 8 Dated 2/1/1900.

(٨) Sudan Government Gazzette No. 8 Dated 2/1/1900.

(٩) File No. M/125. Sudan Mercentile Co. Ltd. Prospecting for mice at Gabal Iruba, Rahad District.

(١٠) Regulations for Demacration of Prospecting Areas.

(١١) تدفع مخصصات للحكومة قبل توزيع الفوائد على المساهمين وحملة السندات والقروض.

(١٢) Mines/102-27 Mr. B. Goldberg — Mineral Prospecting in the Sudan

(١٣) M3102-45: Lorenzato & Brothers.

(١٤) M3102-22: Henry J. Wither — Enquiry Re- Mineral Prospecting in the Sudan.

(١٥) File No. M/125: Sudan Mercentile Co. Prospecting for Mice — Rahad District.

(١٦) File No. A & L 18/mines. Sudan Goldfield Ltd.

(١٧) Ditto.

(١٨) File No. 18/Mines. Sudan Goldfield Ltd.

(١٩) File No. M/127: The Wady Oyo (Sudan) Gold Mining Co.

(٢٠) File No. M/103: Gabail Gold Mines (LTD.).

(٢١) File No. M/106: Wady Oyo Gold Mining Syndicate.

من مصادر التاريخ المصري

محمّد زكي رَاغب



□ جانب من معالم معبد الكرنك بالدير البحري

الدلتا والصعيد



حوالي عام ٢٤٠٠ قبل الميلاد. كانت الحضارة المصرية قد وصلت إلى درجة متقدمة إلى حد ما وقد انقسمت مصر إلى مجموعتين من الأقاليم. إحداهما في الشمال يحكمها ملك، وأخرى في الجنوب ويحكمها ملك آخر.

وكان لملك الدلتا تاج خاص به ذو لون أحمر، ولملك الصعيد تاج ذو لون آخر. وفي وقت من الأوقات تغلبت الدلتا على الصعيد وكونت مملكة واحدة، وأصبحت مدينة «هيراقونيوليس» ومكانها الآن الكوم الأحمر، وكانت تسمى «نخن» الواقعة شمال مدينة «ادفو»، مركزاً رئيسياً لممارسة الطقوس الدينية في العصر الذي نسميه عصر ما قبل الاسرات.

ولم يعد أمر الاتحاد الأول في مصر فرضاً من الفروض كما كان من قبل. بل أصبح الآن حقيقة ثابتة. وكانت عاصمة تلك المملكة الموحدة هي «هليوبوليس» الواقعة على مقربة من مدينة القاهرة الحالية.

ولكن قبل ذلك الاتحاد، كانت مدينة «بوتو» الواقعة في غرب الدلتا، عاصمة مملكة الدلتا. وقد اتخذ ملكها نبات البردي شعاراً له. وكانت مملكته تشمل الدلتا وجزءاً قليلاً من مدخل الصعيد. أما ملك الصعيد فقد كانت عاصمته في «الكاب» وهي تقع أمام الكوم الأحمر «هيراقونيوليس». وقد اتخذ نبات الزنبق أو ما يعرف باسم «سوت» شعاراً له، وامتدت حدود مملكته هذه حتى وصلت جنوباً إلى شلال اسوان. هذا وكان الملك، عند توليه العرش يعطى إلى جانب اسمه الأصلي اسماً آخر هو «الحورى». وكان يستخدم كلا الاسمين أو أحدهما. فلما توحد الشمال والجنوب، كان الملك يلبس تاجاً يجمع بين التاجين وهو التاج المزدوج، واحتفظ بلقب «حورس» كما كان يفعل الملوك من قبل.

وفي ذلك العهد شهدت مصر ولادة اختراع هام أحدث تطوراً كبيراً في حضارتها، ذلك هو اختراع الكتابة واستخدامها على بعض الآثار في فترة ما قبل عصر الاسرات، وكان لظهور هذه الكتابة الأثر الكبير في الوقوف على كثير من الأحداث التاريخية التي جرت قبل عهد حكم الأسرة الأولى.

وبالرغم من انفصام عرى الاتحاد الأول بين الدلتا والصعيد واستقلال كل منهما عن الآخر، فإن روابط الاتصال بينهما ظلت قائمة ولم تتأثر كثيراً بذلك، إذ كان النيل يسهل التجارة بين البلاد، وكانت التجارة بدورها تساعد على نشر الثقافة. إلا أن ملوك الصعيد وحكامه كانوا يحاولون الاستيلاء على الدلتا كما تدلنا مشاهد الحروب والمعارك العديدة على آثار ذلك العهد.

وحدة وادي النيل

لقد استكملت مصر كثيراً من مقومات حضارتها بعد ظهور الأسرة الأولى، إذ شهدت ابان عهدها تقدماً في أساليب الزراعة ووسائلها وعرفت الكثير من نظم الري وخاصة في شق الترع. وتغلبت على الصحراء والمستنقعات فاستقطعت الكثير منها وأحالته إلى بقاع صالحة للزراعة.. كما عرفت أيضاً طرق استخراج بعض المعادن وبخاصة الذهب والنحاس من مناجم الصحراء الشرقية واتقنت قطع الأحجار الصلبة وصنعت منها الأواني والقدور وعرفت صناعة النحت.. كذلك عرف المصريون استخدام الحجر في بناء بيوتهم وإن لم يستعملوه على نطاق واسع.. ففي ذلك العهد كان المصريون يعيشون في منازل مبنية بالطين أو من اغصان الأشجار أو النباتات. ومع ذلك، تقدموا في كثير من نواحي الفن، وأحسنوا استخدام مياه النيل، واتقنوا بناء الجسور لحماية انفسهم من هجمات الغزاة. ودجنوا بعض الحيوانات النافعة لهم.

وهكذا يتضح لنا أن الحضارة المصرية قد استكملت معظم مقوماتها الحضارية ولم يكن ينقصها سوى القوة الدافعة. غير أن هذه الأمنية لم تلبث أن تحققت وذلك عندما ظهر زعيم قوي في جنوبي مصر هو زعيم إقليم «ثنى» الواقع بين جرجا والبلينا، فوحد البلاد كلها وأصبح أول ملوك مصر في عهد الاتحاد الثاني وهو الملك «منا»، وكان عهده إيذاناً ببدء عصر جديد.

ومن ناحية أخرى، فقد لعب ورق البردي دوراً كبيراً في نشر العلوم والآداب في العالم القديم

وما زال اسمه يحتل مكاناً مرموقاً في صناعة الورق.

ومن نبات البردي استخدم المصريون أليافه لصنع البرديات التي اكتشفت سليمة وكاملة في بعض مقابرهم مع الصور الملونة لبعض الطيور والحيوانات.

وللفراعنة فضل آخر لا يمكن إغفاله أو التغاضي عنه، فالمقابر المقامة في مدينة «طيبة» ومعابدها وما تحمله من رسوم ترمز لممثلي الشعوب المختلفة وهم يقدمون الجزية والهدايا إلى فرعون مصر، وكذلك الرسوم التي تمثل شعوب جزر البحر الأبيض وآسيا الصغرى وبلاد الرافدين وفلسطين والسودان وليبيا وغيرهم من الشعوب التي تحالفت معهم، كل هذه الآثار تشير إلى أن ممثلي تلك الشعوب ومعهم صناعات بلادهم المختلفة وأسلحتهم وخيرة إنتاجهم من محاصيل ومعادن وأحجار كريمة وغيرها كانت تقدم الهدايا الثمينة إلى فرعون مصر.

وكان نفوذ مصر الثقافي والتجاري في فلسطين كبيراً منذ أقدم العصور، كما كان للأدب المصري والغناء والموسيقى أثر مرموق في جميع الأزمنة وقد تزايد هذا الأثر في أيام حكم «أخناتون» الذي دعا إلى عبادة إله واحد وكانت تلك الدعوة هي الصيحة الأولى المعروفة في تاريخ البشرية التي تقرب من التوحيد الذي جاءت به الكتب السماوية فيما بعد.

وادي الملوك

هو واد مغلق ضيق يقع في البر الغربي للنيل، خلف صخور جبال مدينة طيبة الأثرية الغابرة. وهو من الناحية الجغرافية أخدود غير عميق تحيط به المرتفعات، يواجه من الناحية الشرقية معابد «الكرنك» التي تبعد عنه نحو ثلاثة كيلومترات.

وقصة اختيار هذا الوادي مكاناً لدفن الموتى من الملوك جديرة بالتسجيل، فقد رأى «تحتمس الأول» أن يختار قبره في واد منعزل خلف صخور «طيبة» حفظاً لجسده وصيانة له من أن تمتد إليه أيدي اللصوص.

وكان المصريون القدماء يعتقدون بالخلود. وكانت وسيلتهم لتحقيق هذا أن عنوا بأمر موتاهم وإعداد أماكن محصنة للدفن. ولم يدخروا وسعاً في إحضار حجارة التوابيت الضخمة من أماكن بعيدة. وقد كانت المقبرة في اللغة المصرية القديمة تعني «المقر الخالد للملايين السنين».

ومنذ العصور السحيقة حتى عهد ما قبل الاسرات، اختاروا مقابرهم على حافة الصحراء بعيداً عن أرض الوادي الزراعية التي تغمرها مياه الفيضان سنوياً، أو على سفوح التلال الصخرية حتى تكون بعيدة عن متناول أيدي اللصوص والعابثين، وكذلك لتكون بعيدة عن عوامل الفناء الطبيعية، كالرطوبة التي تحلل الأجساد وتفنيها.

كانت المقابر مجرد حفر بيضاوية أو مستديرة تحيط بها غرف واسعة، تحفر وسط الصخور، ويوارى فيها رفات الميت بعد أن يشكل على هيئة القرفصاء، وذلك بضم اليدين إلى جانب الرأس، والركبتين إلى الصدر وأسفل الذقن وذلك تمثيلاً بوضع الجنين في بطن أمه، ويزود بمجموعة من الأواني الفخارية وقد ملئت بأنواع الطعام كالحبوب والشعير بصفة خاصة والخضر واللحوم، وأسلحته من رماح وسهام، وأدوات الزينة، كالأساور والعقود المصنوعة من حبات الخرز والأحجار الكريمة، والأمشاط من العظم والصدف.

وهكذا زود المصري القديم نفسه بطعامه وشرابه وأثاثه وأدوات الصيد والقتال لينتفع بها في حياته المستقبلة حسب تصوره والتي كان يؤمن بها.

كان «تحتمس الأول» أول من شيد مقبرة له في وادي الملوك، وتلاه «تحتمس الثاني» الذي شيد مقبرته في بطن أخدود غير بعيد عن مقبرة الملك «تحتمس الأول».

أما الملكة «حتشبسوت» التي انتزعت الحكم من أخيها تحتمس الثاني، فقد شيدت لها مقبرتين، الأولى وتقع في منتصف جدار صخري يبلغ ارتفاعه نحو ١٠٠ متر في أقصى غرب الوادي، وأرادت أن تواجه مقبرتها من الناحية الشرقية معبد «الدير البحري» الذي أقامته. أما مقبرتها الثانية فقد شيدتها خلف الحاجز



□ جانب من طريق الكباش الواقع ضمن معبد الكرنك في مدينة الأقصر.

الصخري الذي يفصل بينها وبين «الدير البحري»، وكانت تهدف من وراء ذلك أن تكون قاعة الدفن تحت غرفة مزار المعبد مباشرة، ولكن الذين شيدوا المقبرة لم يحققوا هدف «حتشبسوت»، إذ اتجهوا صوب اليمين لأسباب غير معروفة، وربما تعود إلى طبيعة الصخور أو إلى خطأ في الاتجاه.

وشيد «تحتمس الثالث» مقبرته في مكان صخري غير مطروق في أقصى جنوب الوادي، قريباً من مقبرة «تحتمس الثاني» وتماثلها في هندستها. واختار «امنحوتب الثاني» مقبرته في قاع أخدود في أقصى الجنوب، غير بعيد عن مقبرة «تحتمس الأول». وتلاه «تحتمس الرابع»، وقد شيد مقبرته بجوار مقبرة الملكة «حتشبسوت» القريبة من معبد الدير البحري. وفي هذه المقبرة حدث تطور في هندسة المقابر، فأصبح مدخلها أكثر فخامة من مداخل المقابر الأخرى. واختار «أمنحوتب الثالث» موقعاً جديداً لمقبرته في واد خلفي لم يسبق الدفن فيه، وهذه المقبرة أقل حجماً من بقية المقابر الملكية. أما «أخناتون» فقد شيد مقبرة له في وادي الملوك ولكنه لم يدفن فيها، لأنه نقل عاصمة ملكه إلى «تل العمارنة»، وهناك شيد له مقبرة تقع شرقي المدينة دفن فيها بعض الوقت، ثم نقل رفاته في عهد الفراعنة الذي تولوا العرش من بعده إلى وادي الملوك.

ودفن الملك «توت عنخ أمون» في مقبرة متواضعة في موقع يتوسط الوادي بجوار الملكة «تي» وأخناتون والد زوجته.

وشيد الملك «سيتي الثاني» مقبرته خلف مقبرة «تحتمس الأول» ولكن هذه المقبرة لم يتم العمل فيها. واختار الملك «ست ناخت» موقع مقبرته بجوار مقبرة «تحتمس الثالث»، وأثناء حفرها تداخلت فيها فاضطر إلى هجرها.

حدث بعد ذلك شيء جديد في وادي الملوك، فبعد وفاة «ست ناخت» تولت الحكم زوجته الملكة «تا أوسرت»، وكان وزيرها «باي»، فلما توفي شيدت له مقبرة في الوادي بالقرب من مقابر «ست ناخت» و «تحتمس الأول».

ولما مات الملك «رمسيس الثالث» لم يدفن في مقبرته التي شيدها إذ وجد أن أحجارها هشة فأهملت، ودفن في مقبرة «ست ناخت» بعد أن عدل فيها وجعلها تليق باستقبال موميائه.

وفي وادي الملوك اثنتان وستون مقبرة لملوك وأمراء الفراعنة، وقد ذكرنا فيما سبق أهم مقابر وادي الملوك.

وادي الملوك بعد الفراعنة

أوقف استعمال وادي الملوك كمقبرة للفراعنة سنة ١٠٩٠ قبل الميلاد، واصبح في حراسة الدولة وأعلن الكهنة أن هذا الوادي أصبح بقعة مقدسة لا يسمح لأحد بارتياده.

والواقع أنه صار وادياً مهجوراً يرتاده لصوص المقابر الذين بدأوا يمارسون هذا العمل منذ عهد الملك «أخناتون» سنة ١٣٧٥ قبل الميلاد حيث ضعفت سطوة الفراعنة، واختل النظام والأمن، فجرؤ اللصوص على نهب المقابر الملكية، ولما عجز الحكام عن إيقاف اللصوص عند حدهم ومنعهم من نهب المقابر والاستيلاء على الحلي الذهبية من المومياءات ثم تهشيمها فيما بعد، وتكسير الأثاث والأواني الجنائزية جمعوا ما استطاعوا جمعه من المومياءات التي نجت من التهشيم ونقلوها إلى مخبأ «الدير البحري، كما نقلوا بعض المومياءات أيضاً إلى مقبرة «امنحوتب الثاني». ولم ينج من أيدي اللصوص غير ثلاث مقابر، هي مقبرة الملكة «تي»، ومقبرة «توبو»، ومقبرة الملك «توت عنخ امون». ومنذ اكتشاف مقبرة «توت عنخ أمون» لم يسمح بمزاولة الأعمال الحفرية في وادي الملوك الذي يحتضن معظم المقابر والآثار الفرعونية.

معبد الكرنك.

وهو من أهم مصادر مصر التاريخية، واقدم معالمها الأثرية واقواها تعبيراً واعمقها أثراً في نفس المشاهد، وهو معبد ضخم، مرتفع الجدران، عالي الأعمدة، واسع الأبهاء، طويل الدهاليز. و «الكرنك» اسم كان يطلق على قرية صغيرة هي «ابت اسوت» وهي التي يوجد فيها الآن معبد «آمون»، الضخم الشهير وهذه القرية جزء من المدينة الكبيرة «طيبة» التي كانت عاصمة مصر في العهد الماضي.

وإذا حاولنا أن نتعرف إلى تاريخ الكرنك الذي لعب في يوم من الأيام دوراً هاماً في تاريخ مصر القديم فإنه لا بد لنا من معرفة الدوافع وراء بنائه، والظروف التي أدخلت عليه بعض الزيادات، ومراحل التطور، والظروف السياسية والعسكرية والكهنوتية التي مر بها.

وبالرغم من أن إقليم «طيبة» لم يلعب دوراً سياسياً هاماً في عصر الأسر الأولى، فإننا نرى أن شعار الاقليم قد ظهر كثيراً في الآثار التي اكتشفت في معبد الملك «منقرع» رابع ملوك الأسرة الرابعة.

ويظهر أن عقيدة «آمون» بدأت في الانتشار، في بداية ظهور الدين الجديد للمعبود آمون الذي انتشر انتشاراً واسعاً في إقليم «طيبة».

ولما أسس الملك «أمنحوتب الأول» الأسرة الثانية عشرة، واستقرت له الأمور، بدأ في بناء معبد «الكرنك»، ولكنها كانت بداية قلقة مضطربة، ثم اعتلى العرش بعده «الملك سيزوستريس»، فأمر بتشييد معبد ضخم عثر على أطلاله داخل نطاق منطقة معبد «آمون».

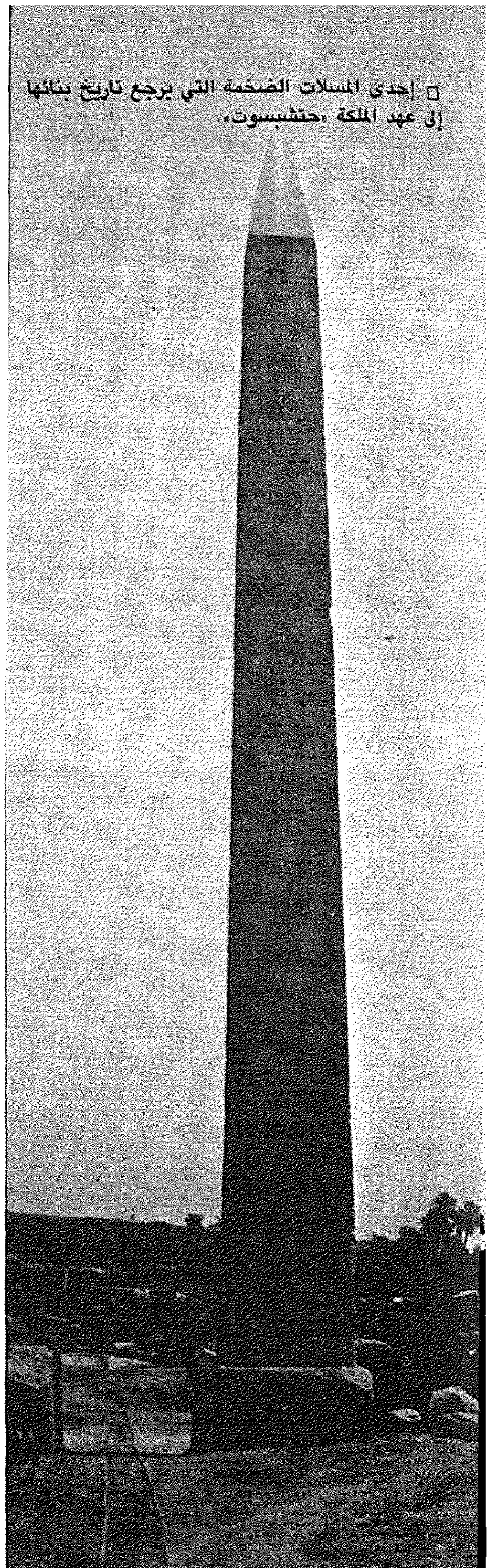
ومن أجمل الأبنية التي شيدت في ذلك العصر مقصورة كان «سيزوستريس الأول» قد أمر ببنائها، ولكن الملك «أمنيوفيس الثالث» هدمها، واستعملت احجار بنائها في تشييد البهو الثالث من معبد «آمون». وبقيت المقصورة مهدمة حتى حضر إلى مصر عالم الآثار الفرنسي «هـ. شفرير» عام ١٩٣٧ ميلادية، فأعاد بناءها شمالي المعبد الكبير.

وفي المرحلة الانتقالية الثانية، قبل الدولة الحديثة، كان أمراء «طيبة» قد بدأوا في محاربة الهكسوس واستطاعوا أن يهزموهم ويجلوهم عن الاقليم، وأن يتفرغوا لتوسيع معبد «آمون» وقد الحقوا به كثيراً من الأبنية، واقاموا فيه بعض النصب التذكارية التي امكن العثور عليها حديثاً أثناء عمليات الحفر والتنقيب.

* * *

لقد شهد معبد «الكرنك» عصره الذهبي في عهد المملكة الحديثة، حين أصبحت «طيبة» عاصمة لمصر في عهد الأسرة الثامنة عشرة. ففي ذلك العهد، نما بناء المعبد واتسع حتى كان مجموع البناء ثلاثة أبنية كبرى منفصل كل منها عن الآخر، ويحيط بها سور مرتفع من الآجر.

ومن المباني التي امر «تحتمس الأول» بتشييدها داخل بناء معبد «آمون» مكان يتكون



□ إحدى المسلات الضخمة التي يرجع تاريخ بنائها إلى عهد الملكة «حتشبسوت».

من ثلاث صالات. وتعرف هذه الصالات الثلاث بالصالات الرابعة والخامسة والسادسة، وتؤدي جميعها إلى داخل معبد آمون الكبير. ثم أمر بعد ذلك بإنشاء مسلتين عند الصالة الرابعة، وهي الصالة التي كان يسلكها الملك في الدخول إلى المعبد.

ولما تولى «تحتمس الثاني» مقاليد الحكم، أمر بحفر اسمه على جدران المباني التي شيدتها الملكة «حتشبسوت» في منطقة المعبد الكبير، ومع أن هذه الظاهرة قد توحي باهتمام «تحتمس الثاني» بمعبد الكرنك، إلا أنه لم يثبت في مخطوطات عديدة أنه كان من أتباع عقيدة «آمون».

وكانت «حتشبسوت» ملكة قوية الشخصية فأمرت بتشييد كثير من الأبنية بالقرب من المعبد الكبير، بالإضافة إلى ما أمرت بإدخاله من الزيادات في معبد آمون نفسه، فأمرت ببناء بهو لمراكب الشمس واختارت له الجزء الأوسط من معبد تحتمس الأول، ثم أمرت ببناء عدد من الغرف على كل من جانبيه وهي ما تسمى الآن «بشق الملكات». وقد أقامت «حتشبسوت» إلى جانب ذلك أربع مسلات، اثنتان منها بين الصالتين الرابعة والخامسة، والأخريان عند الجدار الشرقي للبهو.

وعرف «تحتمس الثاني» بطموحه في توسيع حدود مملكته إلى أكبر حد ممكن. ولم يكن نشاطه المعماري بأقل من ذلك.. فقد أنهى بناء معبد «آمون» على مستوى واسع، وأضاف إليه بهواً رائعاً به عدة غرف وردهات صغيرة للمتعبدين، وقد أهدى هذا كله إلى المعبود «آمون»، ولكنه ذهب إلى حد المبالغة في التعبير عن حبه لنفسه، بعد أن ساءت العلاقة بينه وبين عمته الملكة «حتشبسوت». وهناك كثير من الشواهد في معبد «الكرنك» وإقليم «طيبة»، تدل على برودة إحساسه تجاه عمته، وقد عثر المنقبون على بقايا سجلات تصف تاريخه وحروبه والأحداث التي وقعت في عهده. وكان تحتمس الثاني يحرص دائماً على أن يبرز في مخطوطاته وسجلاته على جدران معبد «آمون»، إنه ملك مصر المحبوب.

تقلد مقاليد الحكم بعد ذلك الملك «امينوفيس الرابع» الذي اشتهر في التاريخ الفرعوني بحركته الدينية ودعوته إلى عبادة الإله الواحد الذي سماه «آتون»، وهكذا غير اسمه وأطلق على نفسه اسم «أخناتون».

وقد أعقب حركته الدينية تغيير إقامته في «طيبة» الموطن الأصلي لآمون، وانتقل إلى تل العمارنة وهو المكان الذي اختاره عاصمة لملكته وبنى لـ «آتون» معبداً جديداً، لم يدم طويلاً. إذ هدمه بعد موته كهنة «آمون» الذين استعادوا السلطة مرة أخرى.

وقد أثبتت الحفريات وجود معبد «آتون»، بل وحددت مكانه وعثرت على تمثال الملك «أخناتون» وهو تمثال ضخم يستند إلى أعمدة المعبد، كما عثرت على آثار أخرى ترجع إلى عهده أمكن التعرف إليها من خلال نقوشها التي تتميز بأسلوب فن العمارة.

تولى الحكم بعد «أخناتون» ابنه الملك «توت عنخ آمون». وإذا درسنا آثار هذا الأخير وعصره. فإننا نجد أنه بالرغم من كونه شاباً صغير السن، ضعيف البنية، وما خلفته حركة «أخناتون» من انقسام وعداوات، قد جعل مهمة تنظيم البلاد داخلياً أمراً غير يسير، وإن الأمر كان يحتاج إلى شخص قوي حازم لإصلاح كل ما فسد. ولكن «توت عنخ آمون» كان صغير السن لم يتجاوز التاسعة من عمره، وكانت الأمور بيد كهنة آمون الذين أخذتهم نشوة النصر واستبدت بهم..

ولكن مع هذا كله، ظل الفن في ازدهار مطرد وساهم «توت عنخ آمون» ببعض الأبنية في منطقة «الكرنك» وأهداها إلى معبد «آمون» ليس تعبيراً عن إيمان بعقيدة آمون، وإنما لتخليص نفسه من اتهامات الكهنة له بإخلاصه لـ «آتون» الذي دعا إليه أبوه من قبل.

ومات «توت عنخ آمون» وهو في ريعان الشباب إذ لم يكن قد تجاوز العشرين من عمره، ودفن في قبر صغير ربما كان قد أعدوه لغيره، وملأوا حجراته الأربع، وكدسوا فيها الأثاث، وما اعتادوا وضعه مع رفات الملوك، ولونوا بعض الجدران على وجه السرعة.

ونحن إذ نقف اليوم على هذا القبر الصغير تستولي علينا الدهشة، ونسائل أنفسنا، كيف اتسعت هذه المساحة لما نراه في قاعات المتحف المصري من آثار كثيرة، وكيف يتلاءم هذا القبر المتواضع مع ذلك الأثاث الفخم الكبير، ويبدو أن الملك «توت عنخ آمون» لم يكن قد أعد لنفسه قبراً، فلما مات في هذه السن المبكرة وضعوا مع رفاته إلى جانب بعض الأثاث الشيء الكثير من المتاع الشخصي في ذلك القبر غير الملائم.

وعندما كشف عن قبر «توت عنخ آمون» وجدت باقة زهر صغيرة وضعتها الملكة الشابة الحزينة بيدها فوق صندوق المومياء الذهبي، فكانت تحية وداع لزوجها ورفيق صباها الذي تركها إلى العالم الآخر. ودام حكم «توت عنخ آمون» نحو عشر سنوات، عاش السبع الأخيرة منها في «طيبة» ومات دون أن يكون له ولد من بعده، ولم يتجه الكهنة إلى أمير من أمراء العائلة، بل وصل إلى العرش رجل غريب عن البيت المالك وهو «آي» الذي لعب دوراً كبيراً أثناء حياة «أخناتون»، وكان المدبر لانتقال «توت عنخ آمون» إلى طيبة، وصاحب الرأي الأول في البلاد.

تزوج «آي» من الملكة «عنخس آن» زوجة «توت عنخ آمون»، ولم يدم حكمه أكثر من ثلاث سنوات شيد خلالها بعض المباني كان أهمها هيكله الواقع في جبل مدينة «أخميم».

سيتي الأول

ليس هناك أي شك، في أن أهم الأبنية المعمارية في منطقة الكرنك، هو صالة الأعمدة الشهيرة التي بناها الملك «سيتي الأول» وأكملها فيما بعد «رمسيس الثاني»، وهي تقع بين الصالتين الثانية والثالثة، ويتصل بالصالة الوسطى من جانبيها الشرقي والغربي صفان من الأعمدة يتكون كل منهما من سبعة أعمدة، وفي المنطقة العليا لمراكب الشمس توجد عدة نوافذ مزودة بأعمدة من الحجارة، كما أن هناك فتحات أخرى تساعد على إدخال الضوء إلى الصالة. والنقوش والمخطوطات المنحوتة على الجدران الداخلية والخارجية للبهو، يمكن قراءتها وهي سجل لأعمال «سيتي الأول»،

خصوصاً الحربية منها، وانتصاراته في سوريا وفلسطين وليبيا، كما وأن هناك بجوار ذلك، مخطوطات أخرى تسجل انتصارات «رمسيس الثاني» على شعوب البحر الأبيض المتوسط وقد أمر «رمسيس الثاني» بإقامة تمثالين كبيرين له أمام البهو الثاني من حجر البازلت، كما أمر بتزيين الدهليز الممتد أمام هذا البهو بالنقوش والخطوط، ثم بنى طريق الكباش الموصل إلى المعبد من ضفاف النيل، أما الصالة التاسعة فقد وضع أمامها تمثالين كبيرين له ولزوجته الملكة «نفرتاي».

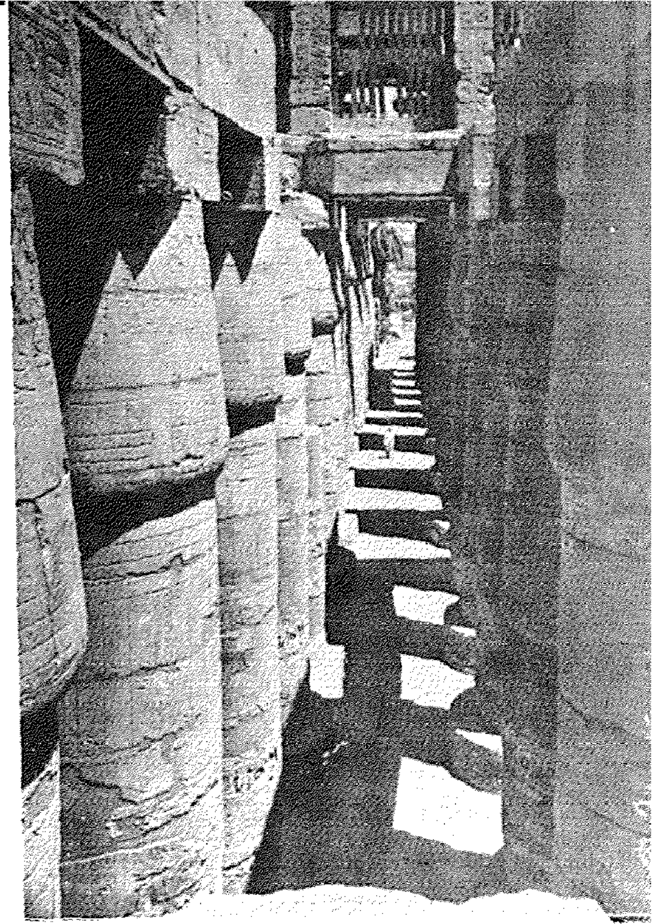
وخلف «رمسيس الثاني» على عرش مصر الملك «منربتاح» وقد ترك هذا الملك كثيراً من الآثار في منطقة الكرنك، وهي جميعها تحمل اسمه، ومن أهمها تلك المخطوطات المحفورة على جدران الصحن الشرقي والتي سجلت انتصاراته على ليبيا وشعوب البحر الأبيض المتوسط. أما «سيتي الثاني» آخر ملوك الأسرة التاسعة عشرة، فقد أمر ببناء صالة أمام معبد «موت»، وصالة أخرى أمام معبد «آمون» الكبير بالكرنك.

وقد ساهم ملوك الأسرة العشرين بأبنية كهنوتية في منطقة الكرنك ووهبوها لمعبد «آمون» ولكن أبرز الأعمال المعمارية التي تنتسب إلى هذه الأسرة ترجع إلى عهد «رمسيس الثالث».

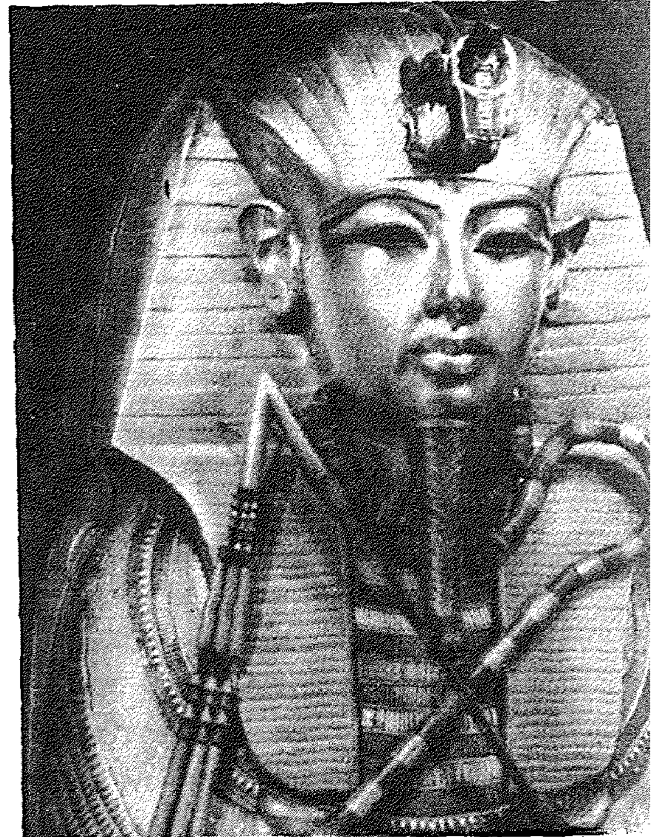
حكم الملوك الكهنة

بعد أن انطوت صفحة الأسرة العشرين استولى كهنة معبد «آمون» على ملك مصر، وهكذا كان ملوك مصر ابتداء من الأسرة الحادية والعشرين من الكهنة. وقد قاموا بتسجيل أسمائهم على جدران المباني التي بناها ملوك الأسر السابقة في منطقة الكرنك لمعبد «آمون» أما هم أنفسهم، فلم يقيموا بناءاً واحداً ولم يسهموا بعمل معماري واحد، ولكن علماء الآثار المصرية استطاعوا أن يقفوا على هذه الحقيقة وتأكدوا من مغالطات الملوك الكهنة وتضليلهم.

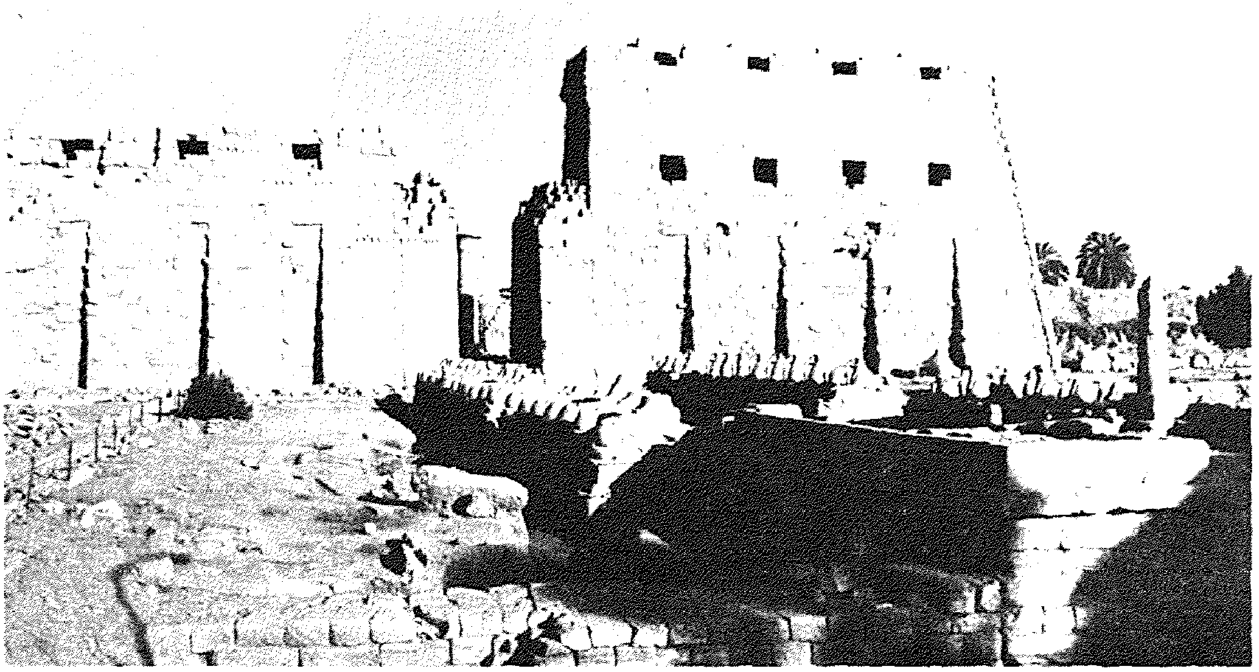
أما ملوك الأسرة الثانية والعشرين، فقد أثبتوا وجودهم في الكرنك ببناء بوابة ضخمة في الزاوية الجنوبية الشرقية للصحن الأول من معبد «آمون» بين معبد «رمسيس الثاني» والبهو الثاني.



□ بعض الأعمدة الضخمة التابعة لمعبد الكرنك تزينها الرسوم والنقوش الفرعونية القديمة.



□ تمثال الملك الشاب «توت عنخ امون»، وهو موضوع من الذهب الخالص.



□ بقايا احد المعابد الأثرية التي تضمها مدينة الأقصر.

عهد الاسكندر الأكبر

من المعروف أن الاسكندر الأكبر، بعد أن فتح مصر، لم يتوجه فقط إلى كهنة «آمون» في واحة «سيوه» بل أعلن أيضاً ارتباطه بمعبد «الكرنك»، وقد أحدث الاسكندر الأكبر بعض التغييرات المعمارية في الصالة الخلفية التي بناها «تحتمس الثالث» والتي نالت منها أيدي الأشوريين من التخريب أكثر من غيرها من أبنية معبد «آمون» وقد شملت هذه التغييرات بعض المخطوطات والنقوش التي أمر بحفرها على جدران المعبد، والتي كانت بمثابة التعابير الدينية القديمة.

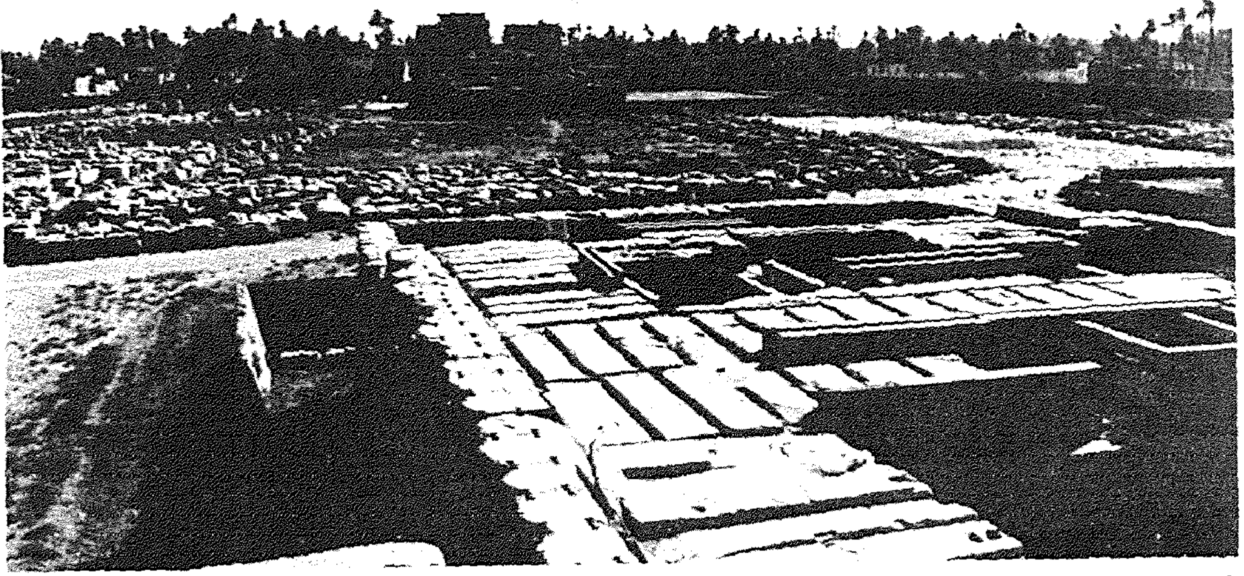
ولما ورث البطالسة حكم مصر بعد موت الاسكندر الأكبر بنى «فيليب أرهيديس» عند مركز معبد «آمون» الكبير وتحت مباني الملكة «حتشبسوت» مقصورة كبيرة من حجر البازلت، لتأدية الطقوس الدينية.

ومع أن أهل «طيبة» ومنطقة «الكرنك» ثاروا ثلاث مرات متوالية ضد حكم البطالسة، إلا أن ثوراتهم جميعها لم تأت بأية ثمرة، فقد استطاع البطالسة أن يقنعوا المصريين بأنهم ليسوا دخلاء عليهم، ولكنهم من سلالة الفراعنة، وقد لجأوا، كما فعل النوبيون من قبل، إلى المبالغة في تقديس «آمون»، وأقاموا له كثيراً من الأبنية بجوار معبده، هذا بالاضافة إلى النقوش والمخطوطات التي أمروا بحفرها على جدران المعبد القديم.

العصر القبطي والبيزنطي

عندما فتح «أوكتافيان ــ اغسطس» مصر سجل اسمه على جدران معبد الكرنك، كما فعل الاسكندر الأكبر من قبل، واعترف به كهنة آمون على أنه «ابن المعبود»، ولهذا سمح له بإقامة تمثال له في داخل المعبد.

ومنذ نهاية القرن الرابع الميلادي، كانت المسيحية قد وجدت طريقها إلى مصر وانتشرت في إقليم «طيبة» انتشاراً واسعاً، واعتنقها كثير من أهل الاقليم، بل أن كثيراً من كهنة «آمون» انفسهم تخلوا عن دينهم القديم واعتنقوا المسيحية، وشرعوا في تحطيم التماثيل والصور والمخطوطات التي تمجد الوثنية وترمز لها، وأفنوا كثيراً من النقوش الوثنية على جدران المعبد الذي قلت قيمته وفقد هيبته في أعين العامة من المصريين. ثم زحفوا إلى المنطقة التي كانت يوماً مقدسة في أعينهم وسكنوها وبنوا بها منازلهم ولم تتوقف في هذه الفترة أعمال البناء لمعبد «آمون» فحسب، بل وإن كثيراً ممن اعتنقوا المسيحية دخلوا المعابد وحولوها إلى كنائس



□ بعض المعالم الأثرية التي خلفها المصريون القدماء في مدينة الأقصر التاريخية.

لممارسة الطقوس الدينية فيها.

الرهبانية في الدين المسيحي

لقد حوت تعاليم المسيحية كثيراً من بذور الزهد والرغبة عن الدنيا، مما يعتبر نواة لحياة الرهبانية والديرية في الديانة المسيحية، ففي هذا العهد الجديد انتشرت حياة الرهبانية وأصبحت شيئاً مألوفاً في العالم المسيحي قبل القرن الرابع للميلاد.

وكانت هناك عدة عوامل ساعدت على انتشار حياة الرهبانية بين المسيحيين في ذلك الوقت، أهمها ما تعرضوا له من اضطهادات وحشية من جانب الحكومة وعملائها في الولايات وهي الاضطهادات التي بلغت ذروتها في عصر الامبراطور «دقلديانوس» والتي جعلت المسيحيين يطلقون على الفترة الأخيرة من حكمه اسم «عصر الشهداء». كما اتخذ أقباط مصر سنة اعتلائه العرش عام ٢٨٤ ميلادية بداية التقويم القبطي وهكذا اضطر كثير من المسيحيين إلى الفرار بعيداً عن أعين الحكام لينقطعوا لمباشرة طقوس ديانتهم الجديدة في أمان وسلام.

وفي أوائل القرن الرابع للميلاد، وجد بعض المسيحيين فجوة واسعة بين تعاليم المسيحية وروحها وبساطتها ومثلها من ناحية، وبين المجتمع الروماني المحيط بهم. والذي اتصف عندئذ بالانحلال والفساد والجشع من ناحية أخرى، مما جعلهم يطمعون في حياة جديدة يحققون في ظلها المثل الروحية للديانة المسيحية. إذا أضفنا ذلك، إلى رغبة المسيحيين في الخلاص من العذاب الوحشي الذي تعرضوا له في عصور الاضطهاد، أدركنا في نهاية الأمر العوامل الأساسية التي ساعدت على ظهور الرهبانية في المسيحية.

وحياة الرهبانية بدأت لأول مرة في أرض مصر بالذات، وذلك بإجماع آراء المؤرخين، ولا ندري بالضبط السبب في ظهور الرهبانية المسيحية في مصر قبل غيرها من البلاد الأخرى التي عرفت المسيحية ووجدت فيها جاليات مسيحية في وقت مبكر.

ويبدو أن جو مصر المعتدل من ناحية وكونها جزءاً أساسياً من المسرح الأول للديانة المسيحية من ناحية ثانية، وتعرض المسيحيين لموجة من أعنف موجات الاضطهاد الديني التي شهدها العالم في أواخر القرن الثالث وأوائل الرابع من ناحية ثالثة، كل هذه وغيرها كانت، ولا شك، من العوامل الرئيسية التي مهدت الطريق أمام ظهور الرهبانية.

حملة نابليون بونابرت

كانت حملة «نابليون بونابرت» على مصر نقطة انطلاق جديدة في أعمال البحث عن آثار الكرنك. فقد سارت أعمال البحث منذ تلك الفترة طبق خطة منظمة، ووزعت الأعمال على علماء الآثار وكان من أنشطهم وأمثرهم حماساً، العالم الفرنسي «جيوفاني بلزوني» الذي أوقف أبحاثه للعثور على آثار «طيبة» و «الكرنك» واستمرت أعمال البحث حتى منتصف القرن التاسع عشر، حين تولى العالمان الأثريان الفرنسيان «مريت» و «ماسبيرو» إدارة الآثار المصرية في إقليم «طيبة»، فوضعا خطة أخرى أكثر إحكاماً من الأولى أتت بنتائج طيبة، حتى أنه يمكن القول بأن أعمال البحث عن آثار «الكرنك»، قد بدأت فعلاً منذ أن تولى العالمان الفرنسيان إدارة الآثار المصرية، ثم توالت بعثات علمية من دول أخرى غير فرنسا، شاركت في أعمال البحث والتنقيب من بينها بولندا.

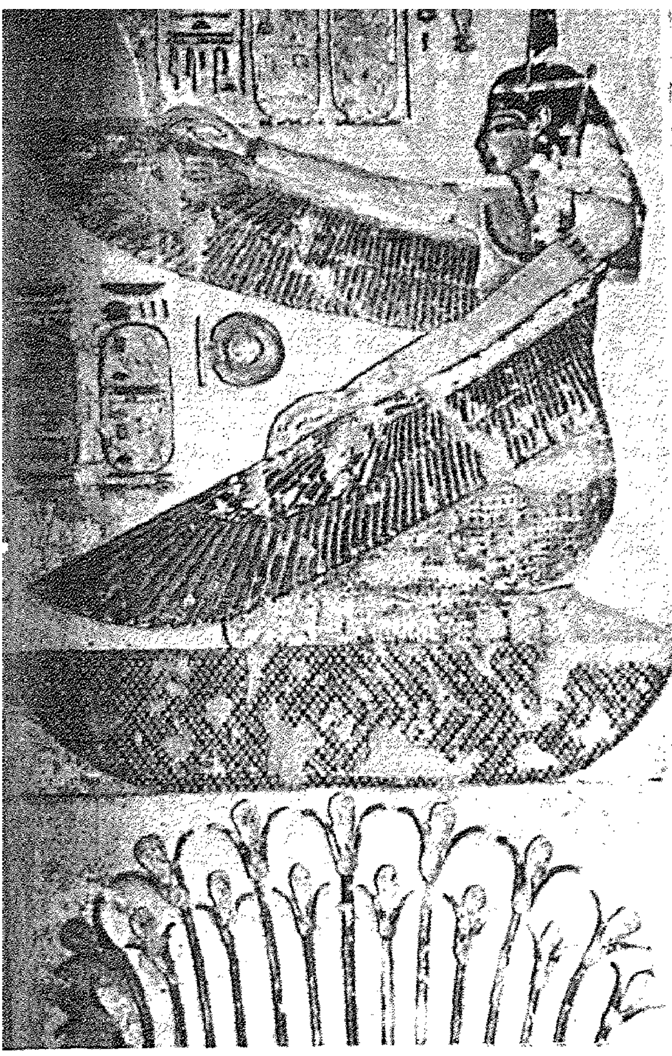
وفي وقت لاحق من عام ١٩٧٠، عثرت البعثة الفرنسية المصرية المشرفة على الحفائر والتنقيب داخل معبد «الكرنك» والمؤلفة من «جان لويتس لوفريه» و «بيير آنوس» و «رمضان سعد»، عثرت بين الساحة الأولى التي تؤدي إلى طريق الكباش في معبد الكرنك، على تمثالين قابعين من حجر الجرانيت الأسود، واستطاعت البعثة إثبات شخصية صاحب التمثال الأول وهو الكاتب الأديب «منتوحتب» من الأسرة الثامنة عشرة، أما التمثال الثاني فلم يجدوا عليه إلا رمز الكتابة (سشت).

وبهذا الاكتشاف الجديد استطاع العالم كله أن يعرف الكثير عن تاريخ الكرنك ومعبد آمون.

انطباعات مفتش الآثار

في خلال الفترة التي كنت أعمل فيها مفتشاً للآثار، عثر على كل القبور المدفونة في بطن الوادي.

لقد حدثت الاكتشافات في وادي الملوك فجأة، إذ حدث أن تكشفت فوهة إحدى المقابر عن مجموعة من الدرجات المنحوتة في الصخر تؤدي إلى باب يسده جدار سميك من الأحجار الضخمة، توجد في الجزء الأعلى منه ثغرة كبيرة



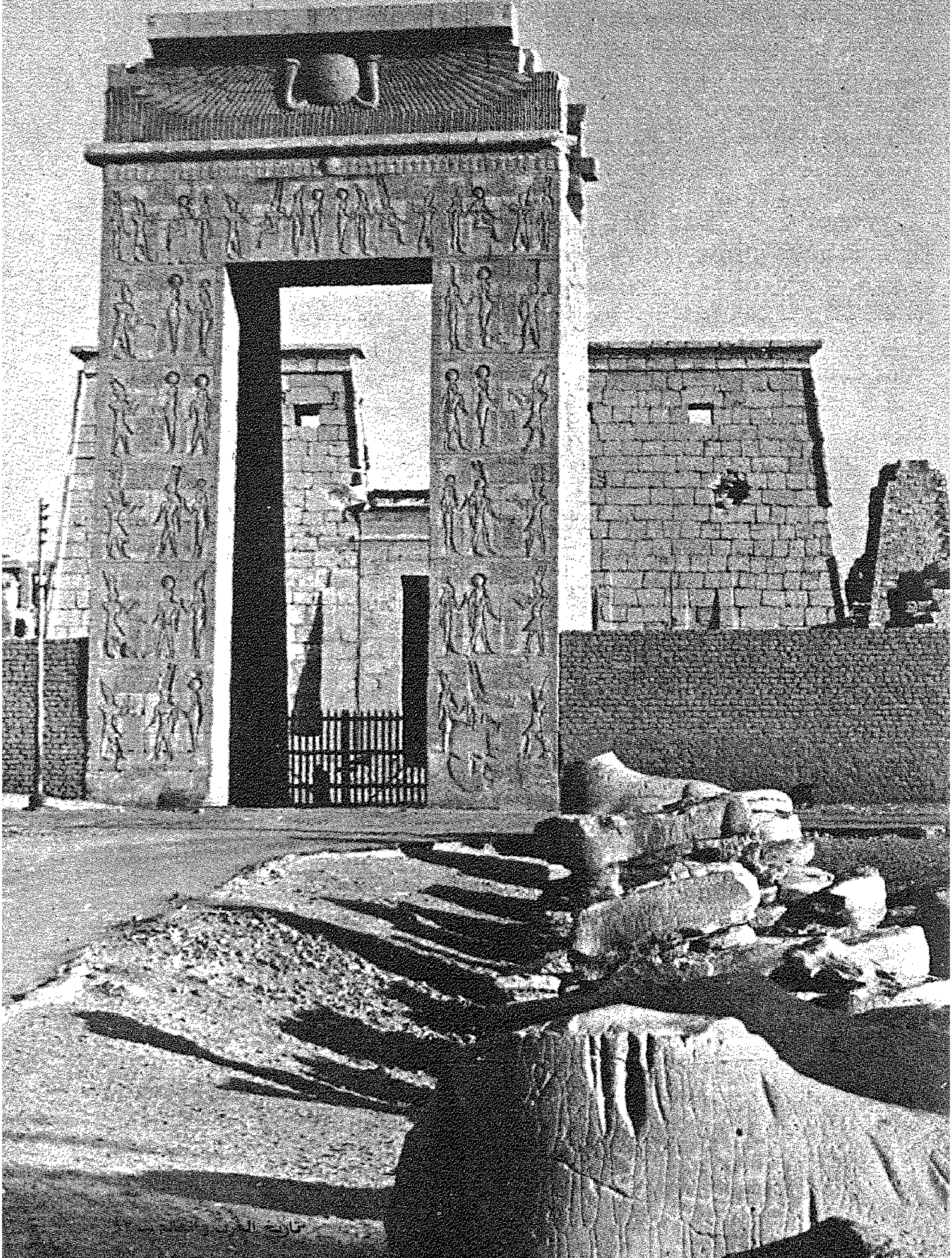
□ بعض الرسوم التي زين بها المصريون القدماء جدران مدافن ملوكهم الواقعة في وادي الملوك القريب من معابد

تكفي للسماح لنا بإلقاء نظرة على ردهة تنحدر في ميل شديد نحو صالة كبيرة مظلمة. ولم نستطع أن نرى أكثر من باب آخر مسدود في القاع، ففتحنا فجوة للدخول منها، وهناك وجدنا ثغرة أخرى استطعنا أن نرى من خلالها غرفة صغيرة تكدس فيها كثير من الأثاث الفاخر المغطى بالذهب المصقول حتى السقف.

وفي تلك الليلة توليت بنفسي حراسة المكان عند فتحة المقبرة، وقد استولت علي يومئذ حالة من الذعر الشديد لم أشعر بمثلها في حياتي.

وفي صباح اليوم التالي، عندما اجتمع فريقنا، رفعنا الأحجار الضخمة عن الجدران لنشق لأنفسنا ثغرة للدخول، وكان هدفنا الأول أن ننظر إلى النقوش التي كتبت باللغة الهيروغليفية على جانبي الضريح لنعرف اسم صاحب المقبرة التي اكتشفناها. وقد قرأنا بين هذه النقوش اسم الأمير «يوا» وزوجته الأميرة «تويو» وهما من الشخصيات التاريخية البارزة، وهما والدا الملكة «تي» زوجة الملك «أمينوفيس الثالث»، وقد

□ المدخل البحري لمعبد الكرنك وقد ازدانت واجهته بالنقوش الفرعونية القديمة



اتضح لأول وهلة أن لصوص المقابر قد سبقونا إلى المقبرة. فقد رفعت أغطية التوابيت ونزعت الأربطة عن وجهي الجثتين لسرقة القلائد الذهبية من حولها، كما وجدنا ما يدل على أن السرقة قد حدثت بعد الدفن مباشرة.

وعلى الرغم من الجو الرهيب الذي يحيط بنا في المكان. فإنني لم أستطع أن أرفع عيني عن وجه الأمير «يوا» الذي كان يرقد أشبه بكهل نائم، وقد استرسل شعره الأبيض إلى الوراء من جبهته بالغضون والتجعدات، بينما أغمضت عيناه وبدا من تحتهما أنفه الكبير، وشبح ابتسامة باهتة على شفتيه، وعلى ذقنه بعض شعيرات قليلة لم تحلق مما يدل على أنه كان مريضاً في يومه الأخير.

ورفعت مصباحي فوق وجهه الذي كانت تبدو عليه علائم الشيخوخة، وارتعشت يدي فأخذت ظلال الضوء تهتز تحت جفونه، فتراجعت إلى الوراء، وقد خيل إلي أنه يوشك أن يفتح عينيه.

ومع أن وجه الأميرة «تويو» لم يكن له مثل هذه الروعة، فقد كان محنطاً بعناية، وقد بدا شعرها الأشهب ومظاهر القلق تعلو قسمات وجهها. وإنني لأذكر خصلة شعر تموجت أطرافها بأناقة على وجهها، وكأن موجة «البرمانت» لم تذهب عنها بعد، على الرغم من أن صاحبتها عاشت منذ خمسة آلاف عام.

وكانت الأشياء التي وضعت في هذه المقبرة مختلفة الطابع، ففي إحدى أركان الغرفة تقف عربة الأميرة وإلى جوارها سريران مريحان من الأبنوس الأسود اللامع عليها حشيات من الحبال المجدولة، وهناك أربعة مقاعد، بينها مقعد ثمين من الأبنوس قدم هدية من بنات الملكة «تي» والملك «أمينوفيس» كما تدل على ذلك الكتابات الهيروغليفية الموجودة على الجدران. كما كانت هناك صناديق وموائد ووسائد ناعمة، وأواني فخارية للزهور، وأدوات للمطبخ، وكلها منتشرة في أنحاء الغرفة، وكان فوق إحدى الموائد إناء كبير من المرمر يحوي سائلاً كثيفاً ظننا أنه عسل، ثم تبين أنه زيت خروع.

وتحتوي المقبرة أيضاً على توابيت حجرية متوسطة الحجم تضم مومياءات لبعض الحيوانات التي كانت مقدسة لديهم وبجانبها أواني مختلفة الأشكال، وإبرتان رفيعتان من العظم، وحلي وخواتم من الذهب الخالص، وأقنعة من الجبس المذهب ومجموعة كبيرة من الخرز الملون، ولوح كبير من الحجر الجيري مسجل عليه قصة طريفة عن صاحب المقبرة ملخصها أنه كانت هناك عادة اتبعها كهنة «آمون» وذلك عندما كانوا يضيقون ذرعاً بأحد الحكام ويستشعرون منه عدم خضوعه لامرتهم أو خروجاً عن إرادتهم، واعتاد الكهنة في مثل هذه الحالات أن يرسلوا إلى ذلك الحاكم رسولاً منهم يخبره أن إرادة المعبود تحتم عليه قتل نفسه وقد لاقى كثير من الحكام حتفهم بهذه الطريقة، معتقدين أنهم يؤدون عملاً دينياً عظيماً يتقربون به إلى معبودهم ويبدو أن الكهنة حاولوا تنفيذ هذه السياسة مع الأمير ولكنه استعمل طريقة أخرى للرد عليهم، فوجه إليهم حملة انتقامية قتلت منهم عدداً كبيراً.

وفي غرفة جانبية من المقبرة وجدنا جثث بعض الحيوانات كالخيل والثيران والأغنام والجمال وعليها سروجها وزينتها التي كانت تصنع من الفضة أو من النحاس، أما الأقمشة التي كسيت بها سروج الخيول والجمال فقد اتسمت بألوان زاهية وصنعة دقيقة.

وفي العام التالي اكتشفنا مقبرة أخرى مماثلة لمقبرة الملكة «تي»، وكان التابوت أكبر حجماً وأكثر بهاء وروعة، وقد صنع من الذهب المرصع بالأحجار الكريمة، بينما أحيطت مومياء الملكة برقائق من الذهب الخالص، وعلى مقربة من فتحة المقبرة، اكتشفنا غرفة صغيرة أخرى منحوتة في الصخر، وقد دفن فيها كلب وقرد الملكة «تي».

وهكذا رحنا نواصل أبحاثنا شتاء بعد آخر إلى أن عثرنا على مقبرة تحتوي على توابيت من العصر اليوناني وكانت مصنوعة من أوراق البردي وبتفكيك أجزاء هذه التوابيت وضم أجزاء الورق جنباً إلى جنب، استطعنا أن نجمع مجلداً بعد آخر من الرسائل الخاصة والوثائق والقطع الأدبية ذات القيمة التاريخية. وقد قمنا بنقل عدد غير قليل من الوثائق التاريخية واللوحات والنقوش المسيحية المنحوتة في الصخر على جانبي المقبرة إلى المتحف القبطي بالقاهرة لحفظها من لصوص المقابر. ●

مَوطنهَا لبــنـان
أرزة طيران الشرق الأوسط الخطوط الجويّة اللبنانيّة
جُذورهَا راسخة في الشرق الأوسَط
وأغصَانهَا ممتدّة في أرجَاء الدّنيا



كتب وردتنا



□ **تأثيرات الايديولوجيا في علم الاجتماع**
معهد الانماء العربي ـ بيروت ـ الطبعة الأولى ـ
٤٢١ صفحة. .... د. سمير أيوب

□ **القبيلة والدولة في البحرين**
تطور نظام السلطة وممارستها
معهد الانماء العربي ـ بيروت ـ الطبعة الأولى ـ
٣٨٧ صفحة. .... د. فؤاد اسحق الخوري

□ **التراث والحداثة**
مراجع لدراسة الفكر العربي الحاضر
معهد الانماء العربي ـ بيروت ـ الطبعة الأولى ـ
٢٨١ صفحة. .... بولس الخوري

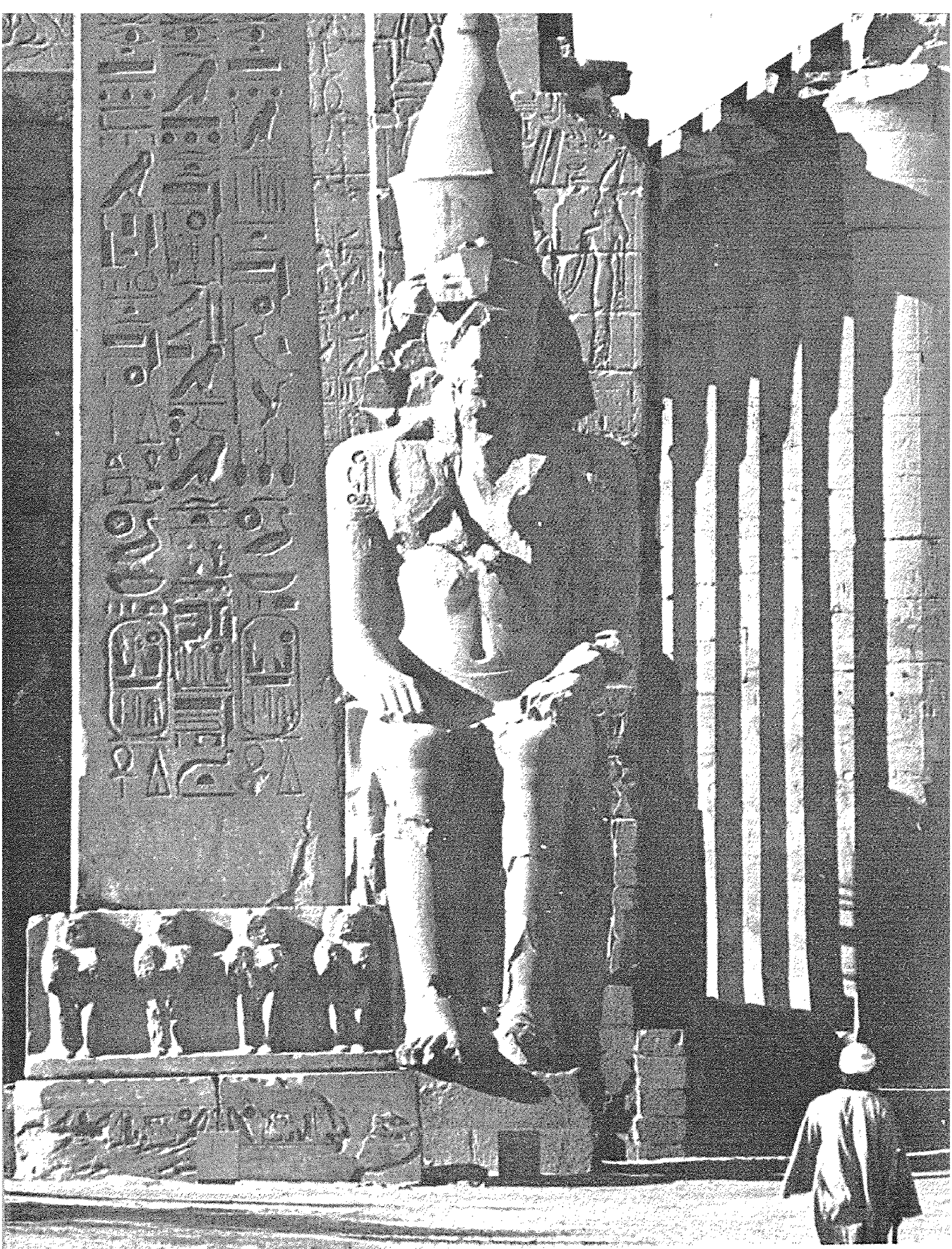
□ **بحوث في الفكر القومي العربي**
معهد الانماء العربي ـ بيروت ـ المجلد الأول ـ
٣٦٧ صفحة. .... د. حلين اليازجي
د. فهمية شرف الدين
د. سعيد مراد
حسن نور الدين
غادة كنفاني
رغدة نحاس
اعداد واشراف: د. معن زيادة

□ **تطور النظرة الاسلامية إلى أوروبا**
معهد الانماء العربي ـ بيروت ـ الطبعة الأولى ـ
٢٦٢ صفحة. .... د. خالد زيادة

□ **دراسات في القصة السعودية والخليج العربي**
سلسلة تصدر عن جمعية الثقافة والفنون (١٤)
الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٤م .... تأليف: محمود رداوي

□ **مقاطع من حديث البنفسج**
صدرت عن «نادي القصة السعودي» ـ الرياض
الطبعة الأولى، ١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٤م .... خالد أحمد اليوسف

□ **شوق وشوق**
سلسلة تصدر عن جمعية الثقافة والفنون (١)
الرياض .... شعر: عبدالوهاب إبراهيم الآياشي



□ رمسيس الثاني جالساً على نصب بعلو ٤٥ قدماً.